مُسلماتٌ خالداتٌ
حَولَ الرَّسولِ ﷺ

مُسلماتٌ خالداتٌ حَولَ الرَّسولِ ﷺ

المجلدُ الأوَّلُ

إعـداد

محمد عمر الداعوق محمد علي القطب

الدَّارُ النَّموذجيَّةُ للطِّباعةِ والنَّشرِ

صَيدا - لبنان

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا - جزين
07 230195 - 00961 7 230841
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2019م - 1440هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت ألكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدمًا.

E. Mail: alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

المحتويات

خَدِيجَةُ أُمُّ ٱلْمُؤْمِنِين..... 9

فَاطِمَة البَتُـول..... 27

مارِيَةَ القُبْطِيَـة..... 43

أُم هانِـئ..... 55

أم كُلْثُوم بِنـتُ عَلي..... 65

أم سَـلَمَة..... 77

مَيمُونَةُ بِنْتُ الحَارِثِ..... 91

أُمُّ حَبِيبَـة..... 99

رُقَـيَّةُ..... 109

صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ..... 119

زَيْنَبُ الكُبرَى بِنتُ الرَسول ﷺ... 127

أم كُلْثُوم بِنتُ الرَسول ﷺ..... 139

عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ 149

سَـوْدَةُ بِنْـتُ زَمْعَـةَ..... 163

جُوَيْرِيَةُ بِنتُ الحَرِثِ..... 179

حَفْصَةُ بِنْتُ عَمَرَ بنِ الخَطَّابِ... 193

زَيْنَبُ بِنتُ عَمَةِ رَسولِ الله ﷺ.... 207

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: 21]، فالرسول ﷺ القدوة وهو الأسوة لكل مؤمن ومؤمنة وكل مسلم ومسلمة، وهو المنار المحتذى لكل من انقاد قلبه لله واستسلم بجوارحه لشريعة العزيز الوهاب.

فمن كان متأسيًا فليتأسى برسولِ الله ﷺ ومن كان مُقتديًا فليقتدي بمحمد رسول الهدى ونبي الرحمة صلّى الله عليه وعلى آل بيته وصحبه الأطهار.

و ها هو بيت النبي ﷺ بأزواجه الأطهار والصحابيات الخالدات وبناته الأبرار يسمو فوق كل البيوت .. إنه بيت السعادة الأسرية .. إنه النموذج الفذ .. إنه الطريق إلى القناعة والرضى .. إنه الوسيلة لبلوغ المنى .. إنه السيرة النبوية في بيوتات خير البرية .. إنه السجل الناصع في صفحة التاريخ .. إنه الحضارة المشرفة والتي قضت على الحضارات المزيفة .. إنها الحقيقة مجسدة برسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار .

وهـذا الكتـاب . . صفحة من صفحـات هذا التاريـخ المجيد . . جاء ليروي لفتياتنا وشـبابِنا شـذى وعبيـر الحياة النبوية في بيوتات سـطرت للأمجاد تاريخًا وللتاريخ أمجادًا.

جـاء هذا الكتاب يحكي لأطفالنا بأسـلوب سـهل مبسـط عيش النبي ﷺ مـع زوجاته الفاضلات . . مع أمهـات المؤمنين والمؤمنات . . جاء ليحكـي لهم قصص الصبر والتضحيات مـع الصحابيات الخالدات بناة الأُسـر الصالحـة والمكرُمـات . . قصصًـا مفصلـة تروي دقائـق الأمور وعظائمها . .

جـاء هـذا الكتاب ليروي لهـم قصص النبي ﷺ مع بناتـه الأطهار . . قصـة الأب الرسـول ﷺ مع أفضل ذريـة تحت ظل السـماء . . إنه بحق قصة الحضارة البشرية.

سـوف يعيـش أطفالنا اليافعين عبر سـطور هذا الكتـاب رحلة الزمان الحـي لمسـلمات خالـدات عشـن حـول الرسـول ﷺ ورحلـة الحياة المشرفة في زمن ظهرت فيه أكثر القيم الأخلاقية والإنسانية لدى البشر.

النَّاشِر

خديجة أم المؤمنين

هِيَ ٱلزَّوْجةُ ٱلأُولَى للنبيِّ ﷺ، وَأَوَّلُ مُسلمَةٍ آمَنَتْ به وَصَدَّقَتْهُ وَحَمَلَتْ لَقَبَ «أُمُّ ٱلْمُؤْمِنين».

وَهِيَ أُمُّ أَوْلادِ النّبِيِّ ﷺ: الْقَاسِمُ وَعَبْدُ ٱللَّهِ «ٱلطَّيِّبِ أَوِ ٱلطَّاهِرِ» وَزَيْنَبُ وَرُقِيَّةُ وَأُمُّ كُلْثومَ وَفاطِمَةُ.

تِلْكَ ٱلشَّخْصِيَّةُ هِيَ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْد ٱلْعُزَّى ٱبْنُ قُصَيٍّ ٱلْقُرَشِيَّةُ ٱلأَسَدِيَّةُ، سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ زَمَانِهَا.

وَهِيَ ٱلْمُلَقَّبَةُ بِٱلطَّاهِرَةِ وَسَيِّدَةُ قُرَيْشٍ.

مَوْلِدُهَا

وُلِدَتْ رضي الله عنها فِيْ بَيْتِ مَجْدٍ وَسُؤْدُدٍ وَرِيَاسَةٍ قَبْلَ عَامِ ٱلْفِيلِ بِخَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا تَقْرِيبًا.

وَقَدْ نَشَأَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ فِيْ بَيْتٍ مِنَ ٱلْبُيوتَاتِ ٱلشَّرِيفَةِ فَتَرَبَّتْ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ، وٱتَّصَفَتْ بِٱلْحَزْمِ وٱلْعَقْلِ حَتَّى دَعَاهَا قَوْمُهَا (ٱلطَّاهِرَةُ) لِشِدَّةِ حِرْصِهَا عَلَى ٱلْخُلُقِ ٱلْكَرِيمِ، وَٱلْأَدَبِ ٱلْعَظِيمِ.

وَقَدْ مَاتَ أَبُوهَا خُوَيْلِدُ قَبْلَ حَرْبِ ٱلْفِجَارِ، فَأَشْرَفَ عَلَى شُؤُونِهَا عَمُّهَا عَمْرُو بْنُ أَسَدٍ.

زَوَاجُهَا

كَبُرَتْ خَدِيجَةُ وَأَخَذَ يَظْهَرُ فَضْلُ عَقْلِهَا فِي ٱلْمُجْتَمَعِ، فَتَقَدَّمَ لِخِطْبَتِهَا أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ، لِشَرَفِ حَسَبِهَا وَنَسَبِهَا وَعَظِيمِ أَدَبِهَا. فَتَزَوَّجَتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ أَبَا هَالَةَ. فَأَنْجَبَتْ مِنْهُ هَالَةَ، وَهِنْدَاً وَبِهِ كَانَتْ تُكْنَى، وَقَدْ عَاشَ هِنْدٌ حَتَّى أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَقَدْ وَصَفَ هِنْدٌ النَّبِيَّ فَأَحسَنَ وَصْفَهُ وَ أَتْقَنَهُ.

ثُمَّ حَدَثَ فِرَاقٌ بَيْنَ ٱلسَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ وَزَوْجِهَا ٱلْأَوَّلِ أَبِي هَالَةَ بِسَبَبِ مَوْتِهِ.

ثُمَّ تَزَوَّجَتِ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلطَّاهِرَةُ مِنْ عَتِيقِ بْنِ عَائِذِ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ ٱلمَخْزُومِيِّ.

وَمَكَثَتْ مَعَهُ فَتْرَةً مِنَ ٱلزَّمَنِ ثُمَّ ٱفْتَرَقَا أَيْضًا.

وَبَعْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ لَهَا أَشْرَافُ قُرَيْشٍ وَكُلٌّ مِنْهُم يَرْغَبُهَا زَوْجَةً لَهُ. وَلٰكِنْ يَبْدُو أَنَّهَا آثَرَتْ أَنْ تَنْصَرِفَ لِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهَا، وَإِدَارَةِ شُؤُونِ تِجَارَتِهَا، فَقَدْ

كَانَتْ غَنِيَّةً ذَاتَ مَالٍ. وَكَانَتْ تَسْتَأْجِرُ ٱلرِّجَالَ فِي مَالِهَا لِيُتَاجِرُوا لَهَا، وَتَدْفَعُ لَهُمُ ٱلمَالَ مُضَارَبَةً، فَتَكونُ عِيرُهَا كَعَامَّةِ عِيرِ قُرَيْشٍ.

صِفَاتُهَا

كَانَتْ رضي الله عنها تَمْتَازُ بِحِدَّةِ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلطُّهْرِ وَٱلسَّمَاحَةِ وَٱلسَّخَاءِ.

وَهِيَ مِمَّنْ كَمُلَ مِنَ ٱلنِّسَاءِ، لَقَّبَهَا ٱلرَّسُولُ ﷺ بِسَيِّدَةِ نِسَاءِ أَهْلِ زَمَانِهَا.

وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ ٱلجَنَّةِ بِشَهَادَةِ زَوْجِهَا ٱلحَبِيبِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لَهَا: «إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِبَيْتٍ فِي ٱلجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ».

وَقَدْ أَقْرَأَهَا ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ ٱلسَّلَامَ عَلَى لِسَانِ أَمِينِ ٱلوَحْيِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

كَانَتْ خَدِيجَةُ شَرِيفَةً مُحَسَّبَةً، حَازِمَةً لَبِيبَةً، عَاقِلَةً مَصُونَةً جَلِيلَةً طَاهِرَةً نَقِيَّةَ ٱلسَّرِيرَةِ، صَافِيَةَ ٱلرُّوحِ، كَثِيرَةَ ٱلمَالِ، ذَاتَ حُسْنٍ وَجَمَالٍ، طَلْقَةَ ٱلمُحَيَّا، بَاشَّةَ ٱلأَسَارِيرِ، تَتَمَتَّعُ بِقِسْطٍ كَبِيرٍ مِنْ سُمُوِّ ٱلأَخْلَاقِ، وَشَرَفِ ٱلحَسَبِ، وَعُلُوِّ ٱلنَّسَبِ.

وَهَذَا كُلُّهُ هَيَّأَهَا لِأَعْظَمِ مَنْزِلَةٍ لَهَا فِي هٰذَا ٱلوُجُودِ.

ٱلرِّحْلَةُ ٱلْمُوَفَّقَةُ ٱلْمُبَارَكَةُ

أَحْسَنَتْ خَدِيجَةُ إِشْرَافَهَا عَلَى أَمْوَالِهَا فَنَمَتْ أَمْوَالُهَا بِمُرُورِ ٱلأَيَّامِ، وَاتَّسَعَتْ تِجَارَتُهَا إِلىٰ ٱلشَّامِ. وَأَخَذَتْ تُفَكِّرُ فِي رَجُلٍ أَمِينٍ يُحْسِنُ لَهَا إِدَارَةَ ٱلأَمْوَالِ وَٱلإِشْرَافَ عَلىٰ ٱلتِّجَارَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلىٰ ٱلشَّامِ.

ثُمَّ بَلَغَهَا عَنِ ٱلأَمِينِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ أَمَانَتُهُ وَصِدْقُهُ، فَرَغِبَتْ أَنْ تَدْفَعَ تِجَارَتَهَا إِلَيْهِ لِيُتَاجِرَ لَهَا وَتُعْطِيَهُ أَكْثَرَ مِمَّا تُعْطِي غَيْرَهُ مِمَّنْ تَاجَرَ لَهَا مَعْ غُلَامٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ مَيْسَرَةُ.

قَالَ أَبُو طَالِبٍ لابْنِ أَخِيهِ ٱلأَمِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «هٰذِهِ عِيرُ قَوْمِكَ قَدْ حَضَرَ خُرُوجُهَا إِلَى ٱلشَّامِ، وَخَدِيجَةُ تَبْعَثُ رِجَالاً يَتَّجِرُونَ فِي مَالِهَا وَيُصِيبُونَ مَنَافِعَ، فَلَوْ جِئْتَهَا لَفَضَّلَتْكَ عَلىٰ غَيْرِكَ لِمَا يَبْلُغُهَا عَنْكَ مِنْ أَمَانَتِكَ وَطَهَارَتِكَ، وَإِنْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَأْتِيَ ٱلشَّامَ وَأَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْيَهُودِ».

وَقَالَ لَهُ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ: «مَا أَحْبَبْتَ يَا عَمُّ».

وَوَافَقَ ٱلأَمِينُ.

وَقَالَتْ لَهُ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ: «إِنَّهُ مِمَّا دَعَانِي إِلَىٰ ٱلْبَعْثِ إِلَيْكَ دونَ أَهْلِ مَكَّةَ مَا بَلَغَنِي مِنْ صِدْقِ حَدِيثِكَ وَعَظِيمِ أَمَانَتِكَ وَكَرَمِ أَخْلَاقِكَ».

وَلَمْ تَكْتَفِ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلْكَرِيمَةُ بِمَا بَلَغَهَا وَسَمِعَتْهُ عَنْهُ بَلْ أَرْسَلَتْ

مَعَهُ غُلَامَهَا مَيْسَرَةَ لِيُرَاقِبَ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَيُبَلِّغَهَا جَمِيعَ تَصَرُّفَاتِهِ عِنْدَمَا يَعُودُ.

وَسَافَرَ ٱلصَّادِقُ ٱلأَمِينُ مَعَ غُلَامِهَا فِي ٱلتِّجَارَةِ وَٱنْصَرَفَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ إِلَىٰ إِدَارَةِ شُؤُونِهَا فِي مَكَّةَ فِي ٱنْتِظَارِ عَوْدَةِ ٱلْقَافِلَةِ مِنَ ٱلشَّامِ.

وَفِي أَحَدِ ٱلأَيَّامِ دَخَلَ مَيْسَرَةُ مُسْرِعًا عَلَىٰ سَيِّدَتِهِ يَزُفُّ ٱلْبُشْرَى بِعَوْدَتِهِ مَعْ مُحَمَّدٍ ٱلأَمِينِ سَالِمَيْنِ مُحَمَّلَيْنِ بِالأَرْبَاحِ ٱلْوَفِيرَةِ وَٱلتِّجَارَةِ ٱلْكَثِيرَةِ.

وَأَسْرَعَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ لِتَسْتَقْبِلَ ٱلْأَمِينَ هَاشَّةً بَاشَّةً وَهَنَّأَتْهُ عَلَىٰ سَلَامَةِ ٱلْوُصُولِ.

وَجَلَسَ ٱلْأَمِينُ يَقُصُّ عَلَيْهَا أَنْبَاءَ رِحْلَتِهِ ٱلْمُوَفَّقَةِ، وَأَحْصَى لَهَا ٱلرِّبْحَ فَوَجَدَتْهُ مُضَاعَفًا فِي هَذَا ٱلْعَامِ، فَأَجْزَلَتْ لَهُ ٱلْأَجْرَ وَأَعْطَتْهُ ضِعْفَ مَا قَالَتْ، فَخَرَجَ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِهَا وَهُوَ رَاضٍ مُطْمَئِنَّ ٱلْبَالِ.

وَأَقْبَلَتْ خَدِيجَةُ عَلَىٰ غُلَامِهَا مَيْسَرَةَ تَسْمَعُ مِنْهُ أَنْبَاءَ ٱلرِّحْلَةِ وَهُوَ يَقُصُّ عَلَيْهَا مَا رَآهُ مِنْ مُمَيِّزَاتٍ لِشَخْصِيَّةِ ٱلصَّادِقِ ٱلْأَمِينِ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا لاحَظَهُ مَيْسَرَةُ وَلَفَتَ نَظَرَهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْهَاجِرَةُ وَٱشْتَدَّ ٱلحَرُّ يَرَى غَمَامَةً تُظَلِّلُهُ مِنَ ٱلشَّمْسِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَىٰ بَعِيرِهِ.

وَٱلشَّيْءُ ٱلثَّانِي كَانَ صِدْقَهُ فِي ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ.

وَٱلشَّيءُ ٱلثَّالِثُ ٱلَّذي لَاحَظَهُ مَيْسَرَةُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَحْلِفُ عَلَىٰ ثَمَنِ سِلْعَةٍ قَطُّ وَلَا يُلِحُّ عَلَىٰ ٱلتَّاجِرِ أَنْ يَأْخُذَ سِلْعَتَهُ، وَأَشْيَاءَ أُخْرَى كَثِيرَةٌ.

وَأُخِذَتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِما سَمِعَتْهُ عَنْ كَرِيمِ صفاتِ ٱلْأَمِينِ وَعَظِيمِ سَجَايَاهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ عَلَيْهِ.

زَوَاجٌ مَيْمُونٌ

شُغِلَتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِالْأَمِينِ مُحَمَّدٍ وَتَسَاءَلَت:

تُرَى هَلْ يَقْبَلُ ٱلْأَمِينُ ٱلزَّوَاجَ مِنْهَا وَهِيَ ٱلَّتِي بَلَغَتِ ٱلْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهَا وَهُوَ لَمْ يَزَلْ فِي ٱلْخَامِسَةِ وَٱلْعِشْرِين؟.

وَبَقِيَتْ عَلى حَالِهَا حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيْهَا صَدِيقَتُها نَفِيسَةُ بِنْتُ مُنْيَةَ فَجَلَسَتْ مَعْهَا تَتَبَادَلَانِ أَطْرَافَ ٱلْحَدِيثِ فَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهَا مَا يَدُورُ بِخَلَدِهَا وَهِيَ تَسْتَغْرِبُ ذلِكَ ٱلنَّبْضَ ٱلْعَمِيقِ ٱلَّذِي ٱجْتَاحَ جَوَارِحَهَا وسَكَنَ فُؤَادَهَا.

وَلَكِنَّ ٱلصَّدِيقَةَ ٱلْوَفِيَّةَ هَدَّأَتِ مِنْ رَوْعِهَا وَطَمْأَنَتْ خَاطِرَهَا وَذَكَّرَتْهَا بِنَسَبِهَا وَحَسَبِهَا وَبِأَنَّهَا مَا زَالَتْ جَمِيلَةً فَتِيَّةً وَأَنَّهَا إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ ثَرِيَّةً وَكَمْ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهَا طَلَبَ يَدَهَا وَتَمَنَّاهَا زَوْجَةً لَهُ.

وَخَرَجَتْ ٱلسَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ مِنْ عِنْدِ صَدِيقَتِهَا وَٱنْطَلَقَتْ إِلَى مُحَمَّدٍ ٱلْأَمِينِ، وَمَا إِنْ جَلَسَتْ حَتَّى ٱبْتَدَرَتْهُ مُتَسَائِلَةً:

– يَا مُحَمَّدُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ؟

وَأَحَسَّ ٱلْأَمِينُ مُحَمَّدٌ أَنَّهَا تَعْرِضُ عَلَيْهِ زَوْجَةً تُرَشِّحُهَا لَهُ فَقَالَ لَهَا: «مَا فِي يَدِي شَيءٌ أَتَزَوَّجُ بِهِ».

وَٱبْتَسَمَتْ نَفِيسَةُ ثُمَّ قَالَتْ:

«فَإِنْ كُفِيتَ وَدُعِيتَ إِلَى ٱلْمَالِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلشَّرَفِ وَٱلْكَفَاءَةِ فَهَلْ تُجِيبُ؟».

وَتَسَاءَلَ ٱلصَّادِقُ ٱلْأَمِينُ: «وَمَنْ؟».

قَالَتْ: «خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».

وَقَالَ ٱلْأَمِينُ: «فَإِنْ وَافَقَتْ فَقَدْ قَبِلْتُ».

وَٱنْطَلَقَتْ نَفِيسَةُ فَدَخَلَتْ عَلَى خَدِيجَةَ تَزِفُّ إِلَيْهَا ٱلْبُشْرَى بِمُوَافَقَةِ ٱلْأَمِينِ عَلَى ٱلزَّوَاجِ مِنْهَا. فَأَشْرَقَ مُحَيَّاهَا وَتَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُهَا وَشَكَرَتْ صَدِيقَتَهَا عَلَى مُهِمَّتِهَا ٱلْجَلِيلَةِ. وَقَامَتْ فِي حُبورٍ تُوَزِّعُ ٱلْعَطَايَا عَلَى ٱلْفُقَرَاءِ شُكْرًا للهِ عَلَى تِلْكَ ٱلنِّعْمَةِ ٱلْعَظِيمَةِ، وَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْغَامِرَةِ.

وَأَخْبَرَ ٱلْأَمِينُ أَعْمَامَهُ أَبا طالِبٍ وَٱلْحَمْزَةَ وَٱلْعَبَّاسَ بِرَغْبَتِهِ فِي ٱلزَّوَاجِ مِنَ ٱلسَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ وَطَلَبَ مِنْهُم خِطْبَتَها لَهُ فَوافَقَ أَعْمَامُهُ مَسْرُورِينَ بِاخْتِيَارِ ابْنِ أَخِيهِم.

وَحَدَّدَ أَعْمَامُهُ مَع عَمِّها عَمْرِ بْنِ أَسَدٍ يَوْمًا لِزَوَاجِ مُحَمَّدٍ بِخَدِيجَةَ.

وَفِي يَوْمٍ مَا مِنْ أَيَّامِ مكَّةَ ٱلسَّعِيدَةَ ٱنْطَلَقَ خَبَرُ زَوَاجِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدُٱللهِ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ.

وَأُقِيمَتِ ٱلْوَلَائِمُ فِي بَيْتِ ٱلْعَرُوسِ وَنُحِرَتْ ٱلذَّبائِحُ وَوُزِّعَتْ عَلَى فُقَرَاءِ مَكَّةَ فَأُطْعِمَ ٱلْجَائِعُ وَأُعْطِيَ ٱلْمَحْرُومُ.

وَأَخَذَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ تَسْتَعِدُّ لِيَوْمِ زَفَافِهَا وَأَحَسَّتْ لِفَرْطِ فَرَحِهَا وَعَظِيمِ بَهْجَتِهَا أَنَّهَا نَالَتْ مَا تُرِيد.

وَجَاءَ ٱلْيَوْمُ ٱلْمَوْعُودُ وَأَصْبَحَت ٱلطَّاهِرَةُ زَوْجًا لِمُحَمَّدٍ ٱلْأَمِينِ ﷺ.

وَسَعِدَتْ خَدِيجَةُ بِتَمَامِ زَوَاجِهَا مِنْ زَيْنِ رِجَالِ قُرَيْش وَأَفْضَلِ الْناسِ أَجْمَعين.

خَدِيجَةُ ٱلزَّوْجَةُ

ضَرَبَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ أَجَلَّ ٱلْأَمْثَالِ وَأَرْوَعَهَا عَلَى حُبِّهَا لِزَوْجِهَا وَإِيثَارِهَا لِمَا يُحِبُّهُ. فَإِنَّهَا عِنْدَمَا رَأَتْ حُبَّهُ لِمَوْلَاهَا زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَهَبَتْهُ لَهُ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ وَكَرَمِ نَفْسٍ.

وَلَمَّا آنَسَتْ مِنْهُ ٱلرَّغْبَةَ فِي أَنْ يَكْفُلَ أَحَدَ أَبْنَاءِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ رَحَّبَتْ وَأَفْسَحَتْ لِلْإِمَامِ عَلِيٍّ كَرَّمَ ٱللَّهُ وَجْهَهُ فِي قَلْبِهَا مَكَانًا كَبِيرًا وَرَعَتْهُ بِعَيْنِ

ٱلْحُبِّ وَٱلرِّعَايَةِ، فَخَفَّفَتْ بِذَلِكَ عَنْ أَبِي طَالِبٍ عِرْفَانًا بِٱلْجَمِيلِ.

وَبِهذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ قَدَّمَتْ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلطَّاهِرَةُ لِعَلِيٍّ وَزَيْدٍ ٱلْفُرْصَةَ ٱلثَّمِينَةَ لِدِرَاسَةِ أَخْلَاقِ زَوْجِهَا مُحَمَّدٍ ﷺ. فَلَمَّا بُعِثَ بِٱلدِّينِ ٱلْخَاتَمِ وَدَعَاهُمَا إِلَى ٱلْإِيمَانِ كَانَ ٱلْإِمَامُ عَلِيٌّ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ خَيْرَ سَنَدَيْنِ وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلْأَرْكَانِ ٱلْمُحِيطَةِ بِٱلنَّبِيِّ ﷺ.

أَوْلَادُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ ٱلسَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ

تَزَوَّجَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِٱلْأَمِينِ، فَتَمَّ هَنَاؤُهَا. وَلَكِنَّ صَرْحَ ٱلزَّوْجِيَّةِ مَا زَالَتْ تَنْقُصُهُ رَكِيزَةٌ هَامَّةٌ هِيَ وُجُودُ ٱلذُّرِّيَّةِ ٱلَّتِي تُكَمِّلُ أَرْكَانَ ٱلزَّوَاجِ ٱلسَّعِيدِ.

إِنَّ وُجُودَ ٱلْأَطْفَالِ فِي ٱلْمَنْزِلِ يُضْفِي جَوًّا مِنَ ٱلْمَرَحِ وَٱلْغِبْطَةِ عَلَى ٱلْأَبَوَيْنِ، وَيُبْعِدُ شَبَحَ ٱلْمَلَلِ مِنْ أُفُقِ ٱلْحَيَاةِ ٱلزَّوْجِيَّةِ، وَٱبْتِسَامَةُ ٱلطِّفْلِ تُنْسِي ٱلْأُمَّ هُمُومَهَا، وَٱلْأَبَ مَشَاغِلَهُ وَتُشِيعُ ٱلْهُدُوءَ فِي أَنْحَاءِ ٱلْمَنْزِلِ.

وَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ٱلْبَيْتِ ٱلسَّعِيدِ بِٱلنِّعْمَةِ بَعْدَ ٱلنِّعْمَةِ بِٱلْمَالِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْبَنَاتِ.

فَقَدْ حَمَلَتْ خَدِيجَةُ أُولَى ٱلثَّمَرَاتِ ٱلطَّيِّبَةِ لِذَلِكَ ٱلزَّوَاجِ ٱلنَّاجِحِ.

وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِٱلْحَمْلِ ٱلأَوَّلِ لَهَا وَلَكِنَّهَا كَادَتْ تَطِيرُ مِنَ ٱلْفَرَحِ عِنْدَمَا شَعَرَتْ بِهِ لِأَنَّهُ كانَ مِنْ خَيْرِ ٱلْأَزْوَاجِ وَأَشْرَفِ ٱلنّاسِ جَمِيعًا.

وَٱنْتَشَرَ ٱلخَبَرُ ٱلسَّعِيدُ فِي أَرْجاءِ مَكَّةَ وَفِي دورِ بَنِي هاشِمٍ.

وَٱسْتَعَدَّتِ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلطَّاهِرَةُ لِاسْتِقْبَالِ وَلِيدِها ٱلأَوَّل مِن زَوْجِهَا ٱلْحَبِيبِ فَأَعَدَّتْ ٱلْقَابِلَةَ وَٱلْمُرْضِعَ قَبْلَ أَنْ تَلِدَ وَأَعَدَّتْ ٱحْتِيَاجَاتِ ٱلْمَوْلُودِ.

وَحَانَتْ سَاعَةُ ٱلْمَخاضِ وَتَحَمَّلَتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ ٱلآلامَ بِصَبْرٍ وَشَجَاعَةٍ. وَتَلَقَّى ٱلْأَمِينُ خَبَرَ قِيَامِ زَوْجَتِهِ بِالسَّلامَةِ وَرَأَى وَلِيدَتَهُ ٱلْأُولى. وَتَلَقَّاهَا ٱلْوَالِدُ بِٱلْبِشْرِ وَٱلتَّرْحَابِ وَرَنَا إِلَيْهَا بِٱبْتِسَامَةٍ عَذْبَةٍ وَحَمَلَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ ٱقْتَرَبَ مِنْ زَوْجَتِهِ ٱلْحَبِيبَةِ وَهَنَّأَهَا بِٱلسَّلَامَةِ ثُمَّ سَمَّاها زَيْنَبُ.

وَذُبِحَتِ ٱلذَّبائِحُ فَرَحًا وَٱبْتِهَاجًا بِمَوْلِدِ زَهْرَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَأَسْلَمَتْهَا أُمُّهَا لِلْمُرْضِعَةِ عَلَى عَادَةِ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ.

وَبَعْدَ عَامٍ تَقْرِيبًا جاءَتِ ٱلابْنَةُ ٱلثَّانِيَةُ فَسَمَّاهَا ٱلْأَمِينُ رُقَيَّةُ.

ثُمَّ تَلَتْ زَيْنَبَ وَرُقَيَّةَ ٱلطِّفْلَةُ ٱلثَّالِثَةُ أُمُّ كُلْثومٍ ثُمَّ جاءَتْ فَاطِمَةُ ٱلزَّهْراءُ.

وَهَكذا رُزِقَتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ مِنْ زَوْجِهَا ٱلْأَمِينِ بِأَرْبَعِ زَهَراتٍ ناضِراتٍ أَضَاءَتْ حَيَاتَهُمَا بِبَشَاشَةِ وُجُوهِهِنَّ وَطَلَاقَةِ مُحَيَّاهُنّ.

وَمَضَتِ ٱلْأَعْوَامُ ثُمَّ حَمَلَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ لِلْمَرَّةِ ٱلْخَامِسَةِ فَٱبْتَهَلَتْ

إِلَى رَبِّهَا أَنْ يَرْزُقَهَا بِغُلَامٍ. وَٱسْتَجَابَ ٱللَّهُ لِابْتِهَالَاتِ ٱلْأُمِّ ٱلطَّاهِرَةِ وَجَاءَتِ ٱلْبُشْرَى بِمَوْلِدِ طِفْلٍ جَمِيلٍ فَفَرِحَ ٱلْأَبَوَانِ فَرَحًا عَظِيمًا وَأَسْمَاهُ ٱلْأَمِينُ مُحَمَّدُ: ٱلْقَاسِمُ. وَبَعْدَهُ جَاءَ عَبْدُاللَّهِ وَلُقِّبَ بِٱلطَّيِّبِ وَٱلطَّاهِرِ وَقِيلَ إِنَّهُ لُقِّبَ بِهَذَيْنِ ٱللَّقَبَيْنِ لِأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ بَعْثَةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ.

وَسَعِدَتِ ٱلْأُمُّ ٱلْعَظِيمَةُ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى أُسْرَتِهَا يَكْتَمِلُ بِنَاؤُهَا وَيَشْتَدُّ عُودُهَا. أَلَمْ تُنْجِبْ مِنْ سَيِّدِ ٱلْخَلْقِ أَرْبَعَ بَنَاتٍ وَوَلَدَيْنِ فَأَيُّ شَرَفٍ أَكْثَرُ مِنْ هٰذَا؟ لَقَدْ قَرَّتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِدَوْحَتِهَا ٱلْمُبَارَكَةِ وَنَسْلِهَا ٱلطَّيِّبِ، وَأَخَذَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ٱلْأَمِينُ يَغْرِسُ فِيهِمْ ٱلْعَادَاتِ ٱلْحَسَنَةَ وَٱلصِّفَاتِ ٱلْحَمِيدَةَ.

ٱلزَّوْجَةُ ٱلْمُخْلِصَةُ ٱلْمُجَاهِدَةُ

اِنْصَرَفَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ لِإِدَارَةِ بَيْتِهَا وَٱلْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ ٱلْمَنْزِلِ عَلَى كَثْرَتِهَا وَإِرْهَاقِهَا وَهِيَ جِدُّ سَعِيدَةٍ بِذَلِكَ، تَقُومُ بِهِ فِي حُبٍّ وَإِخْلَاصٍ وَتَفَانٍ. وَأَخَذَتْ تُشْرِفُ عَلَى تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهَا، وَتَقُومُ بِرِعَايَتِهِم وَتَلْبِيَةِ ٱحْتِيَاجَاتِهِم.

وَعَمِلَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ كَثِيرًا لِتُوَفِّرَ لِزَوْجِهَا ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَكَانَ ٱلْهَادِئَ وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ لَاحَظَتْ مَيْلَهُ لِلتَّحَنُّثِ وَحُبَّهِ لِلْعُزْلَةِ وَٱلتَّأَمُّلِ.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِدَةِ عَادَ ٱلرَّسُولُ إِلَى زَوْجَتِهِ يَرْجُفُ وَهُوَ يَقُولُ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي».

فَٱسْتَوْضَحَتْ مِنْهُ ٱلْأَمْرَ.

فَقَالَ لَهَا: «يَا خَدِيجَةُ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

وَقَالَتْ لَهُ ٱلزَّوْجَةُ ٱلْحَبِيبَةُ بِمِلْءِ ثِقَتِهَا: «كَلَّا يَا ٱبْنَ ٱلْعَمِّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ ٱللَّهُ أَبَدًا أَبْشِرْ وَٱثْبُتْ فَإِنَّكَ تَصِلُ ٱلرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ ٱلْكَلَّ، وَتَقْرِي ٱلضَّيْفَ، وَتُكْسِبُ ٱلْمَعْدُومَ، وَتَصْدُقُ ٱلْحَدِيثَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ ٱلْحَقِّ، إِنَّنِي لَأَرْجُو أَنْ تَكونَ نَبِيَّ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ».

وَٱطْمَأَنَّ فُؤَادُ ٱلنَّبِيِّ أَمَامَ هٰذَا ٱلتَّثْبِيتِ وَعَاوَدَتْهُ سَكِينَتُهُ أَمَامَ تَصْدِيقِ زَوْجَتِهِ وَإِيمَانِهَا بِمَا جَاءَ بِهِ.

وَآمَنَتْ خَدِيجَةُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مُسْلِمَةٍ دَخَلَتْ فِي ٱلْإِسْلَامِ. وَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَصَدَّقَ بِمَا جَاءَ مِنْهُ. فَخَفَّفَ ٱللَّهُ بِذَلِكَ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ. لَا يَسْمَعُ شَيْئًا مِمَّا يكْرَهُهُ مِنْ رَدٍّ عَلَيْهِ وَتَكْذِيبٍ لَهُ، فَيَحْزِنُهُ ذَلِكَ إِلَّا فَرَّجَ ٱللَّهُ عَنْهُ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا، تُثَبِّتُهُ وَتُخَفِّفُ عَنْهُ، وَتُصَدِّقُهُ وَتُهَوِّنُ عَلَيْهِ أَمْرَ ٱلنَّاسِ.

قَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ: «يَا خَدِيجَةُ، إِنَّ جِبْرِيلَ يَقْرَأُ عَلَيْكِ ٱلسَّلَامَ مِنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ».

فَقَالَتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها: «ٱللَّهُ ٱلسَّلَامُ وَمِنْهُ ٱلسَّلَامُ وَإِلَيْهِ يَعُودُ ٱلسَّلَامُ، وَعَلَى جِبْرِيلَ ٱلسَّلَامُ».

وَأَخَذَتْ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ تَتْرَى وَتَتَتَابَعُ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾
وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾

(ٱلْمُدَّثِّرُ: 1 - 7).

وَمِنْ ذَلِكَ ٱلْحِينِ بَدَأَ ٱلرَّسُولُ ﷺ حَيَاتَهُ ٱلْجَدِيدَةَ ٱلْحَافِلَةَ بِٱلْبَرَكَاتِ وَٱلْمَشَقَّاتِ.

وَوَقَفَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ إِلَى جَوَارِهِ تُسَانِدُهُ وَتُؤَازِرُهُ وَتُعَاوِنُهُ.

خَدِيجَةُ تَشْتَرِكُ فِي ٱلدَّعْوَةِ إِلَى ٱللَّهِ

أَخَذَتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها تَدْعُو إِلَى ٱللَّهِ بِقَوْلِهَا وَعَمَلِهَا.

فَهِيَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْمُؤْمِنَةُ ٱلصَّادِقَةُ، وَهِيَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلسَّخِيَّةُ ٱلْوَفِيَّةُ.

وَهِيَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلشُّجَاعَةُ ٱلْمُهَذَّبَةُ، وَهِيَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْفَصِيحَةُ ٱلْبَلِيغَةُ.

وَكُلُّ هَذِهِ ٱلصِّفَاتِ جَعَلَتْهَا تَدْعُو إِلَى ٱلْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ دَعْوَتُهَا تَلْقَى قَبُولًا حَسَنًا.

وَلَقَدْ وَقَفَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ مَعَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ فِي أَوْقَاتِ ٱلشِّدَّةِ وَٱلْمِحْنَةِ.

وَقَفَتْ مَعْهُ عِنْدَ حِصَارِهِ مَعَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ مَوْقِفًا كُلُّهُ حَنانٌ وَرِفْقٌ، وَعَزْمٌ وَقُوَّةٌ. وَكَانَتْ بِحَقِّ ٱلزَّوْجَةِ ٱلَّتِي تُقَدِّرُ ٱلْأُمُورَ حَقَّ قَدْرِهَا، وَتَبْذُلُ مِنَ ٱلْعَطَاءِ مَا يُنَاسِبُهَا، وَكَانَتْ تُؤَازِرُ ٱلنَّبِيَّ ﷺ بِكُلِّ مَا تَمْلُكُ مِنْ طَاقَاتٍ.

مَوْتُ ٱلْقَاسِمِ وَعَبْدِ ٱللَّهِ «ٱلطَّيِّبُ أَوْ ٱلطَّاهِرُ»

اخْتَارَ ٱللَّهُ إِلَى جِوَارِهِ ٱبْنَيِّ ٱلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمَا ٱلْقَاسِمُ وَعَبْدُ ٱللَّهِ، وَكَانَا فِي وَقْتِ ٱلطُّفُولَةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ فَقْدَهُمَا تَرَكَ عِندَ الأَبِ ٱلنَّبِيِّ، وَعِنْدَ ٱلأُمِّ الْمُجَاهِدَةِ حُزْنًا عَمِيقًا،وَلَكِنَّ ٱلصَّبْرَ وَٱلْاحْتِسَابَ كَانَا شَأْنَهُمَا دَائِمًا فِي كُلِّ شُؤُونِ ٱلْحَيَاةِ.

ٱلسَّنَوَاتُ ٱلْأُولَى لِدَعْوَةِ ٱلْإِسْلَامِ

عَاصَرَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها ٱلْفَتَرَاتِ ٱلْعَصِيبَةِ ٱلَّتِي عَانَاهَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ وَٱلْمُسْلِمُونَ فِي صَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ.

وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْفَتْرَةُ مَمْلُوءَةً بِٱلْأَهْوَالِ وَٱلْكِفَاحِ.

وَتَزْدَادُ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ ثَبَاتًا عَلَى ثَبَاتِهَا، وَتَأْكِيدًا عَلَى تَأْكِيدِهَا، فَتَقِفُ بِجِوَارِ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ فِي ٱلنَّعْمَاءِ وَالْبَأْسَاءِ رَاضِيَةً مُطْمَئِنَّةً، صَابِرَةً مُحْتَسِبَةً.

وَلٰكِنَّ حِصَارَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَمَعَهُمْ ٱلنَّبِيُّ ﷺ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ هَذِهِ ٱلْفَتْرَةَ ٱلْقَاسِيَةَ مِنَ ٱلزَّمَنِ، ضَاعَفَ ٱلآلَامَ فِي نَفْسِ ٱلْمُجَاهِدَةِ ٱلْكَبِيرَةِ، فَزَادَتْ ضَرَاعَتُها إِلى ٱللَّهِ ﷻ أَنْ يُفَرِّجَ ٱلْكَرْبَ عَنِ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَهُم، وَأَنْ يُؤَيِّدَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ، وَيُقَوِّيَهُ عَلَى مُوَاصَلَةِ دَعْوَةِ ٱلْحَقِّ وَمُقَاوَمَةِ ٱلْكُفَّارِ ٱلطُّغَاةِ.

وَكَانَتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها تَجِدُ أَعْظَمَ ٱلسَّلْوَى وَأَرْوَعَ آيَاتِ ٱلتَّثْبِيتِ فِي ٱلْإِيمَانِ ٱلَّذِي تَسْتَمِدُّهُ مِنْ زَوْجِهَا رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ وَفِي آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ ٱلَّتِي كَانَتْ تَتَتَابَعُ فِي ٱلنُّزُولِ فَيَزْدَادُ ٱلْمُؤْمِنونَ إِيمَانًا وَهُدًى وَيَقِينًا.

ٱللَّحَظَاتُ ٱلْأَخِيرَةُ

وَأَحَسَّتْ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها بِمُقَدِّمَاتِ ٱلْمَوْتِ تَتَجَمَّعُ.

مَرِضَتْ وَلَازَمَتِ ٱلْفِرَاشَ، وَاجْتَمَعَ حَوْلَهَا بَنَاتُهَا ٱلثَّلَاثَةُ زَيْنَبُ وَأُمُّ كُلْثُومٍ وَفَاطِمَةُ، أَمَّا ٱبْنَتُهَا ٱلرَّابِعَةُ ٱلسَّيِّدَةُ رُقَيَّةُ فَكَانَتْ فِي ٱلْحَبَشَةِ.

وَنَظَرَتِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ إِلَى زَوْجِهَا رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ النَّظْرَةَ الْأَخِيرَةَ.

وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَانَتْ لَحْظَةً عَمِيقَةَ الْحُزْنِ، شَدِيدَةَ الْأَسَى وَلٰكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَشَّرَهَا بِاللِّقَاءِ مَعَهَا فِي ٱلْجَنَّةِ.

وَهَطَلَتْ دُمُوعُ ٱلرَّحْمَةِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَفَاضَ قَلْبُهُ بِٱلْحُزْنِ ٱلْعَمِيقِ.

وَبَكَتْ زَيْنَبُ وَأُمُّ كُلْثُومٍ وَفَاطِمَةُ مَعَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ٱلصَّابِرَاتِ ٱلْمُحْتَسِبَاتِ.

وَفَقَدَتْ مَكَّةُ سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ زَمَانِهَا: ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ.

وَذَهَبَتِ ٱلنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ إِلَى رَبِّهَا فِي ٱلْوَقْتِ الْمَعْلُومِ وَبَعْدَ ٱنْتِهَاءِ ٱلْأَجَلِ الْمَحْتُومِ.

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ (ٱلْفَجْر: 27 - 30).

وَتُوُفِّيَتْ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سَنَوَاتٍ تَقْرِيبًا.

وَكَانَ مَوْتُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ وَأَبِي طَالِبٍ فِي عَامٍ وَاحِدٍ وَسَمَّاهُ ٱلرَّسُولُ ﷺ عَامَ الْحُزْنِ.

وَكَانَ عُمْرُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رضي الله عنها وَأَرْضَاهَا عِنْدَ الْوَفَاةِ خَمْسَةً وَسِتِّينَ عَامًا. وَدُفِنَتْ بِالْحُجُونِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ ٱلسَّيِّدَةَ خَدِيجَةَ رضي الله عنها فَيَقُول:

«آمَنَتْ بِي حِينَ كَفَرَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي ٱلنَّاسُ، وَوَاسَتْنِي

بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِيَ ٱللَّهُ مِنْهَا ٱلْوَلَدَ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ».

رَحِمَ ٱللَّهُ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ٱلزَّوْجَةَ الْوَفِيَّةَ، وَالْمُؤْمِنَةَ ٱلتَّقِيَّةَ، وَٱلْكَرِيمَةَ ٱلسَّخِيَّةَ ـ آمين.

❊ ❊ ❊

الزهـــراء
«فَاطِمَة البَتُولُ»

إِنَّهَا المَرْأَةُ التي حَفِظَتْ لَنَا نَسْلَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ وَهِي سَيِدَةُ نِسَاءِ العَالَمِينَ وَابْنَةُ سَيِدَةِ نِسَاءِ أَهْلِ زَمَانِهَا، وَهِيَ بِضْعَةٌ مِنَ النَبِيِّ ﷺ وَرَيْحَانَتُهُ.

إِنَهَا السّيِدَةُ الْكَرِيمَةُ الْفَاضِلَةُ فَاطِمَةُ الْزَهْرَاء بِنْتُ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ مُحَمَد بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ عَبْدِ المُطَلِّبِ وأُمُّهَا هِيَ أُمُّ الْمُؤمِنِينَ الْسَيِدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ.

مَوْلِدُهَا

تَلَقَّىٰ ﷺ نَبَأَ مَوْلِدِ ٱبْنَتِهِ ٱلرَّابِعَةِ، فَتَهَلَّلَ لَهُ وَٱبْتَهَجَ بِهِ، ثُمَّ دَخَلَ مُسْرِعًا عَلَى زَوْجَتِهِ ٱلْكَرِيمَةِ بَاشَّ الأَسارِيرِ، طَلْقَ الْمُحَيَّا فَهَنَّأَهَا بِسَلَامَتِهَا، وَفَرِحَ بِمِيلَادِ الطِّفْلَةِ ٱلجَمِيلَةِ. فَقَدْ وُلِدَت فِي يَوْمٍ كَرِيمٍ أُغْمِدَت فِيهِ سُيوفُ الْحَرْبِ بينَ قَبائِلِ مَكَّةَ، وٱنْفَضَّتْ بَيْنَهُم مُشْكِلَةٌ عَظِيمَة (أي مشكلة تجديد بناء الكعبة).

وَسَمَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ فَاطِمَةَ وَلَقَّبَهَا الزَّهْرَاءُ.

وَسَعِدَ ٱلزَّوْجَانِ بِمَوْلِدِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ، وَكَانَتِ الْابْنَةَ الرَّابِعَةَ وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا جَمَالَ ٱلطَّلْعَةِ وَتَوَسَّمَ فِيهَا ٱلْبَرَكَةَ وَالْيُمْنَ وَالسَّعَادَةَ.

وَجَاءَتِ الِابْنَةُ ٱلْكَرِيمَةُ شَدِيدَةَ ٱلشَّبَهِ بِأَبِيهَا، فَجَعَلَهَا ذَلِكَ أَثِيرَةً عِنْدَ ٱلأَبِ وَالأُمِّ.

وَظَلَّتِ الزَّهْرَاءُ مَحْبُوبَةً مِنْ أَبِيهَا وَأُمِّهَا حَتَّى آخِرِ لَحَظَاتِ حَيَاتِهِمَا.

نَشْأَتُهَا

تَمَتَّعَتِ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ بِحُبٍّ عَظِيمٍ مِنْ أَبَوَيْهَا، وَأَخَوَاتِهَا وَبِخَاصَّةٍ أُخْتِهَا زَيْنَبَ رضي الله عنها، فَقَدْ كَانَتْ تُدَلِّلُهَا وَتُلَاطِفُهَا وَتُلَاعِبُهَا.

وَشَبَّتْ فَاطِمَةُ فِي بَيْتٍ نَبَوِيٍّ رَحِيمٍ يَكْلَأُهَا بِعَيْنِ رِعَايَتِهِ وَيَسْهَرُ عَلَى رَاحَتِهَا. فَأَقْبَلَتْ عَلَى حَيَاتِهَا بِبَرَاءَةٍ عَظِيمَةٍ تَأْخُذُ قِسْطًا وَافِرًا مِنَ الْأَدَبِ وَالْحَنَانِ وَالتَّوْجِيهِ الْمُحَمَّدِيِّ السَّدِيدِ.

وَلَقَدْ نَمَتِ ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ رضي الله عنها بَيْنَ حُبِّ أَبِيهَا ٱلْعَظِيمِ وَحَنَانِ أُمِّهَا ٱلْفَيَّاضِ وَرَأَتْ مَدَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ أَبُوهَا مِنَ ٱلْخُلُقِ ٱلنَّبَوِيِّ ٱلْعَظِيمِ إِذْ أَدَّبَهُ رَبُّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ، وَهَذَّبَهُ مَوْلَاهُ فَأَحْسَنَ تَهْذِيبَهُ:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

(ٱلضُّحَىٰ: 6 - 8).

كَمَا تَأَثَّرَتِ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ بِمَا كَانَت تَتَمَتَّعُ بِهِ أُمُّهَا السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ صِفَاتٍ زَكِيَّةٍ، وَسَجَايَا حَمِيدَةٍ.

فَحَاوَلَتْ أَنْ تَنْشَأَ عَلَى ٱلْخُلُقِ الْكَرِيمِ مُتَّخِذَةً أَبَاهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمَثَلَ ٱلْأَعْلَى لَهَا وَالْقُدْوَةَ ٱلْحَسَنَةَ فِي جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِهَا.

وَبِذَلِكَ نَشَأَتِ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ عَلَى الْعِفَّةِ الْكَامِلَةِ، وَعِزَّةِ النَّفْسِ، وَحُبِّ الْخَيْرِ، وَعَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ، فَهِيَ تَسْتَقِي مِنْ تَعَالِيمِ أَبِيهَا نَبِيِّ ٱلْأُمَّةِ، وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ، خَيْرِ مُرْشِدٍ وَأَعْظَمِ مُرَبٍّ وَهَادٍ إِلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُسْتَقِيمِ.

أَعْلَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا.

وَإِذَنْ فَلا بُدَّ أَنْ تُحِسَّ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ بِهَذَا ٱلْجَوِّ ٱلْجَدِيدِ فِي بَيْتِ أَبِيهَا، جَوِّ ٱلْوَحْيِ ٱلْعَبِقِ، وَأَعْبَاءِ ٱلدَّعْوَةِ ٱلثِّقَالِ، وَمُنَاهَضَةِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا.

وَكَمْ عَانَتْ ٱلزَّهْرَاءُ مِنْ مَكَائِدِ ٱلْكُفَّارِ لِأَبِيهَا ٱلْعَظِيمِ، وَكَمْ تَمَنَّتْ لَوْ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَفْدِيَ أَبَاهَا بِحَيَاتِهَا وَأَنْ تَمْنَعَ عَنْهُ أَذَى قُرَيْشٍ وَلَكِنْ أَنَّى لَهَا ذَلِكَ وَهِيَ فِي عُمْرِهَا ٱلصَّغِيرِ وَإِهَابِهَا ٱلْغَضِّ.

إِنَّهَا الْمَسْؤُولِيَّةُ الْمُبْكِرَةُ ٱلَّتِي يُلْقِيهَا ٱلْقَدَرُ عَلَى ٱلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ ٱلزَّهْرَاءِ الْمُسْلِمَةِ الْخَالِدَةِ الَّتِي شَاءَ ٱللَّهُ لَهَا ـ وَنِعْمَ مَا شَاء ـ أَنْ تَنْطِقَ بِكَلِمَةِ

التَّوْحِيدِ وَهِيَ فِي سَنَوَاتِهَا الأُولَى، وَأَنْ تَنْشَأَ طَاهِرَةً مُطَهَّرَةً، بَعِيدَةً عَنْ رِجْسِ الأَوْثَانِ، مُتَعَبِّدَةً بِدِينِ ٱلإِسْلَامِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْحَنِيفُ الَّذِي اخْتَارَهُ ٱللَّهُ لِعِبَادِهِ.

وَلَاقَتِ ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ آلَامَ تَكْذِيبِ ٱلْكُفَّارِ لِأَبِيهَا ٱلَّذِي أَحَبَّتْهُ بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي كِيانِهَا.

وَكَانَ ذَرْوَةَ مَا قَاسَتْهُ مِنْ آلَامٍ مُنْذُ بِدَايَةِ ٱلدَّعْوَةِ ذَلِكَ ٱلْحِصَارُ ٱلشَّدِيدُ ٱلَّذِي حُوْصِرَ فِيهِ ٱلْمُسْلِمُونَ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ. فَقَدْ أَثَّرَ ٱلْحِصَارُ وَٱلْجُوعُ وَٱلأَلَمُ فِي صِحَّتِهَا فَبَقِيَتْ طِوَالَ حَيَاتِهَا تُعَانِي مِنْ ضَعْفِ ٱلْبِنْيَةِ وَجَهْدِ ٱلْبَلَاءِ.

حُـزْنٌ أَلِيـمٌ

وَشَهِدَتِ ٱلزَّهْرَاءُ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهَا فَجِيعَةً كُبْرى مَلَأَتْ نَفْسَهَا حُزْنًا وَأَلَمًا وَأَسًى.

وَذَلِكَ أَنَّهَا مَا كَادَتْ تَخْرُجُ مِنْ مِحْنَةِ ٱلْحِصَارِ ٱلْمُهْلِكِ حَتَّى فُوجِئَتْ بِمَرَضِ أُمِّهَا وَلُزُومِهَا ٱلْفِرَاشَ فَانْخَلَعَ قَلْبُهَا لِتِلْكَ ٱلْمُصِيبَةِ ٱلَّتِي تَزْحَفُ نَحْوَ أَطْهَرِ ٱلأُمَّهَاتِ وَأَكْرَمِهِنَّ.

وَلَمْ تَلْبَثِ ٱلسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها أَنْ فَارَقَتِ ٱلْحَيَاةَ فَاشْتَدَّ ٱلْحُزْنُ عَلَى

ٱلزَّهْرَاءِ وَأَخَوَاتِهَا. كَمَا أَحَسَّ رَسُولُ ﷺ بِٱلْحُزْنِ لِفَقْدِ زَوْجَتِهِ ٱلْغَالِيَةِ ٱلْوَفِيَّةِ.

ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّهَا

وَجَدَتِ ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ نَفْسَهَا بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّهَا أَمَامَ مَسْؤُولِيَّاتٍ كَبِيرَةٍ وَضَخْمَةٍ نَحْوَ أَبِيهَا ٱلرَّسُولِ ٱلْعَظِيمِ وَهُوَ يَمُرُّ بِظُرُوفٍ قَاسِيَةٍ فِي سَبِيلِ ٱلدَّعْوَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ.

فَضَاعَفَتِ ٱلْجُهْدَ، وَتَحَمَّلَتِ ٱلأَحْدَاثَ فِي صَبْرٍ، وَصَابَرَتْ وَرَابَطَتْ وَٱحْتَسَبَتْ أَجْرَهَا عِنْدَ ٱللَّهِ ﷻ، وَوَقَفَتْ بِجِوَارِ أَبِيهَا، لِتُقَدِّمَ لَهُ بَعْضَ ٱلْعِوَضِ عَنْ أُمِّهَا، أَغْلَى ٱلأُمَّهَاتِ وَأَكْرَمِ ٱلزَّوْجَاتِ.

وَقَدَّمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ لِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ ٱلزَّهْرَاءِ مِنَ ٱلْحُبِّ وَٱلْحَنَانِ، وَٱلرِّعَايَةِ وَالاِشْفَاقِ ٱلزَّادَ ٱلْعَظِيمَ.

إِنَّ فَاطِمَةَ بِحَاجَةٍ إِلَى هَذَا ٱلْحُبِّ، وإِلَى هَذِهِ ٱلرِّعَايَةِ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَكْبَرُ مِنْ قَلْبِ رَسُولِ ﷺ؟ وَأَيُّ حَنَانٍ أَعْظَمُ مِنْ حَنَانِهِ؟

فِي طَرِيقِ ٱلْهِجْرَةِ

تَمَّتْ هِجْرَةُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ مَعَ صَاحِبِهِ ٱلصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه.

ثُمَّ أَرْسَلَ ٱلرَّسُولُ صَلَوَاتُ ٱللَّهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ عَلَيْهِ إِلَى مَكَّةَ صَحَابِيًّا جَلِيلًا وَأَمِينًا لِإِحْضَارِ ٱلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ مَعَ أُخْتِهَا أُمِّ كُلْثُومٍ. وَمَا كَانَ أَعْظَمَ فَرَحَ ٱلزَّهْرَاءِ بِلِقَاءِ وَالِدِهَا رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ وَكَانَ فَرَحُهُ بِهَا كَذَلِكَ عَظِيمًا.

وَبِهَذِهِ ٱلرِّحْلَةِ وَدَّعَتِ ٱلزَّهْرَاءُ مَكَّةَ بَلَدَهَا ٱلْحَبِيبَ ٱلَّذِي شَهِدَتْ فِيهِ طُفُولَتَهَا ٱلْبَاكِرَةَ وَشَبَابَهَا ٱلْغَضَّ، فَقَدْ هَاجَرَتْ فِي ٱلسَّنَةِ ٱلثَّالِثَةَ عَشْرَةَ لِلْبَعْثَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ وَهِيَ فِي عَامِهَا ٱلثَّامِنَ عَشَرَ. وَلَمْ تَرَ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا فِي ٱلْعَامِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ، أَيْ عِنْدَمَا فُتِحَتْ مَكَّةُ.

زَوَاجٌ كَرِيمٌ

ذَهَبَ ٱلإِمَامُ عَلِيٌّ عليه السلام وَجَلَسَ بِقُرْبِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ لَا يَذْكُرُ سَبَبَ مَجِيئِهِ. فَسَأَلَهُ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ:

– «مَا حَاجَةُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ؟».

وَفِي صَوْتٍ خَافِتٍ وَحَيَاءٍ أَجَابَ عليه السلام:

– «ذَكَرْتُ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ».

فَأَجَابَ ﷺ وَهُوَ مُتَهَلِّلُ ٱلْوَجْهِ:

– «مَرْحَبًا وَأَهْلًا».

فَٱنْصَرَفَ ٱلإِمَامُ عَلِيٌّ عليه السلام. وَمَا إِنْ سَأَلَهُ بَعْضُ مَنْ يَعْلَمُ ٱلأَمْرَ عَنْ نَتِيجَةِ

طَلَبِهِ حَتَّى أَجَابَهُمْ:

تَحَدَّثْتُ إِلَى رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ فِي ٱلأَمْرِ . فَقَالَ لِي: «مَرْحَبًا وَأَهْلا».

فَقَالُوا لَهُ: «يَكْفِيكَ مِنْ رَسُولِ ٱللَّهِ إِحْدَاهُمَا».

وَفِي ٱلْغَدِ عَاوَدَ ٱلإِمَامُ عَلِيٌّ ﷺ فَسَأَلَهُ ٱلنَّبِيُّ ﷺ:

– «وَهَلْ عِنْدَكَ شَيءٌ؟».

أَجَابَ ٱلإِمَامُ عَلِيٌّ ﷺ: «لَا يَا رَسُولَ ٱللَّهِ».

وَسَأَلَهُ ٱلنَّبِيُّ: «فَأَيْنَ دِرْعُكَ ٱلَّتِي أَعْطَيْتُكَ يَوْمَ كَذَا؟».

فَأَجَابَ فَرِحًا: «هِيَ عِنْدِي يَا رَسُولَ ٱللَّهِ».

فَجَاءهُ بِهَا فَأَمَرهُ ﷺ بِبَيْعِهَا لِيُجَهِّزَ ٱلْعَرُوسَ بِثَمَنِهَا.

وَٱشْتَرَاهَا مِنْهُ ٱلصَّحَابِيُّ ٱلْعَظِيمُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ ﷺ بِأَرْبَعْمَائَةٍ وَسَبْعِينَ دِرْهَمًا. فَسَلَّمَ ٱلإِمَامُ عَلِيٌّ ﷺ ٱلثَّمَنَ لِرَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ فَدَفَعَ جُزْءًا مِنْهُ إِلَى بِلَالِ بْنِ رَبَاحٍ لِيَشْتَرِيَ طِيبًا وَعِطْرًا وَدَفَعَ ٱلْبَاقِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ لِتَشْتَرِيَ جِهَازَ ٱلْعَرُوسِ.

ثُمَّ نَظَرَ ٱلرَّسُولُ ﷺ إِلَى أَنَسٍ وَقَالَ لَهُ:

– «انْطَلِقْ وَادْعُ لِي أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَطَلْحَةَ وَٱلزُّبَيْرَ وَبِعِدَّتِهِمْ مِنَ ٱلأَنْصَارِ».

وَقَامَ ٱلرَّسُولُ لِيُخْبِرَ ابْنَتَهُ ٱلْكَرِيمَةَ بِخَبَرِ خِطْبَةِ ٱلإِمَامِ عَلِيٍّ ﷺ لَهَا. فَقَالَ لَهَا:

- «يَا فَاطِمَةُ إِنَّ عَلِيًّا يَذْكُرُكِ».

فَصَمَتَتْ رضي الله عنها حَيَاءً. وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةَ ٱلْقَبُولِ عِنْدَ ٱلزَّهْرَاءِ.

وَقَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ لِعَلِيّ ﷺ:

- «يَا عَلِيّ! إِنَّ ٱللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَكَ فَاطِمَةَ، وَإِنِّي زَوَّجْتُكَهَا عَلَى أَرْبَعْمِائَةِ مِثْقَالِ فِضَّةٍ».

فَقَالَ ﷺ: «رَضِيتُ يَا رَسُولَ ٱللَّهِ!».

ثُمَّ إِنَّ عَلِيًّا خَرَّ سَاجِدًا، شُكْرًا لِلَّهِ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ قَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ: «بَارَكَ ٱللَّهُ لَكُمَا وَعَلَيْكُمَا وَأَسْعَدَ جَدَّكُمَا. وَأَخْرَجَ مِنْكُمَا ٱلْكَثِيرَ ٱلطَّيِّبَ».

لَقَدْ كَانَتْ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً، فَإِنَّهَا دَعْوَةُ نَبِيٍّ، بَلْ دَعْوَةُ سَيِّدِ ٱلأَنْبِيَاءِ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَخْرَجَ مِنْهُمَا ٱلْكَثِيرَ ٱلطَّيِّب.

وَبِهَذَا عُقِدَ قِرَانُ ٱلإِمَامُ عَلِيٍّ عَلَى ٱلزَّهْرَاءِ رضي الله عنها أَمَامَ جَمْعٍ مِنْ كِرَامِ ٱلصَّحَابَةِ.

وَبَاتَ ٱلإِمَامُ عَلِيّ قَرِيرَ ٱلْعَيْنِ بِزَوَاجِهِ عَلَى ابْنَةِ أَعْظَمِ ٱلْخَلْقِ أَجْمَعِين سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ.

وَفِي لَيْلَةِ زَفَافِ ٱلزَّهْرَاءِ إِلَى عَلِيٍّ أَمَرَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ ٱلسَّيِّدَةَ أُمَّ سَلَمَةَ أَنْ تَمْضِيَ بِالْعَرُوسِ إِلَى دَارِ ٱلإِمَامِ عَلِيٍّ ﷺ ٱلَّتِي جَهَّزَهَا لِسُكْنَاهُمَا وَأَنْ يَنْتَظِرَاهُ هُنَاك.

وَصَلَّىٰ ٱلرَّسُولُ صَلَاةَ ٱلْعِشَاءِ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى عَلِيٍّ ﷺ. وَهُنَاكَ دَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ ثُمَّ دَعَا بِهَذَا ٱلدُّعَاءِ: «ٱللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِمَا، وَبَارِكْ عَلَيْهِمَا، وَبَارِكْ لَهُمَا فِي نَسْلِهِمَا».ثُمَّ أَوْصَى ٱبْنَتَهُ بِأَنْ تُكْرِمَ زَوْجَهَا وَأَوْصَىٰ ٱلإِمَامَ عَلِيًّا ﷺ بِهَذِهِ ٱلْوَصِيَّةِ: «يَا عَلِيّ لَا تَغْضَبْ! وَإِذَا غَضِبْتَ فَٱقْعُدْ وَٱذْكُرْ قُدْرَةَ ٱللَّهِ تَعَالَى عَلَى ٱلْعِبَادِ وَحِلْمَهُ عَنْهُمْ. وَإِذَا قِيلَ لَكَ: ٱتَّقِ ٱللَّهَ فَاتْرُكْ غَضَبَكَ عَنْكَ، وَٱرْجِعْ لِحِلْمِكَ».

وَفَرِحَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِزَوَاجِ ٱلزَّهْرَاءِ مِنَ ٱلإِمَامِ عَلِيٍّ ﷺ وَابْتَهَجُوا.

ذُرِّيَّةٌ مُبَارَكَةٌ

مَرَّ عَامٌ سَعِيدٌ عَلَى زَوَاجِ ٱلإِمَامِ عَلِيٍّ ﷺ جَاءَ بَعْدَهُ ٱلْحَفِيدُ ٱلأَوَّلُ لِرَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ فَفَرِحَ بِهِ ٱلنَّبِيُّ ﷺ فَرَحًا كَبِيرًا وَحَنَّكَهُ بِنَفْسِهِ وَسَمَّاهُ ٱلْحَسَنَ.

ثُمَّ وُلِدَ بَعْدَهُ سِبْطُ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ ٱلإِمَامُ ٱلْحُسَيْنُ أَبُو ٱلشُّهَدَاءِ وَبَطَلُ كَرْبَلَاء.

وَمَرَّتِ ٱلأَيَّامُ ثُمَّ وَلَدَتِ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلْكَرِيمَةُ فَاطِمَةُ وَلَدَهَا ٱلثَّالِثَ مُحْسِنًا

وَتُوُفِّيَ وَهُوَ صَغِير.

ثُمَّ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْكَرِيمِ بِزَهْرَةِ بَنِي هَاشِمٍ ٱلسَّيِّدَةِ زَيْنَبَ بِنْتِ ٱلإِمَامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه.

ثُمَّ رُزِقَتِ ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ بِزَهْرَةٍ أُخْرَى وَأَسْمَتْهَا أُمُّ كُلْثُومٍ تَيَمُّنًا بِخَالَةِ ٱلْوَلِيدَةِ.

وَقَدْ تَزَوَّجَتِ ٱلسَّيِّدَةُ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ ٱلإِمَامِ عَلِيٍّ مِنَ ٱلْفَارُوقِ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ رضي الله عنه فَأَنْجَبَتْ مِنْهُ زَيْدًا وَرُقَيَّةَ.

حُبُّ ٱلنَّبِيِّ ﷺ لِٱبْنَتِهِ ٱلزَّهْرَاءِ

تَمَتَّعَتِ ٱلزَّهْرَاءُ بِحُبِّ أَبِيهَا سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ لَهَا، فَقَدْ كَانَ يُحِبُّهَا وَيُغْدِقُ عَلَيْهَا ٱلْحَنَانَ ٱلصَّادِقَ ٱلَّذِي يَمْلَأُ نَفْسَ الابْنَةِ الأَثِيرَةِ وَٱلْجَدِيرَةِ بِٱلْحُبِّ ٱلْكَبِيرِ وَٱلرِّضَى وَٱلْحُبُورِ.

وَكَانَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ يُتَرْجِمُ عَنْ حُبِّهِ لابْنَتِهِ ٱلْكَرِيمَةِ فِي أَشَدِّ ٱلْمَوَاقِفِ وَأَدَقِّ ٱلأُمُورِ.

وَمَعَ هَذَا ٱلْحُبِّ فَقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ ٱللهِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْعَمَلِ وَٱلتَّزَوُّدِ مِنْ ٱلتَّقْوَى.

فَلَقَدْ قَامَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَوْمًا فَنَادَى:

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، ٱشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئًا».

«يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ ٱللهِ شَيْئًا».

«يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ ٱللهِ شَيْئًا».

«يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ ٱللهِ شَيْئًا».

وَلَقَدْ عَبَّرَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ عَنْ حُبِّهِ لِٱبْنَتِهِ ٱلْكَرِيمَةِ ٱلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ حِينَ قَالَ لَهَا مَرَّةً: «يَا فَاطِمَةُ إِنَّ ٱللهَ يَرْضَى لِرِضَاكِ وَيَغْضَبُ لِغَضَبُكِ».

وَقَالَ ﷺ: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا وَيُرِيبُنِي مَا رَابَهَا».

هٰذِهِ هِيَ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلرَّفِيعَةُ ٱلَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا ٱلْمُسْلِمَةُ ٱلْخَالِدَةُ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَعِنْدَ زَوْجِهَا ٱلْإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام بَلْ وَعِنْدَ سَائِرِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ.

رِسَالَةُ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ

ضَرَبَتْ لَنَا ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ ٱلزَّهْرَاءُ مَثَلًا أَعْلَى فِي حَيَاتِهَا ٱلزَّوْجِيَّةِ. وَفِي حُسْنِ عَلَاقَاتِهَا مَعَ جَارَاتِهَا وَقَرِيبَاتِهَا، وَفِي ٱلْقِيَامِ بِرِسَالَةِ ٱلْأُمُومَةِ وَتَقْدِيمِ ٱلتَّوْجِيهَاتِ

ٱلتَّرْبَوِيَّةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ لِأَوْلَادِهَا، وَهٰذَا طَبْعًا مَعَ مُرَاعَاةِ ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلْمَنْزِلِيَّةِ ٱلَّتِي لَا تَكَادُ تَنْتَهِي، وَفِي نَفْسِ ٱلْوَقْتِ تَحْرِصُ عَلَى رِضْوَانِ ٱللهِ وَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَتُصَلِّي ٱلصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا، وَتُقَدِّمُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ جُهْدِهَا وَمَالِهَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ، وَتَصْدُقُ ٱلْحَدِيثَ وَتَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ .

وَبِذَلِكَ كَانَتْ قُدْوَةً صَالِحَةً لِلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ ٱلْفَقِيهَةِ ٱلْمُجَاهِدَةِ ٱلْمُرَبِّيَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

تَقُولُ ٱلسَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رضي الله عنها :

«مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ ٱللهِ أَشْبَهَ حَدِيثًا وَمَشْيًا بِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ مِنْ فَاطِمَةَ».

وَتَقُولُ رضي الله عنها أَيْضًا: «مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْ فَاطِمَةَ».

وَكَانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ ٱللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهَا وَأَجْلَسَهَا بِجِوَارِهِ وَرَحَّبَ بِهَا أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ.

بَعْدَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ

وَحَجَّ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ حَجَّةَ ٱلْوَدَاعِ، وَأَرْسَىٰ قَوَاعِدَ ٱلإِسْلَامِ، وَأَكْمَلَ ٱللهُ ٱلدِّينَ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (ٱلْمَائِدَةُ: 3).

ثُمَّ مَرِضَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ، وَسَمِعَتْ ٱلزَّهْرَاءُ بِمَرَضِ وَالِدِهَا ﷺ فَهَرَعَتْ لِتَوَّهَا لِتَطْمَئِنَّ عَلَيْهِ فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ ٱللهِ ﷺ هَشَّ لَهَا وَبَشَّ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهَا فَأَجْلَسَهَا بِجَانِبِهِ.

ثُمَّ أَسَرَّ ﷺ حَدِيثًا لَهَا فَبَكَتْ ثُمَّ أَسَرَّ لَهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ، فَقَالَتْ ٱلسَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رضي الله عنها : «مَا رَأَيْتُ كَٱلْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ إِلَى ٱلْحُزْنِ».

ثُمَّ سَأَلَتْ: «يَا فَاطِمَةُ أَخْبِرِينِي مَا ٱلَّذِي جَعَلَكِ تَضْحَكِينَ وَتَبْكِينَ؟».

وَأَجَابَتْ ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ رضي الله عنها :

«مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ عَلَى رَسُولِ ٱللهِ سِرَّهُ».

وَلَكِنْ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ طَلَبَتْ مِنْهَا ٱلسَّيِّدَةُ عَائِشَةُ أَنْ تُطْلِعَهَا عَلَى مَا أَسَرَّهُ لَهَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ فَقَالَتْ لَهَا: قَالَ لِي رَسُولُ ٱللهِ ﷺ :

«إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُدَارِسُنِي ٱلْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ دَارَسَنِي هَذَا ٱلْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَمَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي».

قَالَتْ: «فَبَكَيْتُ».

ثُمَّ قَالَ لِي: «وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي وَنِعْمَ ٱلسَّلَفُ أَنَالَكِ»، فَضَحِكْتُ.

وَٱشْتَدَّ ٱلْوَجَعُ عَلَى رَسُولِ ٱللهِ ﷺ فَٱشْتَدَّ حُزْنُ ٱلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ عَلَى أَجَلِّ ٱلآبَاءِ وَأَكْرَمِ ٱلْأَنْبِيَاءِ.

ثُمَّ ٱنْتَقَلَ ٱلرَّسُولُ ﷺ إِلَى ٱلرَّفِيقِ ٱلْأَعْلَى فَمَا كَانَ مِنْ ٱلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ إِلَّا أَنْ رَدَّدَتْ فِي أَسًى وَلَوْعَةٍ:

أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ

أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ

إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ

جَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ

مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ

وَفَاضَ ٱلْحُزْنُ بِٱلزَّهْرَاءِ فَجَعَلَتْ تَبْكِي بُكَاءً مُرًّا. وَحَزِنَ ٱلإِمَامُ عَلِيٌّ حُزْنًا مَرِيرًا، وَهُوَ يَرَى نَبِيَّهُ ٱلْكَرِيمَ وَٱبْنَ عَمِّهِ ٱلحَبِيبَ وَوَالِدَ زَوْجَتِهِ ٱلكَرِيمَةِ يَنْتَقِلُ إِلَى ٱلرَّفِيقِ ٱلْأَعْلَى فَبَكَاهُ بُكَاءً حَارًّا.

وَبَكَتْ ٱلزَّهْرَاءُ، بَلْ وَبَكَىٰ ٱلْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا نَبِيَّهُم وَرَسُولَهُم مُحَمَّدًا ﷺ وَذَكَرُوا قَوْلَ ٱللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾

(آلِ عِمْرَان: 144).

وَفَاةُ ٱلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ

بَشَّرَ ٱلرَّسُولُ ﷺ ٱبْنَتَهُ ٱلزَّهْرَاءَ بِأَنَّهَا أَوَّلُ أَهْلِهِ لُحُوقًا بِهِ. وَقَدْ وَجَدَتْ فِي هٰذِهِ ٱلْبُشْرَى بَعْضَ ٱلسَّلْوَى.

وَمَضَتِ ٱلْأَيَّامُ بِٱلزَّهْرَاءِ وَهِيَ تُشْرِفُ عَلَى بَيْتِهَا وَتَرْعَى شُؤُونَ زَوْجِهَا وَتُكْمِلُ رِسَالَتَهَا نَحْوَ أَوْلَادِهَا.

وَمَضَىٰ عَلَى وَفَاةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ حَوَالَيْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ثُمَّ مَرِضَتِ ٱلزَّهْرَاءُ. وَٱنْتَقَلَتِ ٱلسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ إِلَى جِوَارِ رَبِّهَا.

وَصَعِدَتْ رُوحُهَا ٱلطَّاهِرَةُ إِلَى بَارِئِهَا حَيْثُ ٱلْتَقَتْ بِرُوحِ أَبِيهَا وَأُمِّهَا وَأَخَوَاتِهَا فِي عِلِّيِّينَ. وَحَلَّقَتْ مَعَ أَرْوَاحِ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ فِي ٱلْمَلَأِ ٱلْأَعْلَى.

وَصَلَّى عَلَيْهَا ٱلْإِمَامُ عَلِيٌّ هُوَ وَٱلْعَبَّاسُ رضي الله عنهما ثُمَّ دُفِنَتْ فِي ٱلْبَقِيعِ فِي لَيْلَةِ ٱلثُّلَاثَاءِ لِثَلَاثٍ خَلَوْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ وَهِيَ ٱبْنَةُ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

رَحِمَ ٱللهُ ٱلزَّهْرَاءَ، رَيْحَانَةَ سَيِّدِ ٱلْأَنْبِيَاءِ، وَزَوْجَةَ إِمَامِ ٱلْأَتْقِيَاءِ، وَأُمَّ ٱلْحَسَنِ وَ ٱلْحُسَيْنِ أَبِي ٱلشُّهَدَاءِ، وَأُمَّ زَيْنَبَ بَطَلَةِ كَرْبَلَاءِ.

❊ ❊ ❊

ماريـة القبطيّـة

قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ:

ـ «إِسْتَوْصُوا بِٱلْقِبْطِ خَيْرًا...».

إِنَّ لاسْمِ مَارِيَةَ ٱلْقِبْطِيَّةِ هِزَّةٌ فِي نُفُوسِ ٱلْمُؤْمِنِين، وَرَعْشَةٌ فِي أَرْوَاحِ ٱلْمُسْلِمِين، وَسَبْحَةٌ فِي أَجْوَاءِ ٱلتَّارِيخ، إِذِ ٱجْتَمَعَتْ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْعَوَامِلِ وَٱلْمُؤَثِّرَاتِ عَلَى تَخْلِيدِ ٱسْمِهَا رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهَا.

وَرُغْمَ ٱشْتِهَارِ ٱلاسْمِ، وَمَا يَتْرُكُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلْمُؤْمِنَةِ مِنْ أَثَرٍ عَمِيقٍ، فَإِنَّ ٱلْكِتَابَةَ عَنْهَا فِي ٱلتَّارِيخِ قَلِيلَةٌ، وٱسْتِجْلَاءُ جَوَانِبِ شَخْصِيَّتِهَا ٱلْعَظِيمَةِ نَادِرَةٌ.

وَنَحْنُ حِينَ نُنْصِفُهَا رضي الله عنها بِٱلْحَدِيثِ وَٱلْكِتَابَةِ، إِنَّمَا نُوَفِّيهَا جُزْءًا ضَئِيلًا مِنْ حَقِّهَا عَلَيْنَا وَعَلَى أُمَّتِنَا.

نَسْأَلُ ٱللهُ تَعَالَى أَنْ يُسَدِّدَ خُطَانَا إِلَى مَا فِيهِ ٱلْخَيْرُ.

وَٱلْحَمْدُ للهِ أَوَّلًا وآخِرًا.

ٱلرُّسُلُ إِلَى ٱلْمُلُوكِ

فِي ٱلْعَامِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هِجْرَةِ ٱلْمُصْطَفَى ﷺ أَرْسَلَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ رُسُلَهُ إِلَى ٱلْمُلُوكِ يَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ، إِلَى كِسْرَى مَلِكِ ٱلْفُرْسِ، وَإِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ ٱلرُّومِ، وَإِلَى ٱلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ ٱلْحَبَشَةِ وَإِلَى ٱلْمقَوْقِسِ عَظِيمِ ٱلْقِبْطِ فِي مِصْرَ، وَغَيْرِهِم.

وَكَانَ رَسُولَهُ عليه السلام إِلَى ٱلْمُقَوْقِسِ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ رضي الله عنه .

فَٱسْتَقْبَلَهُ ٱلْمُقَوْقِسُ وَقَرَأَ كِتَابَهُ، ثُمَّ أَكْرَمَ وِفَادَتِهِ، وَأَنْزَلَهُ مَنْزِلًا كَرِيمًا، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ ٱلْإِسْلَامِ، ثُمَّ زَوَّدَهُ بِهَدَايَا ثَمِينَةٍ حَمَلَهَا حَاطِبٌ إِلَى رَسُولِ ٱللهِ ﷺ.

نَسَبُ مَارِيَّةَ

كَانَتْ ٱلْهَدَايَا جَارِيَتَيْنِ مِنْ جَوَارِي ٱلْمُقَوْقِسِ هُمَا: مَارِيَّةُ وَأُخْتُهَا سِيرِين وَمَعْهُمَا غَيْرُ ذَلِك.

كَانَ وَالِدُ مَارِيَّةَ يُدْعَى شَمْعُون مِنْ أَقْبَاطِ مِصْر، وَأُمُّهَا رُومِيَّةُ ٱلْأَصْلِ، فَكَانَتْ مَارِيَّةُ بَيْضَاءَ جَعْدَةً، تَحْمِلُ مِنْ سِحْنَةِ أُمِّهَا ٱلرُّومِيَّةِ بَيَاضَ ٱلْبَشَرَةِ،

وَمِنْ سِحْنَةِ أَبِيها تَجَعُّدَ ٱلشَّعْرِ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً حَسَنَةَ ٱلْوَجْهِ وَٱلْقَدِّ.

فِي ٱلطَّرِيقِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ

خَرَجَتْ مَارِيَّةُ مِنْ ٱلإِسْكَنْدَرِيَّةِ مَعَ أُخْتِهَا سِيرِين وٱلْخصيُّ مَابُورُ فِي حِرَاسَةِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَهِيَ لَا تَدْرِي مِنْ أَمْرِ مُسْتَقْبَلِهَا شَيْئًا، أَوْ مِمَّا تَدَّخِرُهُ لَهَا ٱلْأَيَّامُ مِنْ خَيْرٍ...

سَارَتْ وَكَأَنَّهَا تَسِيرُ إِلَى ٱلْمَجْهُولِ لَا تَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ سَتَنْتَهِي، تَظْهَرُ عَلَى مُحَيَّاهَا سيمَاءُ ٱلْحُزْنِ وَٱلتَّفَكُّرِ ٱلْعَمِيقِ، وَٱلسُّهومِ وَٱلْوُجُومِ.

وَأَدْرَكَ حَاطِبٌ مَا يَعْتَمِلُ فِي نَفْسِهَا، وَمَا يَجِيشُ فِي خَاطِرِهَا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا مُوَاسِيًا وَمُحَدِّثًا، وَمَا زَالَ بِهَا حَتَّى سَرّى عَنْهَا مَا بِهَا مِنْ أَلَمٍ وَحُزْنٍ.

كما ٱسْتَطَاعَ بِحَذَاقَتِهِ وَلَبَاقَتِهِ أَنْ يُقْنِعَهَا بِٱلْإِسْلَامِ فَآمَنَتْ بِٱللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا.

وَكَانَتْ أُخْتُهَا سِيرِين لَا تُفَارِقُهَا، فَتَسْتَمِعُ لِمَا يَقُولُهُ حَاطِبٌ عَنِ ٱلْإِسْلَامِ، وَمَا يُحدّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ ٱللهِ.

فَشَهِدَتْ هِيَ ٱلْأُخْرَى أَيْضًا للهِ بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ، وَلِمُحَمَّدٍ بِٱلرِّسَالَةِ.

وَهَكَذَا...

مَا دَخَلَتْ مَارِيَةُ ٱلْمَدِينَةَ هِيَ وَأُخْتُهَا سِيرِين إِلَّا مُسْلِمَتَيْنِ مُؤْمِنَتَيْنِ، وَهَـٰذِهِ وَاقِعَةٌ تَارِيخِيَّةٌ فِي حَيَاتِهَا رضي الله عنها تَسْتَلْفِتُ ٱلنَّظَرَ، وَتَسْتَوْقِفُ ٱلْبَاحِثَ.

فَقَدْ آمَنَتْ بِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَلَمْ تَرَهُ، وَصَدَّقَتْ بِرِسَالَتِهِ وَلَمْ تَسْمَعْهُ، وَأُعْجِبَتْ بِهِ وَلَم تُعَاشِرْهُ، رُغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ عَلِمَتْ مَقَامَهُ وَمَرْكَزَهُ، وَمَنْ هُنَّ أَزْوَاجُهُ...

فِي ٱلْمَدِينَةِ

وَصَلَ ٱلرَّكْبُ ٱلْمُؤْمِنُ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ، وَسَلَّمَ حَاطِبٌ رِسَالَةَ ٱلْمُقَوْقِسِ وَهَدَايَاهُ إِلَى ٱلنَّبِيِّ ﷺ.

فَٱسْتَقْبَلَهُم وَرَحَّبَ بِهِم، وَأَكْرَمَ قُدُومَهُم، وَبَالَغَ فِي ذَلِكَ حِينَ وَاسَى مَارِيَةَ بِٱتِّخَاذِهَا سُرِّيَّةً لَهُ. وَأَنْزَلَهَا فِي مَكَانٍ يُدْعَى (ٱلْعَالِيَةَ) مِنَ ضَوَاحِي ٱلْمَدِينَةِ، وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا وَيَطَأُهَا بِمِلْكِ ٱلْيَمِينِ، وَيَرْعَاهَا وَيَعْطِفُ عَلَيْهَا.

وَلَقِيَتْ مَارِيَةُ مِنَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ كُلَّ عِنَايَةٍ وَمَحَبَّةٍ، وَلَمْ تَكُنْ لِتُبْدِي ٱنْزِعَاجًا أَو غَيْرَةً مِنْ زَوْجَاتِهِ ﷺ.

مَارِيَةُ أُمُّ إِبْرَاهِيم

وَفِي أَوَائِلِ ٱلْعَامِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ أَخَذَتْ مَارِيَةُ تُحِسُّ بِآلَامِ ٱلْحَمْلِ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ عَوَارِضُهُ، فَازْدَادَ إِقْبَالُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهَا.

وَمَعَ نِهَايَةِ ٱلْعَامِ وَضَعَتْ وَلَدَهَا إِبْرَاهِيمَ فَفَرِحَ بِهِ ٱلنَّبِيُّ ﷺ فَرَحًا شَدِيدًا.

وَوَهَبَ لِمَنْ بَشَّرَهُ بِمَوْلِدِ إِبْرَاهِيمَ مَمْلُوكًا، وَدَفَعَ بِإِبْرَاهِيمَ إِلَى أُمِّ بُرْدَةَ بِنْتُ ٱلْمُنْذِرِ بْنِ زَيْدِ بْنِ ٱلنَّجَّارِ لِتُرْضِعَهُ.

وَبَلَغَتْ غِبْطَةُ ٱلنَّبِيِّ بِوَلَدِهِ مَبْلَغَهَا، فَإِذَا هُوَ شَدِيدُ ٱللُّصُوقِ بِهِ، كَثِيرُ ٱلتَّطَلُّعِ فِي وَجْهِهِ ٱلصَّغِيرِ، دَائِمُ ٱلْحَمْلِ لَهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَذْهَبُ إِلَيْهِ، حَتَّى بُيُوتِ نِسَائِهِ ٱلأُخْرَيَاتِ، فَيُقَرِّبُهُ مِنْهُنَّ وَيَقُولُ فِي عَطْفٍ وَإِعْجَابٍ:

ـ «ٱنْظُرْنَ... أَلَا تَرَيْنَهُ صُورَةً مِنِّي؟؟».

وَكَانَ مِنْ شَأْنِ مِيلَادِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَحَرَّرَتْ أُمُّهُ مَارِيَةُ إِذْ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ:

ـ «أَعْتَقَهَا وَلَدُهَا».

مَارِيَةُ ٱلصَّابِرَةُ

لَقَدْ أَثَارَ ٱلْوَضْعُ ٱلْجَدِيدُ حَسَدَ أُمَّهَاتِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وغَيْرَتَهُنَّ، إِذْ أَصْبَحَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ لُصُوقًا بِهَا دُونَهُنَّ، كَمَا أَنَّهَا أَنْجَبَتِ ٱلْوَلَدَ دُونَهُنَّ جَمِيعًا.

وَهُنَا تَبْرُزُ ٱلْجَوَانِبُ ٱلْعَظِيمَةُ وَٱلْخِلَالُ ٱلْحَمِيدَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهَا مَارِيَةُ رضي الله عنها ، فَعَلَى ٱلرُّغْمِ مِنْ كُلِّ حَسَدٍ ٱعْتَمِلَ فِي نُفُوسِ زَوْجَاتِ ٱلنَّبِيِّ، وَكُلِّ غَيْرَةٍ أَظْهَرْنَهَا، ظَلَّتْ هِيَ عَلَى رَزَانَتِهَا، وَحَيَائِهَا، وَخَفَرِهَا...حَتَّى عِنْدَمَا ٱئْتَمَرَتْ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ عَلَيْهَا، فَٱضْطُرَّ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَى أَنْ يَقُولَ:

ـ «لَقَدْ حَرَّمْتُ مَارِيَّةَ عَلَى نَفْسِي...».

لَمْ يَزِدْهَا إِلَّا تَبَسُّمًا وَرِضًى وَصَبْرًا...

ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ (ٱلتَّحْرِيم: 1).

حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ

كَانَ مَوْلِدُ إِبْرَاهِيمَ عَزَاءً وَسَلْوَى، وَرَجَاءً وَأَمَلًا، وَٱسْتَمَرَّتِ ٱلْفَرْحَةُ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا تُزَغْرِدُ فِي بَيْتِ مَارِيَّةَ.

وَلٰكِنَّ هٰذِهِ ٱلْآمَالُ لَمْ تَدُمْ طَوِيلًا، إِذْ مَرِضَ ٱلطِّفْلُ مَرَضًا شَدِيدًا، فَقَامَتْ مَارِيَةُ وَأُخْتُهَا سِيرِين عَلَى تَمْرِيضِهِ، وَلَمْ يُمْهِلْهُ ٱلْمَرَضُ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَائِمُ ٱلاحْتِضَارِ، فَبَلَغَ ذٰلِكَ ٱلنَّبِيَّ ﷺ فَحَزِنَ حُزْنًا شَدِيدًا، وَتَأَلَّمَ أَلَمًا بَالِغًا، وَأَحَسَّ بِضِيقٍ لَمْ يُحِسَّهُ مِنْ قَبْلُ.

فَجَاءَ إِلَى دَارِ مَارِيَةَ مُعْتَمِدًا عَلَى أَحَدِ أَصْحَابِهِ لِشِدَّةِ مَا أَحَسَّ بِهِ مِنْ أَلَمٍ وَمَا أَصَابَهُ مِنْ إِعْيَاءٍ.

فَوَجَدَ إِبْرَاهِيمَ فِي حِجْرِ أُمِّهِ مَارِيَةَ ٱلْبَاكِيَةِ يَجُودُ بِآخِرِ أَنْفَاسِهِ فَأَخَذَهُ مِنْهَا بِرِفْقٍ وَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ، وَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ لِيُهَدِّئَ ٱلْقَلْبَ ٱلْمُضْطَرِبَ وَٱلصَّدْرَ ٱللَّاهِثَ... ثُمَّ غَمَرَهُ حُزْنٌ شَدِيدٌ وَأَلَمٌ دامٍ وَقَالَ:

ـ «إِنَّا يَا إِبْرَاهِيمُ لَا نُغْنِي عَنْكَ مِنَ ٱللهِ شَيْئًا».

وَتَسَاقَطَتْ عَبَرَاتُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَجْهَشَتْ مَارِيَةُ ٱلْمَفْجُوعَةُ بِٱلْبُكَاءِ، وَصَرَخَتْ مُتَأَلِّمَةً، وَصَاحَتْ أُخْتُهَا بَاكِيَةً، وَلَمْ يَنْهَهُمَا ٱلرَّسُولُ عَنْ ذٰلِكَ...

وَأَخَذَ يَنْظُرُ إِلَى جُثْمَانِ فِلْذَةِ كَبِدِهِ ٱلْمُسَجَّى فِي حِجْرِهِ وَلَا حَرَاكَ بِهِ، وَلَا حَيَاةَ يَنْبِضُ بِهَا قَلْبُهُ.

وَتَبَدَّدَتِ ٱلآمَالُ ٱلَّتِي أَشْرَقَتْ يَوْمَ مَوْلِدِهِ، وَذَهَبَتْ شُعَاعًا مَعْ رُوحِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَرَدَّهَا بَارِئُهَا.

فَقَالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

ـ «يَا إِبْرَاهِيمُ لَولَا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ، وَوَعْدٌ صِدْقٌ، وَأَنَّ آخِرَنَا سَيَلْحَقُ بِأَوَّلِنَا، لَحَزِنَّا عَلَيْكَ أَشَدَّ مِنْ هٰذَا».

وَكَأَنَّهُ عليه السلام يُوَاسِي بِهَذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ مَارِيَةَ ٱلأُمَّ ٱلْمِسْكِينَةَ، وَقَدْ أَحَسَّ فِي

أَعْمَاقِ ذَاتِهِ مَدَى مَرَارَتِهَا وَمَبْلَغَ تَأَلُّمِهَا.

وَمَسَحَ ﷺ دُمُوعَهُ وَجَفَّفَ عَبَرَاتِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

ـ «ٱلْعَيْنُ تَدْمَع، وَٱلْقَلْبُ يَحْزَن، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي ٱلرَّبَّ، وَإِنَّا يَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْكَ لَمَحْزُونُون».

ٱلْمَوكِبُ ٱلْحَزِينُ

وَخَرَجَ مَوْكَبُ ٱلْجَنَازَةِ: رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَحْمِلُ جُثْمَانَ وَلَدِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَمُّهُ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَعُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ رضي الله عنهما إِلَى جَانِبِهِ وَطَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ...

وَتَلَاشَتْ مَارِيَّةُ هَمًّا وَغَمًّا، وَغُشِيَ عَلَيْهَا ٱلْحُزْنُ لِفِرَاقِ أَمَلِهَا ٱلْوَئِيدِ.

ثُمَّ وَصَلَ ٱلْمَوْكِبُ إِلَى (ٱلْبَقِيعِ) حَيْثُ دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ، بَعْدَ أَنْ صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ثُمَّ وَقَفَ عَلَى لَحْدِهِ يُلَقِّنُهُ قَائِلًا وَٱلْغُصَّةُ تَمْتَزِجُ بِٱلْكَلِمَاتِ:

ـ «قُلْ: ٱللهُ رَبِّي، وَرَسُولُ ٱللهِ أَبِي، وَٱلْإِسْلَامُ دِينِي...».

وَٱرْتَفَعَ بِٱلْبُكَاءِ فِي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ٱلْخَاشِعَةِ صَوْتٌ مَا عُرِفَ عَنْهُ ٱلْهَلَعُ وَٱلْخَوْفُ إِلَّا فِي جَنْبِ ٱللهِ، إِنَّهُ صَوْتُ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ:

ـ «هٰذَا وَلَدُكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ مَا بَلَغَ ٱلْحُلُم، وَمَا جَرَى عَلَيْهِ ٱلْقَلَم، وَلَا يَحْتَاجُ

إِلَى تَلْقِينٍ، فَمَا بَالُ عُمَرَ وَقَدْ بَلَغَ ٱلْحُلُمَ وَجَرَى عَلَيْهِ ٱلْقَلَمُ، وَلَيْسَ لَهُ مُلَقِّنٌ مِثْلُكَ؟؟ ».

فَبَكَى ٱلنَّبِيُّ ﷺ وَبَكَى ٱلصَّحَابَة.

وَأَقْبَلَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ يُوَاسُونَهُ وَيُعَزُّونَهُ، مُحَاوِلِين تَخْفِيفَ ٱلْمُصَابِ عَنْهُ، وَقَالَ أَحَدُهُم مُذَكِّراً رَسُولَ ٱللهِ ﷺ بِمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ.

فَقَالَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ:

ـ «مَا عَنِ ٱلْحُزْنِ نَهَيْتُ، وَإِنَّمَا نَهَيْتُ عَنِ ٱلْعَوِيلِ، وَإِنَّ مَا تَرَونَ بِي، أَثَرُ مَا بِٱلْقَلْبِ مِنْ مَحَبَّةٍ وَرَحْمَةٍ، وَمَنْ لَمْ يُبْدِ ٱلرَّحْمَةَ لَمْ يُبْدِهَا عَلَيْهِ غَيْرُهُ ».

وَحَدَثَ أَنْ غَامَتِ ٱلشَّمْسُ يَوْمَ وَفَاةِ إِبْرَاهِيم، وَوَجَدَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ فِي ذٰلِكَ مُعْجِزَةً، فَقَالَ قَائِلُهُم:

ـ «إِنَّهَا ٱنْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيم، مُشَارَكَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي مَشَاعِرِهِ وَأَحَاسِيسِهِ... ».

لٰكِنَّ هٰذِهِ ٱلْمَقُولَةَ ٱلَّتِي رَدَّدَهَا بَعْضُ ٱلنَّاسِ نَبَّهَتِ ٱلنَّبِيَّ ﷺ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى رِسَالَتَهُ أَبَدًا حَتَّى فِي أَحْلَكِ ٱلسَّاعَاتِ وَأَشَدِّهَا حَرَجًا، وَأَدَقِّ ٱلْمَوَاقِفِ وَأَصْعَبِهَا...

فَرَدَّ عَلَى ٱلنَّاسِ قَائِلًا:

ـ «إِنَّ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ، لَا تَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُم ذٰلِكَ فَٱفْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ ٱللهِ بِٱلصَّلَاةِ».

فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ جَلَدٍ، وَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ صَبْرٍ، وَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ نَبِيٍّ.

مَارِيَةُ ٱلْمُؤْمِنَةُ ٱلصَّابِرَةُ

عَادَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ إِلَى دَارِ مَارِيَّةَ مُوَاسِيًا وَمُعَزِّيًا، وَلَمْ يَكُنْ ﷺ لِيُغْفِلَهَا أَوْ يَتَجَاهَلَهَا بَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ وَلَدَهَا، إِذْ كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا كَعَادَتِهِ ٱلسَّابِقَةِ.

وَسَلَّمَتْ مَارِيَةُ ٱلْمُؤْمِنَةُ أَمْرَهَا إِلَى ٱللهِ تَعَالَى، فَهُوَ ٱلَّذِي أَعْطَى، وَهُوَ ٱلَّذِي أَخَذَ.

وَلَمْ تَكُن لِتَمْلِكَ أَنْ تَرُدَّ دُموعَهَا ٱلصَّامِتَةَ كُلَّمَا لَاحَتْ ذِكْرَى إِبْرَاهِيمَ فِي نَفْسِهَا.

وَلَمْ تَحْمِلْ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ تَضَعْ، وَكَانَتْ حَيَاتُهَا فِي سَعَادَتِهَا وَشَقَائِهَا بَلَاءً وَٱمْتِحَانًا، أَثْبَتَتْ خِلَالَهُ أَنَّهَا مِنْ ٱلْمُسْلِمَاتِ ٱلْخَالِدَاتِ فِي ٱلتَّارِيخِ، يُقْتَدَى بِهِنَّ، وَيُحْتَذَى بِسُلُوكِهِنَّ، وَيُنسَجُ عَلَى مِنْوَالِهِنَّ.

بَعْدَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ

بَعْدَ أَنْ لَحِقَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ بِٱلرَّفِيقِ ٱلْأَعْلَى، كَانَ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ يَحْفَظُونَ لِمَارِيَةَ مَكَانَتَهَا، وَيَصِلُونَهَا مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ، وَيُنْفِقُونَ عَلَيْهَا، سَوَاءٌ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ أَوْ فِي عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنهما وَيَقُومُونَ بِزِيَارَتِهَا وَسُؤَالِهَا عَنْ أَحْوَالِهَا وَفَاءً مِنْهُم لِنَبِيِّهِم ﷺ.

ٱلْوَفَـاةُ

وَلَمَّا كَانَ ٱلْعَامُ ٱلسَّادِسَ عَشَر مِنْ ٱلْهِجْرَةِ، مَرِضَتْ وَٱشْتَدَّتْ عَلَيْهَا وَطْأَةُ ٱلْحُمّى، وَأَسْلَمَتِ ٱلرُّوح.

فَحَزِنَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهَا حُزْنًا شَدِيدًا، وَشَهِدَ عُمَرُ رضي الله عنه جَنَازَتَهَا وَحَشَدَ ٱلنَّاس إِلَى ذٰلِكَ، وَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ بِٱلْبَقِيعِ.

رَحِمَهَا ٱللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَرَضِيَ عَنْهَا.

❊ ❊ ❊

أُم هَـــانِئ

قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ:

ـ «يَا أُمَّ هَانِئٍ قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجرْتِ، وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ».

مَا ذُكِرَ حَادِثُ (ٱلْإِسْرَاءِ وَٱلْمِعْرَاجِ) إِلَّا وَذُكِرَ مَعَهُ اسْمُ أُمِّ هَانِئٍ، لِأَنَّهَا مِنْ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ حَدَّثُوا بِهِ بَعْدَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، وَلِأَنَّهَا أَيْضًا ـ كَمَا ٱشْتَهَرَ هِيَ ٱلَّتِي ٱسْتَضَافَتْ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ فِي بَيْتِهَا رَسُولَ ٱللهِ ﷺ.

نَسَبُهَا

هِيَ فَاخِتَةُ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، أُخْتُ ٱلْإِمَامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه، وَبِنْتُ عَمِّ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ.

كَانَتْ تَصْغُرُ ٱلنَّبِيَّ ﷺ بِبِضْعِ سَنَوَاتٍ، ذَاتَ جَمَالٍ وَخُلُقٍ وَفَصَاحَةٍ.

الخِطْبَةُ

وَحِينَ بَلَغَتْ مَبْلَغَ ٱلشَّبَابِ، خَطَبَهَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِب، وَخَطَبَهَا مَعَهُ هُبَيْرَةُ بْنُ وَهَبٍ، فَزَوَّجَهَا وَالِدُهَا مِنْ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ ٱلنَّبِيُّ ﷺ مُعَاتِبًا:

ـ «يَا عَمّ، زَوَّجْتَ هُبَيْرَةَ وَتَرَكْتَنِي...».

فَأَجَابَهُ أَبُو طَالِبٍ:

ـ «يَا ٱبْنَ أَخِي، إِنَّا قَدْ صَاهَرْنَا إِلَيْهِم وَٱلْكَرِيم يُكَافِئُ ٱلْكَرِيم».

فَسَكَتَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يُجِبْ عَمَّهُ بِشَيءٍ، وَكَتَمَ فِي نَفْسِهِ رَغْبَتَهُ، وَحَاوَلَ أَنْ يَنْسَى تَعَلُّقَهُ بِهَا، وَمَيْلَهُ إِلَيْهَا...

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ وَتَلَتْهَا أَعْوَامٌ، وَنُبِّىءَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بِٱلرِّسَالَةِ، فَدَعَا قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ وَأَهْلَهُ، فَآمَنَتْ بِهِ طَائِفَةٌ وَكَفَرَتْ بِهِ طَائِفَةٌ.

وَلَقَدْ تَابَعَتْ فَاخِتَةُ زَوْجَهَا هُبَيْرَةَ فِي عَدَمِ ٱلْإِسْلَامِ، مُرَاعَاةً لَهُ.

إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَرِمُ وَتُقَدِّرُ شَخْصِيَّةَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَتَحْفَظُ لِلرَّحِمِ حَقَّهَا، وَلِلْقَرَابَةِ قُدْسِيَّتَهَا.

وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَسْتَضِيفُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ فِي بَيْتِهَا، تُؤَاكِلُهُ وَتُشَارِبُهُ وَتُوَاسِيهِ بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَ عَمُّهُ أَبُو طَالِب وَزَوْجَتُهُ خَدِيجَة.

أُمُّ هَانِئٍ الْمُحَدِّثَةُ

وَحَدَثَ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنِ اسْتَضَافَتْ أُمُّ هَانِئٍ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ عِنْدَهَا، فَكَانَتْ لَيْلَةً لَيْلَاءَ، أَكْرَمَ ٱللهُ فِيهَا نَبِيَّهُ إِكْرَامًا عَظِيمًا وَوَاسَاهُ مُوَاسَاةً طَيِّبَةً.

وَتُحَدِّثُ أُمُّ هَانِئٍ عَنْ تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ فَتَقُول:

ـ مَا أُسْرِيَ بِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ فِي بَيْتِي، نَامَ عِنْدِي تِلْكَ ٱللَّيْلَة، فَصَلَّى ٱلْعِشَاءَ ٱلْآخِرَة، ثُمَّ نَامَ وَنِمْنَا، فَلَمَّا كَانَ قُبَيْلَ ٱلْفَجْرِ أَهَبَّنَا (أَيْقَظَنَا) رَسُولُ ٱللهِ ﷺ وَقَالَ:

ـ «يَا أُمَّ هَانِئٍ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُم ٱلْعِشَاءَ ٱلْآخِرَة كَمَا رَأَيْتِ بِهٰذَا ٱلْوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ».

فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ قَدْ صَلَّيْتُ صَلَاةَ ٱلْغَدَاةِ مَعَكُم ٱلآن كَمَا تَرَيْن.

ثُمَّ قَامَ لِيَخْرُجَ، فَأَخَذَتْ بِطَرَفِ رِدَائِهِ، فَتَكَشَّفَ عَنْ بَطْنِهِ كَأَنَّهُ قُبْطِيَّةٌ (ثِيَابٌ مِنْ كَتَّانٍ كَانَتْ تُنْسَجُ بِمِصْرِ) مَطْوِيَّةٌ، فَقُلْتُ لَهُ:

ـ يَا نَبِيَّ ٱللهِ، لَا تُحَدِّثْ بِهٰذَا ٱلنَّاسَ فَيُكَذِّبُوكَ وَيُؤْذُوكَ... قَالَ:

ـ «وَٱللهِ لَأُحَدِّثَنَّهموهُ».

قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ:

ـ فَقُلْتُ لِجَارِيَةٍ لِي حَبَشِيَّة: وَيْحَكِ اتْبَعِي رَسُولَ ٱللهِ ﷺ حَتَّى تَسْمَعِي مَا يَقُولُ لِلنَّاسِ، وَمَا يَقُولونَ لَهُ.

فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَى ٱلنَّاسِ أَخْبَرَهُم، فَعَجِبُوا، وَقَالُوا:

ـ «مَا آيَةُ (عَلَامَةُ) ذٰلِكَ يَا مُحَمَّد؟؟ فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِمِثْلِ هٰذَا قَطّ».

قَالَ ﷺ:

ـ «آيَةُ ذٰلِكَ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِي فُلَانٍ بِوَادِي كَذَا وَكَذَا، فَأَنْفَرَهُم حِسُّ ٱلدَّابَّةِ، فَنَدَّ لَهُمْ بَعِيرٌ فَدَلَلْتُهُم عَلَيْه، وَأَنا مُوَجَّهٌ إِلَى ٱلشَّام.

ثُمَّ أَقْبَلْتُ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بـ«ضَجْنَان» (جَبَلٌ بِنَاحِيَةِ تُهَامَة، قَرِيبٌ مِنْ مَكَّة) مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِي فُلَانٍ، فَوَجَدْتُ ٱلْقَوْمَ نِيَامًا، وَلَهُم إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ قَدْ غَطَّوْا عَلَيْهِ بِشَيءٍ، فَكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ مِمّا فِيهِ، ثُمَّ غَطَّيْتُ عَلَيْهِ كَمَا كَان.

وَآيَةُ ذٰلِكَ، أَنَّ عِيرَهُم ٱلآنَ يَصوبُ (يَنْزِلُ) مِنْ ٱلْبَيْضَاءِ (عَقَبَةٌ قُرْبَ مَكَّة) ثَنِيَّة «ٱلتَّنْعِيم»، يَقْدُمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقُ (يَمِيلُ لَوْنُهُ إِلَى ٱلسَّوَادِ) عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا سَوْداء، وَٱلْأُخْرى بَرْقَاء (مُخْتَلِفَةُ ٱلْأَلْوَان)».

قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ:

ـ فَٱبْتَدَرَ (أَسْرَعُوا) ٱلْقَوْمُ ٱلثَّنِيَّةَ فَلَمْ يَلْقَهُم أَوَّل مِنَ ٱلْجَمَلِ، كَمَا وَصَفَ لَهُم (تَعْني وَجَدُوا ٱلْجَمَل، كَمَا وُصِفَ لَهُم)، وَسَأَلُوهُمْ عَنِ ٱلْإِنَاءِ، فَأَخْبَرُوهُم أَنَّهُم وَضَعُوهُ مَمْلُوءًا مَاءً ثُمَّ غَطُّوهُ، وَأَنَّهُم هَبُّوا فَوَجَدُوهُ مُغَطًّى كَمَا غَطُّوهُ وَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ مَاءً.

وَسَأَلُوا ٱلْآخَرِين وَهُمْ بِمَكَّة، فَقَالُوا: صَدَقَ وَٱللهِ لَقَدْ أَنْفِرْنَا فِي ٱلْوَادِي ٱلَّذِي ذَكَرَ، وَنَدَّ لَنَا بعيرٌ، فَسَمِعْنَا صَوْتَ رَجُلٍ يَدْعُونَا إِلَيْهِ حَتَّى أَخَذْنَاهُ.

هٰذَا مَا حَدَّثَتْ بِهِ أُمُّ هَانِئٍ رضي الله عنها عَنْ تِلكَ ٱللَّيْلَةِ ٱلشَّرِيفَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ، وَٱلَّتِي سَجَّلَتْ حَدَثًا مِنْ أَعْظَمِ ٱلْأَحْدَاثِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ.

بَيْنَ ٱلْهِجْرَةِ وَٱلْإِقَامَةِ

هَاجَرَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ، وَأَقَامَتْ فَاخِتَةُ ـ أُمُّ هَانِئٍ ـ فِي مَكَّة مَعْ زَوْجِهَا وَأَوْلَادِهَا، تُسَرُّ لِأَخْبَارِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَٱنْتِصَارَاتِهَ، وَتَفْرَحُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ٱلْفَرَحَ ٱلْعَظِيمَ، وَتُمَنِّي ٱلنَّفْسَ بِيَوْمِ ٱللِّقَاءِ وَٱلنَّصْرِ ٱلْكَبِير. حَتَّى كَانَ يَوْمُ ٱلْفَتْحِ ٱلْأَعْظَم، يَوْمَ «فَتْحِ مَكَّةَ».

دَخَلَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مَكَّةَ وَحَطَّمَ ٱلْأَصْنَامَ وَكَسَّرَ ٱلْأَوْثَانَ، وَٱرْتَفَعَ صَوْتُ بِلَالٍ رضي الله عنه مَنْ فَوْقِ ٱلْكَعْبَةِ مُدَوِّيًا بِنَشِيدِ ٱلتَّوْحِيد وَٱلتَّكْبِير وَٱلشَّهَادة:

«ٱللهُ أَكْبَرُ، ٱللهُ أَكْبَرُ، ٱللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ ٱللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ ٱللهِ...».

فَمَا كَادَ يَسْمَعُهُ هُبَيْرَة زَوْجُ أُمِّ هَانِئٍ حَتّى فَرَّ مِنْ مَكَّةَ هَارِبًا لَا يَلْوِي عَلَى شَيءٍ، كَارِهًا أَنْ يَدْخُلَ فِي دِينِ ٱللهِ، وَأَنْ يَرَى ٱنْتِصَارَ رَسُولِ ٱللهِ.

وَيَبْدُو أَنَّ هُبَيْرَةَ دَعَا أُمَّ هَانِئٍ لِمُرَافَقَتِهِ فَلَمْ تُجِبْهُ، وَأَلَحَّ عَلَيْهَا فِي ذٰلِكَ فَلَمْ تَسْتَمِعْ إِلَيْهِ بَلْ أَسْلَمَتْ وَدَخَلَتْ فِي دِينِ ٱللهِ.

ثُمَّ ٱفْتَرَقَ ٱلزَّوْجَانِ، وَٱبْتَعَدَ ٱلْخَلِيلَانِ.

أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ...

وَكَانَ ٱلْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ مِنَ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلَّذِينَ أَهْدَرَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ دَمَهُمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَكَانَ يَعْلَمُ مَكَانَةَ أُمِّ هَانِئٍ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ فَلَجَأَ إِلَى بَيْتِهَا مُحْتَمِيًا مُسْتَجِيرًا، وَلَحِقَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِيَقْتُلَهُ، وَأَخْبَرَتْهُ أُمُّ هَانِئٍ أَنَّهَا قَدْ أَجَارَتْ ٱلْحَارِثَ قَائِلَةً:

ـ «يَا ٱبْنَ أُمِّ قَدْ أَجَرْتُهُ».

فَلَمْ يَلْتَفِتْ عَلِيٌّ إِلَى قَوْلِهَا، بَلْ شَهَرَ سَيْفَهُ، فَوَثَبَتْ أُمُّ هَانِئٍ فَقَبَضَتْ عَلَى يَدَيْهِ وَقَالَتْ:

ـ «وَٱللهِ لَا تَقْتُلْهُ وَقَدْ أَجَرْتُهُ».

فَلَمْ يَقْدِرْ عَلِيٌّ أَنْ يَرْفَعَ قَدَمَهُ عَنِ ٱلْأَرْضِ، وَجَعَلَ يَتَفَلَّتُ مِنْهَا فَلَا يَقْدِر.

وَبَيْنَمَا عَلِيٌّ وَفَاخِتَةُ فِي تَجَاذُبِهِمَا دَخَلَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ فَقَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ:

ـ «يَا رَسُولَ ٱللهِ، أَلَا تَرَى أَنِّي قَدْ أَجَرْتُ ٱلْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ فَأَرَادَ عَلِيٌّ أَنْ يَقْتُلَهُ!!!».

فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ:

ـ «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ، وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ، وَلَا تُغْضِبِي عَلِيًّا فَإِنَّ ٱللهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، أَطْلِقِي عَنْهُ».

فَأَطْلَقَتْ أُمُّ هَانِئٍ عَلِيًّا، فَقَالَ ٱلنَّبِيُّ ٱلْحَكِيمُ (صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ) مُدَاعِبًا:

ـ «يَا عَلِيُّ، غَلَبَتْكَ ٱمْرَأَةٌ!!!».

فَقَالَ عَلِيٌّ:

ـ «و ٱللهِ يَا رَسُولَ ٱللهِ، مَا قَدِرْتُ أَنْ أَرْفَعَ قَدَمِيَّ مِنَ ٱلْأَرْضِ».

وَهٰذِهِ شَهَادَةٌ مُنْصِفَةٌ مِنْ فَارِسِ ٱلْفُرْسَانِ، وَأَشْجَعِ ٱلشُّجْعَانِ عَلِيِّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِحَقِّ أُمِّ هَانِئٍ رضي الله عنهما.

ٱلْحَنِينُ إِلَى ٱلْمَاضِي

وَلَقَدْ أَحَسَّ ٱلنَّبِيُّ ﷺ فِي أَعْمَاقِهِ حَنِينًا يَشُدُّهُ إِلَى أَيَّامِ صِبَاهُ، يَوْمَ أَنْ كَانَ فِي دَارِ عَمِّهِ فِي مَكَّةَ، يَمِيلُ إِلَى فَاخِتَةَ، وَيَتَمَنَّاهَا زَوْجَةً لَهُ.

وَٱسْتَيْقَظَ ذٰلِكَ ٱلْحَنِينُ، وَٱسْتَفَاقَتْ تِلْكَ ٱلذِّكْرَيَاتُ، فَخَطَبَ أُمَّ هَانِئٍ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَتْ وَفَرَّقَ ٱلْإِسْلَامُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا هُبَيْرَةَ.

فَقَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ:

ـ «يَا رَسُولَ ٱللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَحَقُّ ٱلزَّوْجِ عَظِيمٌ، فَأَخْشَى إِنْ أَقْبَلْتُ عَلَى زَوْجِي (تَعْنِي رَسُولَ ٱللهِ ﷺ) أَنْ أُضَيِّعَ بَعْضَ شَأْنِي وَوَلَدِي، وَإِنْ أَقْبَلْتُ عَلَى وَلَدِي أَنْ أُضَيِّعَ حَقَّ ٱلزَّوْجِ».

فَأَدْرَكَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ بُعْدَ نَظَرِ أُمِّ هَانِئٍ وَرَجَاحَةَ عَقْلِهَا، وَنُضْجَ فِكْرِهَا، فَقَالَ لَهَا:

ـ «إِنَّ خَيْرَ نِسَاءٍ رَكِبْنَ ٱلْإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى بَعْلٍ (زَوْجٍ) فِي ذَاتِ يَدِهِ».

ٱلْأُمُّ

ٱنْصَرَفَتْ أُمُّ هَانِئٍ بَعْدَ فِرَاقِهَا عَنْ زَوْجِهَا إِلَى ٱلْإِهْتِمَامِ بِأُمُورِ أَبْنَائِهَا، فَأَقْبَلَتْ عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ تَرْبِيَةً صَالِحَةً، وَتَنْشِئَتِهِمْ تَنْشِئَةً طَيِّبَةً، فَغَرَسَتْ فِي نُفُوسِهِم ٱلْفَضَائِلَ وَطَبَعَتْهُم بِطَابَعِ ٱلْإِسْلَامِ وَٱلْإِيمَانِ، فَشَبُّوا عَالِمِينَ عَامِلِينَ.

وَعَاشَتْ رضي الله عنها حَتَّى خِلَافَةِ أَخِيهَا عَلِيٍّ رضي الله عنه.

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ لِلْهِجْرَةِ تَوَفَّاهَا ٱللهُ سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ، وَدَخَلَتْ مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ فِي ٱلتَّارِيْخِ مَثَلًا لِلْمُسْلِمَةِ ٱلْمُؤْمِنَةِ.

رَضِيَ ٱللهُ عَنهَا وَأَرْضَاهَا.

❊ ❊ ❊

أُم كلثوم
(بنتُ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ)

«زَوِّجْنِيهَا يَا أَبَا ٱلْحَسَن، فَوَٱللهِ مَا عَلَى ظَهْرِ ٱلْأَرْضِ رَجُلٌ يَرْصُدُ مِنْ حُسْنِ صُحْبَتِهَا مَا أَرْصُدُ».

عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ﷺ

«سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ يَقُولُ: كُلُّ نَسَبٍ وَسَبَبٍ وَصِهْرٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِلَّا نَسَبِي وَسَبَبِي وَصِهْرِي، فَكَانَ لِي بِهِ ٱلنَّسَبُ وَٱلسَّبَبُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ إِلَيْهِ ٱلصِّهْرَ».

عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ﷺ

وَأَطْلَعَتِ ٱلزَّهْرَاءُ أَقْمَارًا وَكَوَاكِبَ مُنِيرَةً، سَطَعَتْ فِي سَمَاءِ ٱلتَّارِيخِ، فَكَشَفَتْ بِنُورِ ٱلْإِيمَانِ وَٱلْمَعْرِفَةِ وَٱلْبَيَانِ وَٱلْفَصَاحَةِ غَيَاهِبَ ٱلْجَهْلِ وَٱلاسْتِبْدَادِ.

وَأُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ، ثَمْرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ دَوْحَةِ ٱلنُّبُوَّةِ ٱمْتَازَتْ: بِٱلْإِيمَانِ، وَٱلْفَصَاحَةِ، وَٱلْجُرْأَةِ، وَقُوَّةِ ٱلشَّخْصِيَّةِ.

ٱلنَّسَبُ ٱلطَّاهِرُ

وَضَعَتْ فَاطِمَةُ ٱلزَّهْرَاءُ رضي الله عنها طِفْلَةً بَعْدَ مَخَاضٍ عَسِيرٍ، وَكَانَ زَوْجُهَا عَلِيٌّ رضي الله عنه غَائِبًا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ، فَأُخْبِرَ بِذٰلِكَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ، فَحَضَرَ إِلَى بَيْتِ فَاطِمَةَ ٱلَّتِي يُحِبُّهَا حُبًّا بَالِغًا، فَوَاسَاهَا فِي آلَامِهَا وَهَنَّأَهَا بِمَوْلُودَتِهَا، وَسَمَّاهَا أُمُّ كُلْثُومٍ تَيَمُّنًا بِٱسْمِ خَالَتِهَا، وَهُوَ ٱلَّذِي سَمَّى مِنْ قَبْلُ حَسَنًا وَحُسَيْنًا رضي الله عنهما، كَمَا أَنَّهُ ﷺ بَارَكَ ٱلْمَوْلُودَةَ بِأَنْ مَسَحَ بِيَدِهِ ٱلشَّرِيفَةِ عَلَيْهَا وَدَعَا لَهَا بِخَيْرٍ.

ٱلصَّبِيَّةُ

عَادَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مِنْ سَفَرِهِ فَبُشِّرَ بِمَا وَضَعَتْهُ زَوْجَتُهُ، وَبِمَا سَمَّاهَا بِهِ جَدُّهَا ٱلْمُصْطَفَىٰ ﷺ فَغَمَرَتْهُ ٱلْفَرْحَةُ، وَأَغْدَقَ عَلَى ٱلأُمِّ وَعَلَى ٱلابْنَةِ مُسْتَوْدَعَ عَطْفِهِ وَمَكْنُونَ حُبِّهِ.

وَتَعَاقَبَتِ ٱلأَيَّامُ وَٱلشُّهُورُ وَٱلطِّفْلَةُ تَكْبُرُ وَتَنْمُو وَتَزِيدُ حُسْنًا وَبَهَاءً.

وَمَا أَنْ بَلَغَتْ بِضْعَ سَنَوَاتٍ حَتَّى فَارَقَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلدُّنْيَا وَلَحِقَ بِٱلرَّفِيقِ ٱلأَعْلَى، فَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ مِنْ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ جَزَعًا وَحُزْنًا، لِمَا كَانَتْ تَلْقَىٰ مِنْ جَدِّهَا.

وَلَقَدْ ٱكْتَسَبَتْ فِي مُسْتَهَلِّ حَيَاتِهَا ٱلْفَصَاحَةَ وَٱلْبَلَاغَةَ، كَمَا ٱكْتَسَبَتْ ٱلاعْتِزَازَ بِٱلنَّفْسِ، وَصَلَابَةَ ٱلْإِيمَانِ.

فَظَهَرَتْ بَوَادِرُ شَخْصِيَّتِهَا ٱلْقَوِيَّةِ وَهِيَ لَا تَزَالُ صَغِيرَةً لَمَّا تَبْلُغِ ٱلْعَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهَا.

لَوْلَا أَنَّكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

تَوَلَّى أَبُو بَكْرِ ٱلصِّدِّيقُ رضي الله عنه خِلَافَةَ ٱلْمُسْلِمِينَ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ فَأَدَّى ٱلْأَمَانَةَ وَقَامَ بِوَاجِبِ ٱلْمُسْلِمِينِ خَيْرَ قِيَامٍ، فَلَمَّا دَنَتْ سَاعَتُهُ وَحَانَ أَجَلُهُ عَهِدَ مِنْ بَعْدِهِ بِٱلْخِلَافَةِ إِلَى عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ رضي الله عنه.

وَلَقَدْ كَانَتْ تَعْتَمِلُ فِي نَفْسِ عُمَرَ رَغْبَةٌ لَمْ تَتَيَسَّرْ لَهَا أَنْ تَتَحَقَّقَ فِي حَيَاةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ أَنْ يَرْتَبِطَ إِلَى ٱلدَّوْحَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ٱلشَّرِيفَةِ بِٱلْمُصَاهَرَةِ.

وَبَدَتِ ٱلْفُرْصَةُ سَانِحَةً حِينَ تَوَاتَرَتْ عَلَى مَسْمَعِهِ صِفَاتُ أُمِّ كُلْثُومٍ ٱلْخُلُقِيَّةِ، وَمَا تَتَحَلَّى بِهِ مِنْ خِلَالٍ وَسَجَايَا. فَرَغِبَ رَغْبَةً أَكِيدَةً فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْقُرْبَى.

وَكَثِيرًا مَا كَانَ عُمَرُ رضي الله عنه يَسْتَقْضِي عَلِيًّا فِي نِزَاعَاتِ ٱلْمُسْلِمِينِ ٱلَّتِي تُرْفَعُ إِلَيْهِ، اِعْتِقَادًا مِنْهُ بِكَفَاءَتِهِ فِي ٱلْفَتْوَى، وَتَعَمُّقِهِ فِي ٱلْفِقْهِ.

فَبَعْدَ أَنِ انْتَهَى عَلِيٌّ يَوْمًا مِنْ فَضِّ ٱلْخِلَافِ بَيْنَ مُتَدَاعِيَيْنِ وَأَرَادَ ٱلانْصِرَافَ ٱسْتَبْقَاهُ عُمَرُ قَائِلًا:

ـ «إِنَّ لِي حَدِيثًا خَاصًّا مَعَكَ يَا عَلِيّ».

فَٱنْصَرَفَ ٱلْحُضُورُ، وَخَلَا ٱلْمَكَانُ بِعُمَرَ وَعَلِيٍّ وَحْدَهُمَا.

قَالَ عُمَرُ:

ـ «أُرِيدُكَ أَنْ تُنْكِحَنِي أُمَّ كُلْثُومٍ».

فَقَالَ عَلِيٌّ:

ـ «إِنَّهَا صَغِيرَةٌ...».

فَقَالَ عُمَرُ:

ـ «زَوِّجْنِيهَا يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ، فَوَٱللهِ مَا عَلَى ظَهْرِ ٱلْأَرْضِ رَجُلٌ يَرْصُدُ مِنْ حُسْنِ صُحْبَتِهَا مَا أَرْصُدُ...».

فَقَالَ عَلِيٌّ:

ـ «أَنَا أَبْعَثُهَا إِلَيْكَ، فَإِنْ رَضِيَتْهَا فَقَدْ زَوَّجْتُهَا لَكَ».

ثُمَّ إِنَّ عَلِيًّا مَضَى إِلَى بَيْتِهِ حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَيْهِ فَنَادَى أُمَّ كُلْثُومٍ وَحَمَّلَهَا بُرْدًا وَقَالَ لَهَا:

ـ «اِذْهَبِي بِهِ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ وَقُولِي لَهُ: هٰذَا ٱلْبُرْدُ

ٱلَّذِي قُلْتُ لَكَ».

فَحَمَلَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ ٱلْأَمَانَةَ وَمَضَتْ بِهَا حَتَّى جَاءَتْ عُمَرَ فَٱسْتَأْذَنَتْ وَدَخَلَتْ وَقَالَتْ مَا عَلَّمَهَا وَالِدُهَا، وَهِيَ لَا تَدْرِي مِنْ أَسْرَارِ ٱلْأَمْرِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ وَأَلْغَازِهِ شَيئًا.

فَقَالَ عُمَرُ وَقَدْ رَاقَتْ فِي عَيْنَيْهِ:

ـ «قُولِي لَهُ قَدْ رَضِيتُ...».

ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى سَاقِهَا فَكَشَفَهَا...

هُنَا...

غَضِبَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ وَعَلَتْ وَجْهَهَا حُمْرَةُ ٱلْخَجَلِ، وَٱلْتَهَبَتْ ذَاتُهَا عِزَّةً، وَثَارَتْ نَفْسُهَا كَرَامَةً، فَٱلْتَفَتَت إِلَيْهِ قَائِلَةً:

ـ «أَتَفْعَلُ هٰذَا!!! لَوْلَا أَنَّكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَسَرْتُ أَنْفَكَ».

ثُمَّ خَرَجَتْ حَتَّى جَاءَتْ أَبَاهَا فَأَخْبَرَتْهُ ٱلْخَبَرَ وَقَالَتْ لَهُ:

ـ «لَقَدْ بَعَثْتَنِي إِلَى شَيْخِ سُوءٍ...».

فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه:

ـ «إِنَّهُ زَوْجُكِ يَا بُنَيَّة».

فَهَدَأَتْ ثَوْرَةُ أُمِّ كُلْثُومٍ، وَٱنْزَاحَ عَنْهَا مَا أَلَمَّ بِهَا مَنْ هَمٍّ وَغَمٍّ.

كَمَا أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه أَكْبَرَ فِي نَفْسِهِ تِلْكَ ٱلثَّوْرَةَ، فَٱزْدَادَ إِعْجَابُهُ بِأُمِّ كُلْثُومٍ، إِذْ تَحَقَّقَ بِنَفْسِهِ مَا كَانَ يَسْمَعُهُ قَبْلًا عَنْ حُسْنِهَا، وَجَمَالِهَا، وَأَنَفَتِهَا، وَعِزَّةِ نَفْسِهَا.

ٱلزَّوَاجُ

ثُمَّ خَرَجَ عُمَرُ مِنْ بَيْتِهِ حَتَّى أَتَى مَجْلِسَ ٱلْمُهَاجِرِينَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ بَيْنَ ٱلْقَبْرِ وَٱلْمِنْبَرِ، وَهُوَ ٱلْمَكَانُ ٱلَّذِي تَعَوَّدَ أَنْ يَجْتَمِعَ فِيهِ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ.

وَقَفَ عُمَرُ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي كَانَ خِلْوًا مِنَ ٱلنَّاسِ، حَتَّى أَخَذَتْ طَلَائِعُهُم تَتَعَاقَبُ.

فَحَضَرَ عَلِيٌّ أَوَّلًا، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ وَطَلْحَةُ ٱبْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ وَعَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ عَوْفٍ.

وَبَعْدَ أَنِ ٱكْتَمَلَ عِقْدُهُم، قَالَ لَهُم عُمَرُ:

ـ «رَفِّئُونِي... (أَيْ هَنِّئُونِي)».

فَقَالُوا:

ـ «بِمَنْ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ؟؟».

قالَ:

ـ «بِابْنَةِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، إِذْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «كُلُّ نَسَبٍ وَسَبَبٍ وَصِهْرٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِلَّا نَسَبِي وَسَبَبِي وَصِهْرِي»، فَكانَ لي بِهِ عليه السلام ٱلنَّسَبُ وَٱلسَّبَبُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ إِلَيهِ ٱلصِّهْر...».

فَرَفَّأُوهُ، وَهَنَّأُوهُ وَتَمَنَّوا لَهُ ٱلخَيْرَ وَٱلسَّعادَةَ.

إِذَنْ لَمْ يَكُنْ طَلَبُ عُمَر رضي الله عنه ٱشْتِهَاءً، وَلَمْ تَكُنْ رَغْبَتُهُ نَزْوَةً، بَلْ كَانَ هَدَفًا سَامِيًا وَغَرَضًا نَبِيلًا.

لَقَدْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَرْتَبِطَ بِٱلدَّوْحَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا وَتامًّا حَتَّى لَا يَنْفَصِم عَنْها أَبَدًا.

ارْتَبَطَ إِلَيْهَا بِٱلإِسْلَامِ أَوَّلًا.

ثُمَّ بِٱلنَّسَبِ ثَانِيًا، حِينَ زَوَّجَ ٱبْنَتَهُ حَفْصَةَ، إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهَا هُوَ رضي الله عنه يُرِيدُ أَنْ يَسْتَكْمِل جَوَانِبَ ذٰلِكَ ٱلإِرْتِبَاطِ بِالمُصَاهَرَةِ، وَقَدْ فَعَلَ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ ٱلفَارُوقِ فَقَدْ كَانَ مَثَلًا سَامِيًا فِي كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ.

ٱلزَّوْجَةُ

عَاشَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ فِي بَيْتِ عُمَر أَمِيرِ ٱلمُؤْمِنِينَ زَوْجَةً طَائِعَةً وَفِيَّةً، وَلَقَدْ اشْتَهَرَ عَنْ عُمَرَ ﵁ شِدَّتُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَتَقْتِيرُهُ عَلَى بَيْتِهِ، وَحَذَرُهُ ٱلشَّدِيدُ عَلَى ٱلمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِم.

فَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِمَا رُكِّبَ فِيهَا مِنْ إِيمانٍ وَخُلُقٍ، وَمَا رُبِّيَتْ عَلَيْهِ مِنْ فَضَائِلَ تَتَقَبَّلُ ذٰلِكَ وَلَا تَتَأَفَّفُ، وَتَرْضَاهُ وَلَا تَمَلُّ، وَلَقَدْ حَدَثَتْ يَوْمًا حَادِثَةٌ تَدُلُّ بِمَا لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا غُموضَ عَلى مَا كَانَتْ عَلَيهِ ﵂ مِنْ قَناعَةٍ وَطَاعَةٍ.

إِذْ أَرْسَلَتْ يَوْمًا مَعْ رَجُلِ ٱلبَرِيدِ هَدِيَّةً إِلَى زَوْجَةِ هِرَقل مَلِكِ ٱلرُّومِ وَدُونَ أَنْ تُخْبِرَ عُمَرَ بِذٰلِكَ.

فَلَمَّا وَصَلَتْ ٱلْهَدِيَّةُ إِلَى صَاحِبَتِهَا جَمَعَتْ وَصِيفَاتِهَا وَنِسَاءَ قَصْرِهَا وَقَالَتْ لَهُم: هذِهِ هَدِيَّةُ ٱمْرَأَةِ مَلِكِ العَرَبِ وَبِنْتِ نَبِيِّهِم، وَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ أُبَادِلَهَا، فَوَافَقُوهَا.

ثُمَّ إِنَّهَا كَتَبَتْ رِسَالَةَ شُكْرٍ لِأُمِّ كُلْثُومٍ وَأَرْسَلَتْ مَعْ ٱلسَّاعِي بَعْضَ ٱلهَدَايَا، وَكَانَ فِيما أَرْسَلَتْ عِقْدًا فَاخِرًا.

فَلَمَّا ٱنْتَهَى رَجُلُ ٱلبَرِيدِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ٱلمُنَوَّرَةِ أَمْسَكَ عُمَرُ بِٱلْكِتَابِ وَٱلْهَدِيَّةِ، وَٱحْتَجَزَهُمَا عِنْدَهُ.

وَحَدَّثَ أُمَّ كُلْثُومٍ مُعَاتِبًا أَنْ يَحْدُثَ ذٰلِكَ دُونَ عِلْمِهِ. ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُنَادَى فِي ٱلنَّاسِ: ٱلصَّلَاةُ جَامِعَةٌ.

فَٱجْتَمَعَ خَلْقٌ كَثِيرٌ فَصَلَّىٰ بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ وَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ تَعَالَىٰ وَأَثْنَى عَلَيْهِ:

ـ «إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي أَمْرٍ أُبْرِمَ عَنْ غَيْرِ شُورَى مِنْ أُمُورِي».

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِمَا حَدَثَ، وَأَوْقَفَهُمْ عَلَىٰ ٱلتَّطَوُّرَاتِ وَمَا آلَ إِلَيْهِ ٱلْأَمْرُ، وَٱسْتَشَارَهُمْ بِشَأْنِ ٱلْعِقْدِ.

فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ لَهَا بِالَّذِي لَهَا، وَلَيْسَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْمَلِكِ هِرْقِل بِذِمَّةٍ فَتُصَانِعَ بِهِ (أَيْ تُدَاهِنْ)، وَلَا هِيَ تَحْتَ يَدِكَ (أَيْ حُكْمِكَ) فَتَتَّقِيكَ.

وَقَالَ آخَرُون:

ـ «كُنَّا نُهْدِي ٱلثِّيَابَ لِنَسْتَثِيبَ، وَنَبْعَثُ بِهَا لِتُبَاعَ وَلِنُصِيبَ ثَمَنًا...».

ٱسْتَمَعَ عُمَرُ إِلَىٰ آرَاءِ ٱلْجَمِيعِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ «وَلَكِنَّ ٱلرَّسُول (أَيْ ساعِي ٱلبَرِيد) رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِين، وَٱلْبَرِيدُ بَرِيدُهُم، وَٱلْمُسْلِمون عَظَّمُوهَا فِي صَدْرِهَا».

ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ ٱلْهَدِيَّةِ إِلَىٰ بَيْتِ ٱلْمَالِ...

لكِنَّ عُمَرُ كَانَ حَكِيمًا بَالِغَ ٱلْحِكْمَةِ، حَاكِمًا يَرْعَىٰ شُؤُونَ ٱلْأُمَّةِ وَيَحْفَظُ عَلَى بَيْتِهِ أَمْنَهُ وَسُكُونَهُ وَٱسْتِقْرَارَهُ وَدَعَتَهُ، فَأَعْطَى أُمَّ كُلْثُومٍ نَفَقَةً بِقَدْرِ ٱلْهَدِيَّةِ مِنْ مَالِهِ ٱلْخَاص.

كَمَا كَانَتْ أُمُّ كُلْثُوم رضي الله عنها مِنْ نَاحِيَتِهَا زَوْجَةً لِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ تُقَدِّرُ ٱلتَّبِعَةَ وَٱلْمَسْؤُولِيَّةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ امْرَأَةً تَسْتَبِدُّ بِهَا أَنَانِيَّتُهَا، فَقَبِلَتْ بِحُكْمِ عُمَرَ وَرَأْيِهِ.

الأم

وَلَدَتْ أُمُّ كُلْثُوم لِعُمَرَ رضي الله عنها وَلَدَيْن: ذَكَرًا وَأُنْثَى.

زَيْدُ بْنُ عُمَر ٱلْأَكْبَر، وَرُقَيَّة سَمَّتْهَا كَذٰلِك تَيَمُّنًا بِٱسْمِ خَالَتِهَا رضي الله عنها، فَرَبَّتْهُمَا أَحْسَنَ تَرْبِيَةٍ، وَنَشَّأَتْهُمَا أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ، فَٱكْتَسَبَا مِنْ وَالِدَيْهِمَا صَلَابَةَ ٱلرَّأْيِ، وَتَوَاضُعَ ٱلْمُؤْمِنِ، وَٱلْجُرْأَةَ فِي ٱلْحَقِّ، وَقُوَّةَ ٱلشَّخْصِيَّةِ.

الأيِّم

ٱسْتُشْهِدَ عُمَر رضي الله عنه، فَبَكَتْهُ أُمُّ كُلْثُومٍ بُكَاءً مُرًّا، وَحَزِنَتْ لِفِرَاقِهِ أَشَدَّ ٱلْحُزْنِ، وَٱهْتَمَّتْ وَٱغْتَمَّتْ.

ثُمَّ زَوَّجَهَا عَلِيٌّ ﷺ مِنْ ٱبْنِ أَخِيهَ عَوْنِ بْنِ جَعْفَر كَمَا أَعْطَاهَا أَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ لِتَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱلحَيَاةِ.

عَلِـيٌّ ٱلشَّهِيـدُ

مَضَتْ أَيَّامُ أُمِّ كُلْثُومٍ مَعْ عَوْنِ بْنِ جَعْفَر طَيِّبَةً سَعِيدَةً، وَمَا نَقَّصَهَا شَيءٌ أَبَدًا، فَهُوَ إِنْسانٌ كَرِيمٌ عَاقِلٌ وَرِثَ عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرَ ٱلدَّمَاثَةَ وَالرِّقَّةَ، كَمَا كَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ زَوْجَةً وَفِيَّةً، تُقَدِّسُ حُقُوقَ ٱلزَّوْجِ وَتَحْتَرِمُهَا.

وَتَذْكُرُ كُتُبُ ٱلتَّارِيخِ أَنَّ أُمَّ كُلْثُومٍ هِيَ ٱلَّتِي جَرَى بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ٱبْنِ مُلْجِمٍ قَاتِلِ أَبِيهَا حِوارٌ.

فَقَدْ دَخَلَتْ عَلَى أَبِيهَا وَهُوَ مُسَجَّىً يُعَانِي مِنْ آلَامِ ٱلسُّمِّ ٱلَّذي تَسَرَّبَ إِلَى جَمِيعِ أَنْحَاءِ جَسَدِهِ بَاكِيَةً، وَٱبْنُ مُلْجِمٍ مَكْتُوفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَتْ:

ـ «أَبِي أَبِي!!! لَا بَأْسَ عَلَى أَبِي يَا عَدُوّ اللهِ، اللهُ مُخْزِيكَ».

قَالَتْ ذلِكَ وَهِيَ لِشِدَّةِ شَفَقَتِهَا وَحُنُوِّهَا تَعْتَقِدُ بِأَنَّ عَلِيًا سَيَشْفَى مِمَّا أَصَابَهُ...

ثُمَّ فَارَقَ ٱلإِمَامُ عَلِيٌّ ﷺ ٱلْحَيَاةَ، فَذَرَفَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ عَلَيْهِ أَغْلَىٰ دُمُوعِهَا وَأَحَرَّ عَبَرَاتِهَا.

وَأَنَاخَ ٱلْحُزْنُ بِكَلْكَلِهِ عَلَى حَيَاتِها، ثُمَّ تَوَالَتِ ٱلنَّكَبَاتُ فَزَادَتْهَا حُزْنًا عَلَى حُزْنٍ، وَأَلَمًا عَلَى أَلَمٍ.

وَلَكِنَّهَا مَا فَقَدَتْ أَبَدًا رَبَاطَةَ جَأْشِهَا وَقُوَّةَ شَخْصِيَّتِهَا وَثَبَاتِهَا، فَهَا هِيَ تُخَاطِبُ أَهْلَ ٱلْكُوفَةِ مُعَاتِبَةً ساخِطَةً، وَتُجَدِّدُ مِنْ خِلَالِ كَلِمَاتِهَا ٱلْفَوَاصِلَ وَٱلضَّوَابِطَ بَيْنَ ٱلإِيمَانِ وَٱلنِّفَاقِ، وَكَذلِكَ ٱلْمَسْؤُولِيَّاتِ أَمَامَ اللهِ وَأَمَامَ ٱلنَّاسِ.

وَأَقَامَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ عَلَى وَفَائِهَا لِلْحَقِّ حَتَّى لَقِيَتْ رَبَّهَا.

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَطَيَّبَ ثَرَاهَا.

❊ ❊ ❊

أمّ سلمة

أمّ المؤمنين
هند بنت أبي أمية
رضي الله عنها

سُهَيْلٌ «زَادُ ٱلرّكْب» ٱلمَخْزُومِي:

كَانَ سُهيْلٌ بْنُ ٱلْمَغِيرَةِ بْنِ مَخْزُوم سَيِّدَ قَوْمِهِ بِلَا مُنَازِعٍ، وَأَغْنَاهُمْ بِلَا مُنَافِسٍ، عُرِفَ بِٱلْكَرَمِ وَٱلسَّخَاءِ وَٱلشَّجَاعَةِ، وَلُقِّبَ بـ «زَادِ ٱلرّكْبِ» لِأَنَّهُ كَانَ إِذا سافَرَ لَمْ يَحْمِلْ مَنْ يَكُونُ بِرِفْقَتِهِ زادًا بَلْ يَكْفِي ٱلجَمِيعَ ذٰلِكَ، وَيَغْضَبُ إِنْ هُمْ حَمَلُوا مَعَهُمْ شَيْئًا مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلنَّفَقَة.

مِنْ صُلْبِ هذَا ٱلسَّخِيِّ ٱلْكَرِيمِ وُلِدَتْ هِنْد، أُمُّ سَلَمَةَ، فَحَمَلَتْ مِنْ صِفَاتِ أَبِيهَا مَا جَعَلَهَا فِي صِبَاهَا وَشَيْخُوخَتِهَا مَوْضِعَ ٱحْتِرَامِ ٱلنَّاسِ جَمِيعًا وَتَقْدِيرِهِم.

فَرَغِبَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ ٱلْمَخْزُومِيِّ زَوْجَةً لَهُ وَبَنَى بِهَا، وَهَنِيءَ مَعَهَا، فَكَانَتْ ٱلزَّوْجَةَ ٱلصَّالِحَةَ ٱلْوَفِيَّةَ ٱلْمُطِيعَةَ. تَقُومُ بِشُؤُونِ زَوْجِهَا خَيْرَ قِيَام، تَحْتَرِمُهُ وَتُقَدِّرُهُ وَتُوَفِّرُ لَهُ ٱلْجَوَّ ٱلْمَنْزِلِيَّ ٱلَّذِي يَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ.

لَقَدْ كَانَتْ مُنْذُ أَيَّامِ زَوَاجِهَا، زَوْجَةً بِكُلِّ مَا فِي كَلِمَةِ ٱلزَّوْجَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ، رُغْمَ صِغَرِ سِنِّهَا وَحَدَاثَةِ عُمْرِهَا، فَقَدْ كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِنُضْجٍ يَحْسُدُهَا عَلَيْهِ كِبَارُ ٱلسِّنِّ مِمَّنْ عَرَكَتْهُمْ الْأَيَّامُ وَجَرَّبَتْهُمْ الأَعْوَامُ.

ٱلْبَيْتُ ٱلْمُسْلِمُ

آمَنَ أَبُو سَلْمَةَ، بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِدَعْوَتِهِ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ عَنْهَا وَفَقِهَهَا وَأَدْرَكَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ مُثُلٍ وَقِيَمٍ، وَآمَنَتْ مَعَهُ زَوْجُهُ أُمُّ سَلْمَةَ، فَكَانَا مِنَ ٱلرَّعِيلِ ٱلأَوَّلِ ٱلَّذِينَ قَامَتْ عَلَى جِهَادِهِم وَتَضْحِيَاتِهِم دَعْوَةُ ٱلإِسْلَامِ، وَأَضَاءَتْ بِنُورِهَا ٱلْعَالَمَ قَاطِبَةً.

وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ شَابًّا مُمْتَلِئًا حَيَوِيَّةً وَأَنَفَةً، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلطِّرَازِ ٱلَّذِي يُخْفِي دِينَهُ تَقِيَّةً، فَكَانَ يُجَاهِرُ بِدِينِهِ وَعَقِيدَتِهِ مُتَحَدِّيًا، فَلَقِيَ مِنْ جَرّاءِ ذلِكَ نَصَبًا وَعَذَابًا وَحِرْمَانًا.

فَلَمَّا أَذِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ بِٱلْهِجْرَةِ إِلَى ٱلْحَبَشَةِ فِرَاراً بِدِينِهِم وَحِرْصًا عَلَى عَقِيدَتِهِم، شَدَّ أَبُو سَلْمَةَ وَأُمُّ سَلْمَةَ الرِّحَالَ.

وَأَقَامَا فِي أَرْضِ ٱلنَّجَاشِيِّ مَا شَاءَ لَهُمَا اللهُ تَعَالَى أَنْ يُقِيمَا، حَتّى كَانَ إِسْلَامُ «حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ» و«عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ» رضي الله عنهما، فَعَادَا إِلَى مَكَّةَ مَعْ مَنْ عَادَ.

عَادَا وَقَدْ ٱسْتَبَدَّ بِهِمَا ٱلشَّوْقُ إِلَى ٱلْوَطَنِ، وَأَرَّقَهُمَا طُولُ الْبِعَادِ عَنِ ٱلأَهْلِ وَٱلأَحْبَابِ، وَبَرَّحَ بِهِمَا ٱلْحَنِينُ إِلَى طَلْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَعُذُوبَةِ حَدِيثِهِ، وَرِقَّةِ كَلَامِهِ، وَحَدَبِهِ ٱلشَّدِيدِ وَعَطْفِهِ ٱلْكَرِيمِ.

فِي حِلْفِ أَبِي طَالِبِ

وَحِينَ رَجَعَ بَعْضُ ٱلْمُهَاجِرِينَ مِنَ ٱلْحَبَشَةِ إِلَى مَكَّةَ رَجَعَ مَعَهُم أَبُو سَلَمَةَ وَلِكَيْ يَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ بَطْشَ قُرَيْشٍ لَجَأَ إِلَى أَبِي طَالِبٍ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلَ فِي حِمَاهُ وَاسْتَجارَ بِهِ، فَأَجَارَهُ أَبُو طَالِبٍ وَمَنَعَ قُرَيْشًا مِنْ إِيْذَائِهِ.

الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَائِلِ

أَقَامَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِمَكَّةَ مُسْتَضْعَفِين حَتَّى أَذِنَ اللهُ تَعَالَى لِدِينِهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ نَفَرٌ مِنْ أَعْرَابِ ٱلْمَدِينَةِ (يَثْرِبَ)، وَقَدْ أَصْبَحَتْ بَعْدَ مُرُورِ زَمَنٍ يَسِيرٍ لَا يَزِيدُ عَنِ ٱلسَّنَةِ إِلّا قَلِيلًا مَوْئِلًا لِدَعْوَةِ اللهِ، وَمُنْطَلَقًا لِلْتَبشِيرِ بِكَلِمَتِهِ.

ثُمَّ أَذِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ بِٱلْهِجْرَةِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ بَايَعَهُ زُعَمَاؤُهَا وَسَادَتُهَا عَلَى نُصْرَةِ دِينِ اللهِ.

وَلْنَتْرُكِ ٱلْحَدِيثَ لِأُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها تُحَدِّثُنَا بِلِسَانِهَا عَنْ مَرَاحِلِ هَجْرَتِهَا مَعْ زَوْجِهَا أَبِي سَلَمَةَ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: لَمّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ ٱلْخُرُوجَ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ رَحَّلَ لِي بَعِيرِهِ ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ٱبْنِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي

يَقُودُ بِي بَعِيرِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي ٱلْمَغِيرَةِ قَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا:

ـ هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنَا عَلَيْهَا أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِه؟

عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيْرُ بِهَا فِي الْبِلَادْ ؟

قَالَتْ:

ـ فَنَزَعُوْا خِطَامَ البَعِيْرِ مِنْ يَدِهْ، فَأَخَذُوْنِيْ مِنْهُ، وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُوْ عَبْدِ الأَسَدِ ـ رَهْطُ أَبِيْ سَلَمَةِ ـ .

فَقَالُوْا:

ـ لَا واللّهِ، لَا نَتْرُكُ اِبْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوْهَا مِنْ صَاحِبِنَاْ، فَتَجَاْذَبُوْا بُنَيَّ سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوْا يَدَهُ، وانْطلقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ وَحَبَسَنِي بَنُو المَغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَانْطَلَقَ زَوْجِيَ (أَبُو سَلَمَةَ) إِلَىْ المَدِيْنَةِ، فَفُرِّقَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ زَوْجِيْ وَ بَيْنَ اِبْنِيْ.

فَكُنْتُ أَخْرُجُ كَلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطَحِ فَمَاْ أَزَاْلُ أَبْكِيْ حَتَىْ أُمْسِيَ، سَنَةً أَوْ قَرِيْبًا مِنْهَا حَتَّى مَرَّ بِيْ رَجُلٌ مِنْ بَنِيْ عَمِّي أَحَدُ بَنِي المُغِيْرَةِ، فَرَأَى مَا بِيَ فَرَحِمَنِيَ، فَقَالَ لِبَنِيْ المُغِيْرَةِ:

ـ أَلَاْ تُخْرِجُوْنَ هَذِهِ المِسْكِيْنَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا !

فَقَالُوْا لِيْ:

ـ إلْحَقِيْ بِزَوْجِكِ إِنْ شِئْتِ، وردَّ بَنُوْ عَبْدِ الأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ اِبْنِي.

فَارْتَحَلْتُ بِبَعِيْرِيْ، ثُمَّ أَخَذْتُ اِبْنِيْ فَوَضَعْتُهُ فِيْ حِجْرِيْ، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيْدُ زَوْجِيَ بِالْمَدِيْنَةِ وَمَا مَعِيَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّه.

فَقُلْتُ:

ـ أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيْتُ حَتَىْ أَقْدُمَ عَلَىْ زَوْجِيَ، حَتَىْ إِذَاْ كُنْتُ بِالتَنْعِيْم[1] لَقِيْتُ عُثْمَانَ بنَ طَلْحَةَ بنَ أَبِيْ طَلْحَةَ، أَخَاْ بَنِيْ عَبْدِ الدَّاْرِ

فَقَالَ لِيْ:

ـ إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِيْ أُمَيَّة ؟

فَقُلتُ:

ـ أُرِيْدُ زَوْجِيَ بِالمَدِيْنَةِ.

قال:

ـ أَوَ مَاْ مَعَكِ أَحَدٌ؟

فَقُلْتُ:

ـ لَاْ واللَّهِ، إِلَّا اللَّهَ وَبُنَيَّ هَذَا.

---

(١) ـ موضع بين مكة وسرف، على فرسخين من مكة.

قَالَ:

ـ واللَّهِ مَا لَكَ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ البَعِيْرِ فَانْطَلَقَ مَعِيَ يَهْوِي بِيَ، فَوَاللَّهِ مَا صَحِبْتُ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ قَطُّ أَرَىٰ أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إِذَا بَلَغَ المَنْزِلَ أَنَاخَ بِيْ،ثُمَّ اِسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اِسْتَأْخَرَ بِبَعِيْرِي فَحَطَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَيَّدَهُ فِيْ الشَجَرَةِ ثُمَّ تَنَحَّى عَنِّيْ إِلَىٰ شَجَرَةٍ فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ، قَامَ إِلَىٰ بَعِيْرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ ثُمَّ اِسْتَأْخَرَ عَنِّيَ وقَالَ:

ـ اِرْكَبِيْ، فَإِذَا رَكِبْتُ وَاِسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيْرِي أَتَىٰ فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ، فَقَادَهُ حَتَّى يَنْزِلَ بِيْ، فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِيْ حَتَّى أَقْدَمَنِي المَدِيْنَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِيْ «عَمْرُو بنِ عَوْفٍ» بِقُبَاءَ، قَالَ:

ـ زَوْجُكِ فِي هَذِهِ القَرْيَة ـ وكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلاً ـ فَادْخُلِيْهَاعَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ثُمَّ اِنْصَرَفَ رَاجِعاً إِلَىٰ مَكَّةَ.

فِي المَدِيْنَةِ

اِجْتَمَعَ شَمْلُ الأُسْرَةِ مِنْ جَدِيْدٍ، إِذ اِسْتَقْبَلَ أَبُوْ سَلَمَةَ زَوْجَتَهُ وابْنَهُ خَيْرَ اِسْتِقْبَالٍ، وانْزَاحَتْ مِنَ الجَوِّ سُحُبٌ سَوْدَاءُ أَقَامَتْ زَمَناً، وَظَلَّلَتْهُ غَمَائِمُ بَيْضَاءُ، وَرَفْرَفَ الْهَنَاءُ بِجَنَاحَيْهِ فِيْ الآفَاقِ.

إِلَىٰ الْجِهَادِ

وَانْخَرَطَ أَبُو سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيْ صُفُوْفِ الْمُجَاهِدِيْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ، يَخُوْضُ غِمَارَ الْمَعَارِكِ وَيُبْلِي فِيْهَا أَحْسَنَ البَلَاءِ، فَكَانَ لَهُ فِيْ بَدْرٍ صَوْلَاتٌ وجَوْلَاتٌ، وَعَرَفَتْهُ أَرْضُ أُحُدٍ إِذْ بَلَّلَ ثَرَاهَا دَمُهُ الطَّاهِرُ، فَقَدْ جُرِحَ يَوْمَهَا جُرْحاً بَلِيْغاً كَادَ يُوْدِيْ بِحَيَاتِهِ إِلَّا أَنَّ اللّهَ تَعَالَى شَفَاهُ مِنْ ذَلِكَ مُدَّخِراً إِيَّاهُ لِيَوْمٍ آخَرَ.

فَقَدْ أَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمِيْراً عَلَىٰ سَرِيَّةٍ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ بَنِيْ أَسَدٍ، فَعَادَ مِنْ تِلْكَ الْحَمْلَةِ مُوَفَّقاً ظَافِراً مُنْتَصِراً مَعَهُ كَثِيْرٌ مِنَ الغَنَائِمِ وَالأَسْلَابِ فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ أَعَادَ لِلْمُسْلِمِيْنَ هَيْبَتَهُمْ الَّتِيْ اِفْتَقَدُوْهَا يَوْمَ أُحُدٍ.

لَقَدْ أَجْهَدَ أَبُوْ سَلَمَةَ نَفْسَهُ يَوْمَ قَادَ هَذِهِ الغَزْوَةَ المُظَفَّرَةَ، ونَالَهُ مِنْ جَرَّاءِ إِرْهَاقِهِ لِنَفْسِهِ إِجْهَاداً كَانَ مِنْ أَثَرِهِ أَنْ تَجَدَّدَ الْجُرْحُ الْقَدِيمُ ونَزَفَ الدَّمُ ثُمَّ تَقَيَّحَ وَاسْتَفْحَلَ شَرُّهُ حَتَّىٰ قُضِيَ فِي النِهَايَةِ عَلَىٰ المُجَاهِدِ العَظِيْمِ، والنَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَانِبِ فِرَاشِهِ يُوَاسِيْهِ حَتَّى أَسلَمَ الرُّوْحَ.

وَتَلَقَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها تِلْكَ المُصِيْبَةَ بِقَلْبٍ مَمْلُوْءٍ إِيْمَاناً، وَنَفْسٍ مَشحُونَةٍ صَبْراً، مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، شَاكِرَةً فَضْلَهُ عَلَى مَنْحِهِ الشَّهَادَةَ لِزَوْجِهَا «البَطَلِ»، فَكَانَتِ «المُسْلِمَةُ الخَالِدَةُ» الَّتِيْ أَعْطَتْ أَعْظَمَ المَثَلِ فِي الصَّبْرِ

عَلَى الشَّدَائِدِ، والأَخْذِ بِيَدِ الزَوْجِ إِلَى مَرَاقِيْ الْفَلَاحِ والنَّجَاحِ.

الزَّوْجَةُ الوَفِيَّةُ

بَعْدَ أَن مرَّتْ أَرْبَعَةُ شُهُورٍ عَلَى وَفَاةِ «أَبِيْ سَلَمَةَ» رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، جَاءَ «أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ» رضي الله عنه إِلَى «أُمِّ سَلَمَةَ» خَاطِبَاً، وَلَقَدْ كَانَتْ عَادَةُ العَرَبِ فِي إِكْرَامِ رِجَالِهِمُ العِظَامِ أَنْ يَحْفَظُوهُمْ فِيْ زَوجَاتِهِمْ إِنْ هُمْ قَضَوْا فِي سَاحَةِ الشَّرَفِ وَمَاتُوا فِي مَيْدَانِ الجِهَادِ بِالزَّوَاجِ مِنْهُنَّ، ولَكِنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَدَّتْهُ.

وَجَاءَهَا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ خَاطِبَاً فَرَدَّتْهُ أَيْضَاً....

وتَذَكَّرَتْ فِي خَلْوَتِهَا يَومَاً بِنَفْسِهَا حَدِيْثَاً جَرَىٰ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا إِذْ قَالَتْ لَهُ فِيْ أَحَدِ الأَيَّامِ:

بَلَغَنِيْ أَنَّهُ لَيْسَ إِمْرَأَةٌ يَمُوتُ زَوجُهَا وهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، ثُمَّ لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدَهُ إِلَّا جَمَعَ اللَّهُ بَينَهُمَا فِي الجَنَّةِ، وكَذَلِكَ إِذَا ماتَتْ المَرْأَةُ وبَقِيَ الرَّجُلُ بَعْدَهَا فَتَعَالَ أُعَاهِدُكَ أَلَّا تَتَزَوَّجَ بَعْدِي ولَا أَتَزَوَّجَ بَعْدَكَ، قَالَ ـ أَبُو سَلَمَةَ ـ: فَإِذَا مِتُّ فَتَزَوَّجِيْ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اُرزُقْ (أُمَّ سَلَمَةَ) بَعْدِيَ رَجُلَاً خَيْرَاً مِنِّيْ،لَا يُحْزِنُهَا ولَا يُؤْذِيْهَا.

خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ

وَبَيْنَمَا هِيَ فِي سَبْحَةِ فِكْرِهَا هَذِهِ، اِستَأْذَنَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ يُوَاسِيهَا وَيُخَفِّفُ عَنْهَا مُصَابَهَا وَقَالَ لَهَا:

سَلِيْ اللَّهَ أَنْ يُؤْجِرَكِ فِي مُصِيْبَتِكِ ويُخْلِفَكِ خَيْرَاً...

فبَكَتِ الأَرْمَلُ الحَزِيْنَةُ الَّتِي قَاسَمَتْ زَوجَهَا السَّرَّاءَ والضَّرَّاءَ، فَهَاجَرَتْ مَعَهُ إِلَى الحَبَشَةِ هَرَبَاً مِنَ إِيْذَاءِ قُرَيْشٍ واِسْتِمْسَاكَاً بِدِينِ اللَّهِ، ولَقَدْ أَحَبَّتْهُ وأَحَبَّهَا، ووَفَّتْ بِعَهْدِهِ بَعدَ مَوتِهِ، وَلَمْ تَجِدْ فِي الرِّجَالِ جَمِيعَاً مَنْ يَعْدِلُهُ، وَرَفَضَتِ الأَيْدِيَ الَّتِيْ تَقَدَّمَتْ لِخِطْبَتِهَا وَمَنْ بَيْنَهَا يَدَيْ صَاحِبَيْ رِسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

وقَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: وَمَنْ يَكُوْنُ خَيْرَاً مِنْ أَبِيْ سَلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

وَفَكَّرَ النَّبِيُّ فِي أَمْرِ أُمِّ سَلَمَةَ كَثِيرَاً، وَتَضَاعَفَ تَفْكِيرُهُ فِيْ أَمْرِهَا عِنْدَمَا رَدَّتْ صَاحِبَيْهِ، فَأَكْبَرَ فِي نَفْسِهِ تِلْكَ السَّيِّدَة.

لَقَد أَكْبَرَ المُسْلِمَةَ الكَرِيمَةَ، والمُؤْمِنَةَ الصَّادِقَةَ.

لَقَدْ فَكَّرَ فِي أَمْرِ هَذِهِ السَّيِّدَةِ الهَالِعَةِ فَرَأَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ تُتْرَكَ وَحِيْدَةً هَكَذَا.

ثُمَّ جَاءَ أَمرُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَضُمَّ «أُمَّ سَلَمَةَ» إِلَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ

تَكْرِيمَاً لَهَا، وَرَفْعَاً لِمَكَانَتِهَا، وَتَعْظِيمَاً لِشَأْنِهَا، وَمُوَاسَاةً لَهَا.

رَسُولُ اللَّهِ الخَاطِبُ

ثُمَّ أَرْسَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَاطِبَ بنَ أَبِي بَلْتَعَةَ خَاطِبَاً لَهُ: فَقَالَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ»: مَرحَبَاً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... ولَكِن أَبلِغْهُ عَنِّيَ أَنِي اِمرَأَةٌ مُسِنَّةٌ، وأُمُّ أَيْتَام، وأَنِّيَ فَوْقَ ذَلِكَ شَدِيدَةُ الغِيْرَةِ.

فَأَرسَلَ إِلَيْهَا رِسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: أَمَّا قَولُكِ أَنَّكِ اِمرَأَةٌ مُسِنَّةٌ فَأَنَا أَسَنُّ مِنكِ ولَا يُعَابُ عَلَى المَرْءِ أَنْ يُقَالَ: تَزَوَّجَ أَسَنَّ مِنْهُ.

وأَمَّا قَولُكِ: أُمُّ أَيتَام، فَإِنَّ كَلَّهُم عَلَى اللَّهِ و رَسُولِهِ.

وأَمَّا قَولُكِ: إِنِّيَ شَدِيْدَةُ الغَيْرَةِ، فَإِنِّيَ أَدْعُوْ اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَ عِنْكِ ذَلِكَ.

وكَانَ وليُّهَا فِي ذَلِكَ اليَوم وَلَدُهَا «عُمَرُ بنُ أَبِي سَلَمَةَ».

وأَصْدَقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَتَاعَاً قِيمَتُهُ عَشْرُ دَرَاهِمَ (فِراشٌ حَشْوُهُ لِيْفٌ و قِدْرٌ وصُحْفَةٌ ومِجَشَّةٌ).

كانَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ» رضي الله عنها عَلَى جَانِبٍ مِنَ الجَمَالِ، فَدَبَّتِ الغَيرَةُ إِلَى نَفْسِ عَائِشَةَ رضي الله عنها عِندَمَا عَلِمَتْ بِالْزَوَاجِ، وهَكَذَا شَأْنُ النِّسَاءِ ...

وكَانَ من إِكْرَامِ النَبِيِّ ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّى العَصْرَ دَخَلَ عَلَى

أَزْوَاجِهِ وَاحِدَةً وَاحِدَةً مُبْتَدِئاً بِأُمِّ سَلَمَةَ لِأَنَّهَا أَكْبَرُهُنَّ ثُمَّ يَخْتِمُ بِعَائِشَةَ.

الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ

كَانَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ» رضي الله عنها مِنَ النِّسَاءِ العَاقِلَاتِ النَّاضِجاتِ اللَّوَاتِي يُدْرِكْنَ الأُمُورَ إِدْرَاكاً صَحِيحاً ويُقَيِّمُونَهَا تَقْيِيْماً سَلِيماً، وَيُعْطِينَ فِيهَا حُكْماً صَائِباً. فَعَاشَتْ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ مُقَدِّرَةً وُجُودَهَا حَرِيصَةً عَلَى مَكَانَتِها مُرَاعِيَةً جَانِبَ المَوَدَّةِ و الأُلفَةِ مَعَ أُمَّهاتِ المُؤْمِنِيْنَ.

لِهَذَا كُلِّهِ كَانَتْ مَنْزِلَتُهَا عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَظِيمَةً رَفِيعَةً.

وحَدَثَ فِي يَوْمِ «الحُدَيْبِيَةِ» أَن أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بَعْدَ أَنَّ فَرَغَ مِن تَوقِيعِ عَقدِ الصُّلْحِ مَعَ وَفدِ قُرَيشٍ، أَنْ يَنْحَرُوا ثُمَّ يَحلِقُوا فَلَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ورَدَّدَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ دُونَ أَنْ يُجِيْبَهُ أَحَدٌ إِلَى طَلَبِهِ فَدَخَلَ عَلَى «أُمِّ سَلَمَةَ» فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ صُدُودِ النَّاسِ وإِعْرَاضِهِم، وهُوَ حَزِينٌ مُتَأَلِّمٌ.

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، أُخْرُجْ فَلَا تُكَلِّم أَحَداً مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَتَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيُحلِقَكَ.

فَاسْتَصْوَبَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْيَ «أُمِّ سَلَمَةَ» الَّتِي أَشَارَتْ بِهِ، والَّذِي سَيَكُونُ ـ ولَا شَكَّ ـ حَافِزاً فِعْلِيّاً عَلَى تَحَرُّكِ النَّاسِ.

فَقَامَ وَخَرَجَ ولَمْ يُكَلِّم أَحَداً مِنْهُمْ كَلِمَةً، فَنَحَرَ بُدنَتَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَ جَعَلَ بَعْضُهُم يَحْلِقُ بَعْضاً حتَّى كَادَ بَعضُهُمْ يَقْتُلُ بَعضاً غَمَّاً.

وَهَكَذَا كَانَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ المَواقِفِ، لَا تَصدُرُ إِلَّا عَن نُضْجٍ وعُمْقِ تَفْكِيرٍ.

وَلَقَد حَفِظَتْ فِي ذَاكِرَتِهَا كَثِيْرَاً مِمَّا حَدَّثَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَوَتْهُ عَنْهُ بِأَمَانَةِ النَّاقِلِ ووَعْيِ السَّامِعِ.

بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وبَعْدَ أَنْ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالرَفِيقِ الأَعْلَىٰ أَقَامَتْ أُمُّ المُؤمِنِيْنَ «أُمُّ سَلَمَةَ» تَرقُبُ مُجْرَيَاتِ الأُمُورِ و تَطَوُّرَ الأَحْدَاثِ والوَقَائِعِ فَتُدْلِي بِرَأْيِهَا فِي كُلِّ شَأْنٍ حِفَاظَاً مِنْهَا عَلَى اِسْتِقَامَةِ النَّاسِ وعَدَمِ اِنْحِرَافِهِم و خَاصَّةً أَصْحَابُ السُّلْطَانِ مِنَ الخُلَفَاءِ و الوُلَاةِ.

وظَلَّتْ رضي الله عنها أُمَّاً لِلمُؤمِنِيْنَ، تَرْفَعُ عَنْهُمُ بِلِسَانِهَا غَائِلَةَ الظُّلْمِ مَا اِستَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيْلاً و تُنَافِحُ عَنْهُمُ جَوْرَ السُّلطَانِ مَا أَمْكَنَهَا، وتَصدَعُ بِكَلِمَةِ الحَقِّ لَا تَخْشَى فِيْهَا لَوْمَةَ لَائِم.

فَلَمَّا كَانَ شَهرُ ذِي القِعدَةِ مِنَ العَامِ التَّاسِعِ والخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ دبَّ الفَنَاءُ إِلَى أَوْصَالِهَا، وأسْلَمَتِ الرُّوْحَ رَاضِيَةً مَرضِيَّةً، فَصَلَّى عَلَيْهَا أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

ودُفِنَتْ بِالبَقِيعِ وقَدْ تَجَاوَزَتْ الرَّابِعةَ والثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهَا.

رَضِيَ اللَّهُ عَن أُمِّ المُؤْمِنِينَ «هِندِ بِنْتِ أَبِيْ أُمَيَّةَ» أُمِّ سَلَمَةَ، الزَّوْجَةِ الوَفِيَّةِ، والمُجَاهِدَةِ الصَّابِرَةِ، والعَالِمَةِ الجَلِيلَةِ، والمُحَدِّثَةِ الأَمِينَةِ، حَامِلَةِ رَايَةَ الحَقِّ.

❊ ❊ ❊

مَيمُونَةُ بِنتُ الحَارِثِ

أُمُّ المؤمنينَ
رَضِيَ اللهُ عنهـا

لَقَدْ كَانَ إِسْلاَمُ مَيْمُونَةَ رضي الله عنها خَيراً وبَرَكَةً عَلَى الإِسْلاَمِ والمُسْلِمِينَ، لِأَنَّهُ كَانَ فَتْحاً فِي ضَمَائِرِ النَّفَرِ الَّذِينَ نَاصَبُوا الدَّعْوَةَ العَدَاءَ السِّنِينَ الطِّوَالَ، فَانْجَابَتْ عَنْ أَعْيُنِهِم غِشَاوَةُ الْجَهلِ، وانْزَاحَتْ عَنْ قُلُوبِهِم وأَرْوَاحِهِم عَمَاوَةُ الكِبْرِ والحِقْدِ.

وكَانَ زَوَاجُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَفْحَةً مُشْرِقَةً وَضَّاءَةً فِيْ سِجِلِّ الخَالِدِينَ، فَمَا عُرِفَ عَنْ حَيَاتِهَا الزَّوجِيَّةِ القَصِيرَةِ الأَمَدِ فِيْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ نَبْوَةٌ أَوْ جَفْوَةٌ.

كَمَا أَنَّهَا كَانَتْ خَاتِمَةَ زِيْجَاتِهِ ﷺ.

وكَانَتْ حَيَاتُهَا المَدِيدَةُ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عُنْوَاناً لِلْوَفَاءِ والاِسْتِقَامَةِ عَلَى التَّقْوَى.

رَضِيَ اللَّهُ عَن أُمِّ المُؤمِنِينَ مَيمُونَةُ بِنْتُ الحَارِثِ الهِلَالِيَة.

نَسَبُهَا

هِيَ أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ مَيمُونَةُ بِنْتُ الحَارِثِ بنِ هِلال أَحَدُ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَسَادَتِهَا، وأُمُّهَا «هِنْدُ بِنْتُ عَوْفٍ» سَيِّدَةٌ مِنْ سَيِّدَاتِ مَكَّةَ اللَّوَاتِيْ اِشْتَهَرْنَ بِالفَضْلِ والنَّسَبِ الرَّفِيعِ، وهِيَ خَالةُ «خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ» رضي الله عنه.

مَوْلِدُهَا

وُلِدَتْ مَيْمُوْنَةُ رضي الله عنها في مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ النَبِيُّ ﷺ بِستِّ سَنَوَاتٍ.

فَأَدْرَكَتِ الإِسْلَامَ صَغِيْرَةً غَرِيْرَةً لَا تَفْقَهُ، ولَا تُمَيِّزُ، فَبَقِيَتْ مَعَ أَبَوَيْهَا عَلَى خُطَى الجَاهِلِيَّةِ يَسِيْرُونَ، يُعَظِّمُونَ الأَوْثَانَ، ويُقَدِّسُونَ الأَصْنَامَ، ويَعْبُدُوْنَ مَا يَنْحِتُوْنَ.

ولَكِنَّهَا مَعَ نُمُوِّهَا و نُضْجِهَا و تَعَاقُبِ الأَحْدَاثِ و تَوَالِيْ الأَعْوَامِ كَانَتْ تَسْتَمِعُ بِشَيءٍ مِنَ الوَعْيِ والإِدْرَاكِ إِلَى أَنْبَاءِ (البَعْثِ) و(الوَحْيِ) وغَيْرِهَا فَتُفَكِّرُ فِيْ ذَلِكَ وتُمْعِنُ التَفْكِيْرَ...

زَوَاجُهَا

عِنْدَمَا اِكْتَمَلَتْ أُنُوْثَتُهَا، ونَمَا عُوْدُهَا، وبَلَغَتْ مَبلَغَ النِسَاءِ، جَاءَهَا أَحَدُ فِتْيَانِ مَكَةَ المَرْمُوْقِيْنَ خَاطِباً وهُوَ «مَسْعُودُ بنُ عَمْرٍو» فَوَافَقَ والِدُهَا، وزَوَّجَهُ إِيَّاهَا.

اِنْتَقَلَتْ مَيْمُونَةُ رضي الله عنها إِلَىٰ دَارِ زَوْجِهَا «مَسْعُودِ بنِ عَمْرُو» فَأَقَامَتْ مَعَهُ، ولَكِنَّهَا كَانَتْ كَثِيْرَةَ التَّرَدُّدِ عَلَىٰ دَارِ أُخْتِهَا «أُمِّ الفَضْلِ» زَوجَةِ «العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ» رضي الله عنه فَكَانَتْ تَسْتَمِعُ مِنْهَا إِلَى بَعْضِ تَعَالِيْمِ الإِسْلَامِ، وإِلَى أَنْبَاءِ المُسْلِمِيْنَ المُهَاجِرِيْنَ وإِلَى أَخْبَارِ مَعَارِكِ (بَدْرٍ) و (أُحُدٍ)، فَيَتْرُكُ كُلُّ ذَلِكَ فِيْ نَفْسِهَا أَثَراً عَمِيْقاً.

كَانَتْ مَيْمُوْنَةُ رضي الله عنها فِيْ بَيْتِ شَقِيقَتِهَا «أُمِّ الفَضْلِ» حِيْنَ تَبَلَّغَ العَبَّاسُ أَخْبَارَ اِنْتِصَارِ المُسْلِمِيْنَ (خَيْبَرَ)، فَهَشَّتْ لِذَلِكَ وفَرِحَتْ، وحِيْنَ ضَمَّهَا بَيْتُهَا مَعَ زَوْجِهَا «مَسْعُوْدِ بنِ عَمْرٍو» كَانَ هُوَ مَغْمُوماً وكَانَتْ هِيَ مُسْتَبْشِرَةً، فَتَلَاحَيَا، وأَعْلَنَ مَسْعُوْدٌ مُفَارَقَتَهَا، فَخَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى بَيْتِ العَبَّاسِ تُقِيْمُ عِنْدَهُ.

مَيْمُوْنَةُ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ

لَقَدْ كَانَتْ مَيْمُوْنَةُ رضي الله عنها مُؤْمِنَةً تَكْتُمُ إِيْمَانَهَا، فَإِذَا بِهِ عِنْدَ رُؤْيَةِ النَبِيِّ ﷺ وأَصْحَابِهِ (فِيْ عُمْرَةِ القَضَاءِ) يَتَفَجَّرُ....

فَهَوَتْ بِكُلِّيَّتِهَا إِلَى الإِسْلَامِ، وأَعْلَنَتْ رَغْبَتَهَا عَلَى المَلَأِ.

ولَمْ تَقِفْ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ مِنَ الإِيْمَانِ، بَلْ أَرْسَلَتِ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ

المُطَّلِب لِيَعْرِضَهَا عِلَى رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ زَوْجَةً... فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ وأَصْدَقَهَا أَرْبَعَمِائَةِ دِرْهَمْ.

وكَانَتْ مُدَّةُ الأَيَّامِ الثَّلاَثَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا عَهْدُ الحُدَيْبِيَّةِ قَدِ انْقَضَتْ فَأَرْسَلَ القُرَشِيُّوْنَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُوْنَ:

ـ لَقَدِ انْقَضَىْ أَجَلُكَ، فَاخْرُجْ عَنَّا.

فَابْتَسَمَ النَبِيُّ ﷺ وقَالَ:

ـ مَا عَلَيْكُمْ لَو تَرَكْتُمُونِيَ، فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، و صَنَعْنَا لَكُمْ طَعَامَاً فَحَضَرْتُمُوْهُ؟؟

فَقَدْ أَرَادَ ﷺ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ زَوَاجِهِ بِمَيْمُوْنَةَ ذَرِيْعَةً لِإِطَالَةِ إِقَامَتِهِ ولِيُجَدِّدَ الحِوَارَ بَيْنَهُ و بَيْنَ القُرَشِيِّيْنَ لَعَلَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ و تَعَالَى يَهْدِيْهِم إِلَى الإِسْلَام.

فَأَقَامَ حَفْلَاً ودَعَا إِلَيْهِ أَكَابِرَهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يَتَنَاوَلُوْا شَيْئَاً مِنْ طَعَامِهِ بِلْ قَالُوْا: لَاْ حَاجَةَ لَنَا بِطَعَامِكَ فَاخْرُجْ عَنَّا.

قَالُوْا ذَلِكَ وهُمْ يَتَوَجَّسُونَ خِيْفَةً مِنْ بَقَائِهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوْا مَا تَرَكَتْهُ زِيَارَتَهُ لِمَكَّةَ مِنْ أَثَرٍ فِيْ بَعْضِ النُّفُوْسِ والعُقُولِ.

فَهَا هِيَ مَيْمُوْنَةُ بِنْتُ الحَارِثِ لَا تَكتَفِي بِإِعْلَانِ إِسْلَامِهَا، بَلْ تُضِيْفُ إِلَيْهِ مَاْ يَغِيْظُهُمْ حِيْنَ تَعْرِضُ عَلَى رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهَا زَوْجَةً.

فِيْ هَذَا الحَفْلِ أَعْلَنَ النَّبِيُّ ﷺ زَوَاجَهُ بِمَيْمُوْنَةَ، وحِفَاظاً مِنْهُ عَلَى نُصُوْصِ مُعَاهَدَةِ الحُدَيْبِيَةِ لَمْ يَبْنِ بِهَا فِيْ مَكَّةَ، وأَذَّنَ مُؤَذِّنُهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى المَدِيْنَةِ، وحِيْنَ أَصْبَحَ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى (سَرَف) عَلَى بُعْدِ عَشْرَةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ بَنَى ﷺ بِمَيْمُوْنَةَ رضي الله عنها.

أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ مَيْمُونَةُ خَيْرٌ وبَرَكَةٌ عَلَى الإِسْلَامِ

مَا كَادَ رَكْبُ المُسْلِمِيْنَ يُغَادِرُ مَكَّةَ مُتَوَجِّهاً إِلَى المَدِيْنَةِ حَتَّى أَثَّرتْ فِيْ نُفُوْسِ بَعْضِ القُرَشِيِّيْنَ صَيْحَةُ مَيْمُوْنَةَ الدَّاوِيَةِ، فَوَقَفَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ رضي الله عنه قَائِلاً:

ـ لَقَدِ اِسْتَبَانَ لِكُلِّ ذِيْ عَقْلٍ أَنَّ مُحَمَّداً لَيْسَ بِسَاحِرٍ ولا شَاعِرٍ، وأَنَّ كَلَامَهُ مِنْ كَلَامِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، فَحَقَّ عَلَى كُلِّ ذِيْ لُبٍّ أَنْ يَتَّبِعَهُ.

فَلَمَّا عَارَضَهُ «عِكْرِمَةُ بنُ أَبِيْ جَهْلٍ» مُسَفِّهاً رَأْيَهُ وقَوْلَهُ، مُذَكِّراً إِيَّاهُ بِأَقْرِبَائِهِ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ (بَدْرٍ) أَجَابَهُ خَالِدٌ:

ـ هَذَا أَمْرُ الجَاهِلِيَّةِ وحَمِيَّتُهَا، لَكِنِّيَ واللَّهِ أَسْلَمْتُ حِيْنَ تَبَيَّنَ لِيَ الحَقُّ.

ثُمَّ لَحِقَ هُوَ وعَمْرُو بنُ العَاصِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى المَدِيْنَةِ، فَاعْتَزَّتْ بِهِمَا الدَّعْوَةُ وصَارَا عَلَمَيْنِ مِنْ أَعْلَامِ الجِهَادِ.

لَقَدْ كَانَ لِمَوْقِفِ مَيْمُوْنَةَ الجَرِيءِ رضي الله عنها الأَثَرُ البَارِزُ فِيْ تَحَوُّلِ الكَثِيْرِيْنَ مِنَ القُرَشِيِّيْنَ عَنْ جَاهِلِيَّتِهِمْ ودُخُولِهِمْ فِيْ دِيْنِ اللَّهِ أَفْوَاجَاً.

فِيْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ

وصَلَتْ «مَيْمُونَةُ» إِلَى المَدِيْنَةِ، واسْتَقَرَّتْ فِي البَيْتِ النَبَوِيِّ الطَّاهِرِ زَوْجَةً كَرِيْمَةً، وأُمًّا لِلمُؤْمِنِيْنَ فَاضِلَةً، تُؤَدِّي واجِبَ الزَّوجِيَّةِ عَلَىٰ خَيْرِ مَا يَكُونُ الأَدَاءُ سَمْعَاً وطَاعَةً وإِخْلَاصَاً ووَفَاءً.

وضَمَّ إِلَيْهَا النَبِيُّ ﷺ فِيْ بَيْتِهَا شَقِيْقَتَهَا سَلْمَى أَرْمَلَةَ عَمِّهِ حَمْزَةَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه وشَقِيْقَتُهَا عُمَارَةُ الَّتِي لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ.

كَانَ عُمْرُ مَيْمُونَةَ فِيْ ذَلِكَ الحِيْنِ سِتَّةً وعِشْرِيْنَ عَامَاً، فَكَانَتْ لَا تَزَالُ فِي مَيْعَةِ الصِبَا.

فِي هَذا العَامِ فُجِعَ النَّبِيُّ ﷺ بِكُبْرَى بَنَاتِهِ «زَيْنَبُ» فَكَانَتْ مَيْمُوْنَةُ رضي الله عنها تُوَاسِيْهِ وتُخَفِّفُ مَا بِهِ مِنْ أَلَمِ المُصَابِ، ولَمْ تَكُنْ لِتُثْقِلَ كَاهِلَهُ ﷺ بِشَكْوَى أَو طَلَبٍ.

مَيْمُونَةُ عُنْوَانُ الوَفَاءِ

بَعْدَ أَن لَحِقَ النَّبِيُّ ﷺ بالرَفِيقِ الأَعْلَى عَاشَتْ مَيْمُونَةُ سِنِينَ عَدَدَاً، بَلَغَتْ خَمْسِينَ عَامَاً، أَمْضَتْهَا صَلَاحَاً وَتَقْوَى، وفِيَّةً لِذِكْرَى سَيِّدِ ولَدِ آدَمَ، ورَسُولِ الهُدَىٰ، ومُعَلِّمِ الإِنْسَانِيَّةِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ و سَلَامُهُ عَلَيهِ.

وقَد بَلَغَ مِنْ وَفَائِهَا لِذِكْرَى أَكْرَمِ الأَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَوصَتْ بِدَفْنِهَا فِي المَكَانِ الَّذِيْ بُنِيَ بِهَا فِيهِ، فَدُفِنَتْ فِيْ (سَرَفٍ).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأَنْزَلَ عَلَيْهَا شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، و بَوَّأَهَا مَقَامَ الأَبْرَارِ الصَالِحِينَ.

❊ ❊ ❊

أُمُّ حَبِيبَةَ

أُمُّ المؤمنينَ

رملةُ بنتُ أبي سفيانَ

رَضِيَ اللهُ عَنهَا

فِي بَيتِ أَبِي سُفْيَانَ

وُلِدَتْ رَمْلَةُ فِي العَامِ الخَامِسِ والعِشْرِينَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، أَيْ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً.

وَالِدُهَا أَبُو سُفْيَانَ «صَخْرُ بنُ حَربِ بنِ أُمَيَّةَ»، جَمَعَتْ إِلَى رِفْعَةِ الحَسَبِ و النَّسَبِ، الغِنَى الوَافِرَ والجَمَالَ البَاهِرَ، فَكَانَت مَحَطَّ الأَنْظَارِ، وودَّ أَكْثَرُ الشَّبَابِ المَكِّيِّ أَنْ يَتَّخِذَهَا زَوْجَةً لَهُ، وتَنَافَسُوا عَلَيْهَا، وكَانَ لِمَكَانَةِ وَالِدِهَا وزَعَامَتِهِ فِي قُرَيْشٍ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تِلْكَ الرَّغْبَةِ الَّتِي تَمَلَّكَتْ الشُّبَّانَ.

وجَاءَهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ خَاطِبَاً، وَكَانَ شَابَّاً مَرْمُوْقَاً يَتَمَتَّعُ بِالوَسَامَةِ، والجَّاهِ العَرِيْضِ، والحَسَبِ الرَّفِيعِ، أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ تَضَلُّعَهُ فِي عُلُومِ الدِّيَانَاتِ وأُصُولِهَا، فَقَدْ كَانَ مُلَازِماً لِوَرَقَةَ بنِ نَوفَلٍ فَقَبِلَ بِهِ أَبُو سُفْيَانَ وزَوَّجَهُ رَمْلَةَ.

فِي بَيْتِ الزَّوجِيَّةِ

كَانَتْ رَمْلَةُ فَتَاةً قُرَشِيَّةً نَاضِجَةَ الفِكْرِ، عَاقِلَةً مُدْرِكَةً، عَلَى قِسْطٍ وَافِرٍ مِنَ العِلمِ والمَعرِفَةِ، تَقْرَأُ وتَكْتُبُ، فَكَانَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُبَيْدِ اللَّهِ عَلَى خَيْرِ مَا يَكُونُ الزَّوجَانِ تَفَاهُمَاً ومَحَبَّةً، إِنْ عَرَضَ لِأَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ أَبْدَتْ رَأْيَاً نَاضِجَاً وحُكْمَاً صَائِبَاً.

ومَضَتْ بِهِمَا الأَيَّامُ.... حَتَّى كَانَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، وتَأَثَّرَ بِهَا عُبَيْدُ اللَّهِ تَأَثُّرَاً سَطْحِيَاً لَامَسَ بَعْضَ جَوَانِبِ نَفْسِهِ، إِذْ خَضَعَ لِمُؤَثِّرَاتِ قَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولِلْكَلِمَاتِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا وَرَقَةُ بنُ نَوفَلٍ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ.

إِلَى الحَبَشَةِ

هَاجَرَ عُبَيْدُ اللَّهِ إِلَى الحَبَشَةِ ومَعَهُ زَوْجَتُهُ رَمْلَةُ مَعَ مَنْ هَاجَرَ مِنَ المُسْلِمِينَ، ومَا كَادَتْ قَدَمَاهُ تَطَأَ أَرْضَ النَّجَاشِيِّ حَتَّى عَاوَدَهُ الحَنِيْنُ إِلَى المَاضِيْ، إِلَى بَعْضِ نَصْرَانِيَّتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا.

وحَدَثَ أَنِ اِسْتَيْقَظَتْ رَمْلَةُ يَوْمَاً عَلَىْ حُلُمٍ مُزْعِجٍ رَهِيْبٍ، فَقَدْ رَأَتْ زَوْجَهَا عُبَيْدَ اللَّهِ بوَجْهٍ غَيْرِ وَجْهِهِ الحَقِيْقِيِّ، رَأَتْهُ دَمِيْمَاً بَعْدَ أَنْ كَانَ

وَسِيْمَاً، وقَبِيْحَاً بَعْدَ أَنْ كَانَ جَمِيْلاً فَاسْتَعَاذَتْ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وبَيْنَا هِيَ فِيْ شُؤُونِهَا الخَاصَّةِ مُنْشَغِلَةٌ أَتَاهَا عُبَيْدُ اللَّهِ مُعْلِنَاً نَصْرَانِيَّتَهُ دَاعِيَاً إِيَّاهَا إِلَى مُشَارَكَتِهِ، فَأَبَتْ واسْتَكْبَرَتْ ولَاذَتْ بِإِيْمَانِهَا، وأَدْرَكَتْ مَغْزَىْ الحُلُمِ الَّذِيْ رَأَتْهُ فِي لَيْلَتِهَا، فَحَدَّثَتْ عُبَيْدَ اللَّهِ بِذَلِكَ وَدَعَتْهُ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى الإِيْمَانِ والإِسْلَامِ، فَرَفَضَ وأَصَرَّ عَلَى الرَّفْضِ، وخَرَجَ إِلَى جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ يَقُولُ لَهُمْ: فَقَّحْنَا وصَأْصَأْتُمْ أي أَبْصَرْنَا وأَنْتُمْ تَلْتَمِسُونَ البَصَرَ ولَمْ تُبْصِرُوا بَعْدُ.

وأَكَبَّ عَلَى الخَمْرِ يَعُبُّ مِنْهَا حَتَّى الثُّمَالَةَ، واسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامَاً حَتَّى قَضَى.

الأَرْمَلَةُ المُهَاجِرَةُ

وقَضَتْ رَمْلَةُ أَيَّامَهَا فِي دِيَارِ الهِجْرَةِ بَيْنَ عَذَابَيْنِ: عَذَابِ البُعْدِ عَنْ الأَهْلِ والوَطَنِ، وعَذَابِ التَرَمُّلِ وفَقْدِ المُعِيْلِ، لَكِنَّهَا بِمَا أُوْتِيَتْ مِنْ إِيْمَانٍ عَظِيْمٍ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَصْمُدَ فِي وَجْهِ المِحْنَةِ. كَمَا لَقِيَتْ مِنْ إِخْوَانِهَا المُسْلِمِيْنَ كُلَّ عَوْنٍ وَسَنَدٍ.

الرَّسُولُ الخَاطِبُ

عِنْدَمَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُتُبَهُ إِلَى المُلُوكِ والأُمَرَاءِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى المَدِيْنَةِ، لَمْ يَنْسَ الرَّسُولُ العَظِيْمُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ أَنْ يَذْكُرَ رَمْلَةَ بِخَيْرٍ، وأَيُّ خَيْرٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَخْطِبَهَا لِنَفْسِهِ مُوَاسِيَاً لَهَا فِي غُرْبَتِهَا، مُعَزِّيَاً لَهَا فِي تَرَمُّلِهَا ؟

لَقَدْ حَمَلَ عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي يَدْعُوهُ فِيْهِ إِلَى الإِسْلَامِ وقَدْ ضَمَّنَهُ طَلَبَاً كَرِيمَاً هَوَ أَنْ يَخْطِبَ لَهُ النَّجَاشِيُّ رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِيْ سُفْيَانَ. فَقَبِلَ النَّجَاشِيُّ مُهِمَّةَ الخَاطِبِ وأَرْسَلَ إِلَى رَمْلَةَ إِحدَى جَوَارِيهِ و تُدعَى أَبْرَهَة تَحْمِلُ إِلَيْهَا النَّبَأَ السَّعِيدَ. فَصَاحَتْ رَمْلَةُ قَائِلَةً: ـ بَشَّرَكِ اللَّهُ خَيْرَاً ....

ثُمَّ وَكَّلَتْ عَنْهَا خَالِدَ بنَ سَعِيدِ بنِ العَاصِ لإِتْمَامِ الزِّيْجَةِ، فَلَمَّا كَانَ المَسَاءُ مِنْ ذَلِكَ اليَوم، دَعَا النَّجَاشِيُّ المُسْلِمِيْنَ إِلَيْهِ وخَطَبَ فِيْهِم فَقَالَ:

ـ لَقَدْ كَتَبَ إِلَيَّ مُحَمَّدٌ أَنْ أُزَوِّجَهُ «أُمَّ حَبِيْبَةَ» رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِيْ سُفْيَانَ فَأَجَبْتُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ وَأَصْدَقْتُهَا أَرْبَعَمِائَةِ دِيْنَارٍ.

ثُمَّ سَكَبَ الدَّنَانِيْرَ بَيْنَ يَدَيْ القَومِ، عِنْدَئِذٍ نَهَضَ وَكِيْلُهَا «خَالِدُ بنُ سَعِيْدٍ» وقَالَ:

ـ الحَمْدُ لِلَّهِ، وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ بِالهُدَى ودِيْنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَجَبْتُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ وزَوَّجْتُهُ مِنْ رَمْلَةَ «أُمِّ حَبِيْبَةَ» فَبَارَكَ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ....

ثُمَّ دُفِعَتْ الدَّنَانِيْرُ لِخَالِدٍ فَقَبَضَهَا، ولَمَّا أَرَادَ القَوْمُ الاِنْصِرَافَ قَالَ لَهُمُ «النَّجَاشِيُّ»:

ـ اِجْلِسُوا فَسُنَّةُ الأَنْبِيَاءِ إِذَا تَزَوَّجُوا أَنْ يُقَدِّمُوا الطَّعَامَ لِمَنْ حَضَرُوا الزَّوَاجَ.

ثُمَّ دَعَا بِطَعَامٍ فَأَكَلُوا ثُمَّ تَفَرَّقُوا...

لَقَدْ اِسْتَطَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَنَالَ بِهَذَا الزَّوَاجِ أُمُوراً كَثِيْرَةً، ويُحَقِّقَ أَغْرَاضَاً عَظِيْمَةً وأَهدَافَاً سَامِيَةً.

فَبِالإِضَافَةِ إِلَى المُوَاسَاةِ الَّتِي لَقِيَتْهَا «أُمُّ حَبِيْبَةَ» فَاسْتَكَانَتْ نَفْسُهَا بَعْدَ قَلَقٍ، وهَدَأَتْ بَعْدَ اِضْطِرَابٍ، فَقَدْ نَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتْحَاً عَظِيْمَاً عَلَى أَكْبَرِ عَدُوٍّ لَهُ ولِدِيْنِهِ، عَلَى وَالِدِهَا «أَبِي سُفْيَانَ بنِ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ» الَّذِي كَانَ يَتَرَأَّسُ كُلَّ مَعْرَكَةٍ ومُؤَامَرَةٍ، ويَتَزَعَّمُ كُلَّ جَيْشٍ:

ولَقَدْ قَالَ «أَبُو سُفْيَان» عَنْدَمَا عَلِمَ بِأَمرِ هَذِهِ الزِّيْجَةِ:

ـ هَذَا الفَحْلُ «مُحَمَّدٌ» ﷺ لَا يُجْدَعُ أَنْفُهُ.

وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْضِي الأُمُورَ بِحِكْمَةٍ عَالِيَةٍ وهِمَّةٍ سَامِيَةٍ، لَمْ تَكُنْ تَتَحَرَّكُ فِيهِ إِلَّا رَغْبَتُهُ فِي الحِفَاظِ عَلَى وَحْدَةِ المُسْلِمِيْنَ وتَمَاسُكِهِمْ ومُوَاسَاتِهِم والاِنْتِصَارِ لَهُمْ. فَهُوَ أَولَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُم.

«أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ» فِيْ بِيْتِ النُّبُوَّةِ

وَلَمَّا كَانَ يومُ فَتْحِ خَيْبَرَ وَصَلَ وَفْدُ المُهَاجِرِينَ مِنَ الحَبَشَةِ بَعدِ طُولِ غِيَابٍ فَقَالَ رِسُولُ اللَّهِ ﷺ:

ـ بِمَاذَا أَفْرَحُ ؟ بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَم بِقُدُومِ جَعْفَر ؟

وكَانَت أُمُّ حَبِيْبَةَ رضي الله عنها مَعَ الوَفْدِ القَادِمِ، فَبَنَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وأَقَامَتْ فِيْ بَيْتِهِ زَوْجَةً تُقَدِّرُ مسْؤُلِيَّتَهَا، و تَحْفَظُ مَكَانَتَهَا، وتَحرِصُ عَلَى إِسْعَادِ زَوجِهَا، و عَرَفَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْرَهَا فَأَغْدَقَ عَلَيْهَا مِنْ فَيْضِ حَنَانِهِ وحُبِّهِ، ورِعَايَتِهِ وعَطْفِهِ.

مَعَ أَبِي سُفْيَانَ وَجْهَاً لِوَجْهٍ

ولَيْسَ أَدَلَّ عَلَى وَفَائِهَا و إِيْمَانِهَا مِنْ تِلْكَ الحَادِثَةِ المَشْهُورَةِ فِي حَيَاتِها، إِذ قُدِّرَ لَهَا أَن تُوَاجِهَ وَالِدَهَا «أَبَا سُفْيَانَ» وَجْهَاً لِوَجهٍ، هِيَ مُؤْمِنَةٌ وَزَوْجَةٌ لِلنَبِيِّ ﷺ وهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ، سَيِّدُ قُرَيشٍ بِلَا مُنَازِعٍ، لَهُ رَهْبَةٌ وهَيْبَةٌ.

ولَكِنَّهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقِفُ مَوقِفَ النِّدِّ لِلنِّدِّ، لَا تَخْشَى أَذَاهُ ولَا سَطْوَتَهُ، ولَا تَجْزَعُ مِنْ سُلْطَانِهِ وَجَبَرُوتِهِ، تُعَرِّفُهُ مَكَانَتَهُ بَيْنَ الإِيْمَانِ والكُفْرِ بِمُنْتَهَى رَبَاطَةِ الجَأْشِ والسَّكِينَةِ، و تَقُولُ بِالفَمِ المَلْآنِ:

أَبِي الإِسْــلَامُ لَا أَبَ لِي سِــوَاهُ

إِذَا افْتَخَــرُوا بِقَيْـسٍ أَو تَمِيْــمِ

وتُعْلِنُ أَنَّ وَلَاءَهَا للَّهِ تَعَالَى ولِرَسُولِهِ لَا لِأَحَدٍ سِوَاهُمَا.

فَقَد حَدَثَ بَعدَ فَتْرَةٍ مِنْ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَ وَفْدِ قُرَيْشٍ صُلْحَ الحُدَيْبِيَةِ أَنْ نَقَضَ حُلَفَاءُ قُرَيشٍ «بَنُو بَكْرٍ» هَذَا الصُّلْحَ، فَجَاءَ أَحَدُ «بَنِيْ خُزَاعَةَ» حُلَفَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَجِيْرَاً بِهِ، فَوَعَدَهُ خَيْرَاً وطَمْأَنَهُ.

وأَدْرَكَ «أَبُو سُفْيَانَ» زَعِيْمُ قُرَيْشٍ مَغَبَّةَ الأَمْرِ، واسْتَشْعَرَ فِي نَفْسِهِ خُطُورَتَهُ فَجَهَّزَ نَفْسَهُ و قَصَدَ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ لِيُثَبِّتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ العَقْدَ ولِيُمَدِّدَهُ.

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى المَدِينَةِ دَخَلَ عَلَى ابِنَتِهِ «أُمِّ حَبِيْبَةَ» يَتَوَسَّطُهَا لَدَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ، فَطَوَتْهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهَا:

ـ يَا بُنَيَّة، مَا أَدْرِي أَرَغِبْتِ بِي عَن هَذَا الفِرَاشِ، أَمْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟

فَأَجَابَتْهُ قَائِلَةً:

ـ بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ نَجِسٌ، و لَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ لَهَا:

ـ واللَّهِ لَقَدْ أَصَابَكِ يَا بُنَيَّةُ بَعْدِيَ شَرٌّ...

فَقَالَتْ:

ـ بَلْ هَدَانِيَ اللَّهُ لِلإِسْلَامِ، فَأَنْتَ يَا أَبَتِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ وكَبِيْرُهَا، كَيْفَ يَسْقُطُ عَنكَ الدُّخُولُ فِي الإِسْلَامِ، وأَنْتَ تَعْبُدُ حَجَرًا لَا يَسْمَعُ ولَا يُبْصِر.

اِسْتَمَعَ إِلَيْهَا وهُوَ يَكَادُ يَتَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ، ثُمَّ خَرَجَ غَاضِبًا، فَقَصَدَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَصَدَّهُ وَلَمْ يَقْبَلْ وَسَاطَتَهُ، وهَكَذَا عَادَ «أَبُو سُفْيَانَ» إِلَى مَكَّةَ فَاشِلاً.

وَهَكَذَا المُؤْمِنُ الحَقُّ، لَا يَعْرِفُ صِلَةً إِلَّا صِلَةَ الإِيْمَانِ والإِسْلَامِ.

وحِيْنَ عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا كَانَ بَيْنَ أُمِّ حَبِيْبَةَ ووَالِدِهَا إِزْدَادَتْ قِيْمَتُهَا فِيْ نَظَرِهِ، وسَمَتْ مَكَانَتُهَا فِيْ قَلْبِهِ، فَبَالَغَ فِيْ إِكْرَامِهَا وتَقْدِيرِهَا كِفَاءَ مَا قَدَّرَتْ وعَظَّمَتْ حُرْمَةَ الدِّيْنِ وحُرْمَةَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ.

بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وبَعْدَ أَنْ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بالرَّفِيْقِ الأَعْلَى أَقَامَتْ «أُمُّ حَبِيْبَةَ» فِي بَيْتِهَا وَفِيَّةً لِذِكْرَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَعَرَفَ لَهَا النَّاسُ جَمِيعاً «سَادَةً وَمَسُودِيْنَ» مَكَانَتَهَا ومِقْدَارَهَا فَاحْتَرَمُوهَا وعَظَّمُوهَا، وفَاءً مِنْهُمْ لِنَبِيِّهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فَكَانَ الخُلَفَاء يَأْتُونَهَا زَائِرِيْنَ، ويَصِلُونَهَا بِالمَالِ الَّذِي يَكْفِيهَا مَؤُونَةَ الحَاجَةِ وَ ذُلَّ السُّؤَالِ.

وَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ حَدَثَتْ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُشَارِكْ فِيْهَا لَا بِالقَولِ ولَا بالفِعْلِ، ولَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ يُشْتَمُّ مِنْهَا تَحَيُّزٌ لِفَرِيْقٍ دُوْنَ فَرِيْقٍ، بِلْ حَرَصَتْ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى أَنْ تَقُولَ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ الَّتِيْ تَدْعُو إِلَى وَحْدَةِ صَفِّ المُسْلِمِيْنَ والْتِفَافِهِمْ حَوْلَ الدِّيْنِ واِعْتِصَامِهِم بِاللَّهِ، واِسْتِمْسَاكِهِمْ بِحَبْلِهِ المَتِيْنِ.

وَرَوَتْ مَا سَمِعَتْ مِنْ حَدِيْثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْهَمَتْ فِيْ تَنْمِيَةِ التُّرَاثِ العِلْمِيِّ الإِسْلَامِيِّ.

لَقَدْ كَانَتْ رضي الله عنها سَيِّدَةً جَلِيْلَةً بِكُلِّ مَا فِي الكَلِمَةِ مِنْ مَعْنَىً، وَقُوْرَةً هَادِئَةً، لَا يَسْتَخِفُّهَا أَمْرٌ أَوْ حَدَثٌ مَهْمَا بَلَغَ عُنْفُهُ أَوْ فَاعِلِيَّتُهُ.

الوَفَاةُ

لَمْ تَكُنْ تَخْرُجُ رضي الله عنها مِنْ بَيْتِهَا إِلَّا لِصَلَاةٍ، ولَمْ تَكُنْ تَتْرُكُ المَدِيْنَةَ إِلَّا لِحَجٍّ، ولَمَّا كَانَ العَامُ الرَّابِعُ والأَرْبَعُونَ مِنَ الهِجْرَةِ أَحَسَّتْ «أُمُّ حَبِيْبَةَ» بِالضَعَفِ يِسْرِيْ إِلَى أَوْصَالِهَا، والوَهَنِ يَتَمَشَّى فِيْ كَيَانِهَا، كَيْفَ لَا، وَقَدْ شَارَفَتْ عَلَى الاِنْتِهَاء مِنَ العَقدِ السَّابِعِ مِنْ عُمُرِهَا.

ومَا هِيَ إِلَّا أَيَّام حَتَّى تَوَفَّاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى فَدُفِنَتْ بِالبَقِيعِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأَنْزَلَهَا مَنْزِلَاً مُبَارَكَاً طَيِّبَاً، وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي زُمْرَةِ عِبَادِهِ الصَّالِحِيْنَ.

❊ ❊ ❊

رُقَيَّةُ

بنتُ رسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم)

نَشْأَتُهَا

وُلِدَتْ رُقَيَّةُ رضي الله عنها بَعْدَ أُخْتِهَا «زَيْنَبُ»، فَكَانَتْ قُرَّةَ عَيْنٍ لِوَالِدَيْهَا الكَرِيْمَيْنِ وَمَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَتْ بَعْدَهَا أُمُّ كُلْثُوم، فَنَشَأَتَا مُتَلَاصِقَتَيْنِ مُتَعَاطِفَتَيْنِ، ولَقَدِ اِشْتَدَّ تَقَارُبُهُمَا وانْسِجَامُهُمَا خُصُوْصاً بَعْدَ أَنْ فَارَقَتْهُمَا زَيْنَبُ كُبْرَاهُنَّ إِلَى مَنْزِلِ الزَّوْجِيَّةِ، فَكَانَتَا أَشَدَّ وُثُوقاً وخُلُوْصاً إِلَى بَعْضِهِمَا، وكَأَنَّ القَدَرَ كَانَ يَرْسُمُ لَهُمَا فِيْ مُسْتَقْبَلِ الأَيَّامِ مَصِيْرَاً وَاحِدَاً، بِدَايَةً ونِهَايَةً.

وفِي كُتُبِ السِّيْرَةِ مَا يَشْهَدُ عَلَى هَذَا التَّلَازُمِ الغَرِيْبِ العَجِيْبِ، إِذ أَجْمَعَتْ كُلُّ الرِّوَايَاتِ التَّارِيْخِيَّةِ عَلَى وَحْدَةِ الحَالِ التِي كَانَتْ قَائِمَةً بَيْنَ الأُخْتَيْنِ رُقَيَّةُ وأُمُّ كُلْثُومٍ.

الخِطْبَةُ

بَعْدَ أَنْ زُوِّجَتْ زَيْنَبُ إِلَى أَبِي العَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ وقَدْ قَارَبَتْ سِنُّ رُقَيَّةَ وأُمِّ كُلْثُومٍ مِنَ الزَّوَاجِ، جَاءَ أَبُو طَالِبٍ «عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ» خَاطِبَاً لَهُمَا إِلَى اِبْنَيْ أَخِيْهِ «عَبْدِ العُزَّى بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ» أَبِيْ لَهَبٍ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ:

ـ جِئْنَاكَ نَخْطُبُ اِبْنَتَيْنَا رُقَيَّةَ وأُمَّ كُلْثُومٍ ومَا أَرَاكَ تَضِنُّ بِهِمَا عَلَى اِبْنَيْ عَمِّكَ ... عُتْبَةَ وعُتَيْبَةَ اِبْنَا العَمِّ «عَبْدِ العُزَّى».

فَأَجَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ مَعَاذَ القَرَابَةِ والرَّحِمِ، ولَكِنْ هَلَّا أَمْهَلْتَنِيْ يَا عَمُّ حَتَّى أَتَحَدَّثَ فِي هَذَا إِلَى اِبْنَتَيَّ...

وَعَرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الأَمْرَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ: زَوْجَتِهِ خَدِيْجَةَ، واِبْنَتِهِ صَاحِبَةِ الشَّأْنِ.

سَكَتَتْ خَدِيجَةُ رضي الله عنها قَلِيْلاً فِي فَتْرَةِ تَأَمُّلٍ، فَهِيَ تَعْرِفُ حَقَّ المَعْرِفَةِ «أُمَّ جَمِيْلٍ» زَوْجَةَ أَبِي لَهَبٍ، وتَعْرِفُ قَسْوَةَ قَلْبِهَا، وشَرَاسَةَ طَبْعِهَا، وحِدَّةَ لِسَانِهَا، وصَلَفِهَا الأَحْمَقِ، وطَيْشَهَا الأَهْوَجِ، فَأَشْفَقَتْ عَلَى اِبْنَتَيْهِمَا أَنْ تُسْلِمَهُمَا إِلَى هَذَا الجَوِّ المَشْحُونِ بِالْحِقْدِ والكَرَاهِيَةِ والخُلُقِ السَّيِّءِ.

ولَكِنَّهَا خَافَتْ إِنْ هِيَ نَطَقَتْ بِرَأْيِهَا أَنْ تُغْضِبَ زَوْجَهَا، فَيَظُنَّ أَنَّهَا تُرِيْدُ أَنْ تُمَزِّقَ أَوَاصِرَ القُرْبَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، فَسَكَتَتْ، كَمَا سَكَتَتْ الفَتَاتَانِ حَيَاءً، وأَغْضَتَا عَنِ الجَوَابِ رِقَّةً وخَجَلاً.

وَتَمَّ الأَمْرُ، وعُقِدَتْ الخِطْبَةُ فِي جَوٍّ مَشُوبٍ بِالقَلَقِ، وبَارَكَ الأَبُ الحَنُونُ اِبْنَتَيْهِ وتَرَكَ أَمْرَ رِعَايَتِهِمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

النُّبُوَّةُ

ولَاحَ فِي سَمَاءِ مَكَّةَ قَبَسٌ مِنْ نُورٍ أَضَاءَهَا وبَدَّدَ ظُلْمَتَهَا، إِذْ أَظَلَّتْهَا بِعْثَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ هِدَايَةً ونُوْرَاً.

وتَذَكَّرَتْ خَدِيْجَةُ رضي الله عنها اِبْنَتَيْهَا رُقَيَّةَ و أُمَّ كُلْثُومٍ ومَا سَيَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمَا بَيْنَ يَدَيْ أُمٍّ جَمِيلٍ الظَّالِمَةِ، وزَوْجِهَا المِطوَاعِ لَهَا.

واجْتَمَعَتْ قُرَيْشُ وائْتَمَرَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وقَالَ قَائِلُهَا:

ـ إِنَّكُمْ قَدْ فَرَّغْتُمْ مُحَمَّدَاً مِنْ هَمِّهِ فَرُدُّوا عَلَيْهِ بَنَاتِهِ فَأَشْغِلُوهُ بِهِنَّ...

ورَدَّ أَبُو لَهَبٍ زَوَاجَ اِبْنَيْهِ مِنْ بِنْتَي رَسُولِ اللهِ ﷺ قَائِلَاً لِوَلَدَيْهِ:

ـ رَأْسِي مِنْ رَأْسَيْكُمَا حَرَامٌ إِن لَم تَطَلِّقَا اِبْنَتَي مُحَمَّدٍ ...

ولَم يَكُن الدُّخُولُ قَدْ تَمَّ.

وعَادَتِ الفَتَاتَانِ إِلَى ذَوِيْهِمَا ...

وَلَم تَكْتَفِ أُمُّ جَمِيلٍ وأَبُو لَهَبٍ بِمَا أَقْدَمَا عَلَيْهِ بَلْ بَالَغَا فِي إِيْذَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ أَبُو لَهَبٍ يَتَعَرَّضُ لَهُ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ وطَرِيقٍ مُهَاجِمَاً ومُقَارِعَاً وسَابَّاً وشَاتِمَاً، كَمَا أَنَّ زَوْجَتَهُ ـ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ـ كَانَتْ تَجْمَعُ الأَشْوَاكَ المُؤْذِيَةَ فَتَرْمِيهَا فِي طَرِيْقِهِ ﷺ فَتُؤْذِيْهِ.

فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى قَولَهُ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾

(ٱلمَسَد: 1 - 5).

مِمَّا زَادَ شُعُورَهُمَا بِالكَرَاهِيَّةِ والنُّفُورِ، وإِمْعَانًا فِي الشِّدَّةِ والإِيْذَاءِ.

البَيْتُ المِثَالِيُّ المُجَاهِدُ

وقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِزَوجَتِهِ الوَفِيَّةِ المُخْلِصَةِ:

ـ لَقَد مَضَى عَهْدُ النَّومِ يَا خَدِيجَةُ ...

وأَحَسَّتْ رُقَيَّةُ و أُمُّ كُلْثُومٍ رضي الله عنهما بِتَبَدُّلٍ أَسَاسِيٍّ فِي جَوِّ البَيْتِ، فَقَد أَصْبَحَ بَيْتًا يَلُفُّهُ الجِدُّ، وتَأْخُذُهُ القَسْوَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَهُوَ هَدَفٌ رَئِيْسِيٌّ لِلْاِضْطِهَادِ والعَذَابِ والسُّخْرِيَةِ، وانْزَاحَتْ عَنْ أَفْيَائِهِ بَسْمَةُ السَّعَادَةِ. فَتَحَمَّلَتَا صَابِرَتَيْنِ مَعَ الأَبَوَيْنِ كُلَّ ذَلِكَ تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ تَعَالَى، واسْتَعْذَبَتَا الأَلَمَ والشَّقَاءَ والتَضْحِيَةَ فِي المَعْرَكَةِ المُقَدَّسَةِ.

التَّعْوِيْضُ الكَرِيْمُ

وخَابَ فَأْلُ قُرَيْشٍ وَظَنُّهَا، فَلَم يَعْنَتْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ جَرَّاءِ رَدِّ ابْنَتَيْهِ إِلَيْهِ، إِذ عَوَّضَهُ اللهُ تَعَالَى خَيْرَاً مِنَ الزَّوجَيْنِ الأَوَّلَيْنِ، عوَّضَهُ زَوْجَاً صَالِحَاً كَرِيْمَاً عَزِيْزَاً، عَرِيقَ النَّسَبِ، وَاسِعَ الثَّرْوَةِ، لَطِيفَ الخُلُقِ، دَمِثَ الطِّبَاعِ، ذَلِكُم هُوَ «عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ»، وكَانَ رضي الله عنه مِنْ أَعَزِّ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ حَسَبَاً وجَاهَاً وغِنَىً. وزَوَّجَهُ ﷺ مِن رُقَيَّةَ وبَارَكَ لَهُمَا وفِيهِمَا وعَلَيْهِمَا.

المِحْنَةُ

واشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ بِالمُسْلِمِيْنَ، ونَالُوا مِنْهُمْ نَيْلَاً فَاحِشَاً، فَأَذِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ ولِإِخْوَانِهِ فِي الهِجْرَةِ إِلَى الحَبَشَةِ فِرَارَاً بِدِيْنِهِمْ حَتَّى لَا يُفْتَنُوا، قَائِلَاً لَهُمْ:

ـ لَو خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكَاً لَا يُظْلَمُ عَنْدَهُ أَحَدٌ، وهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجَاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيْهِ.

فَخَرَجَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه مَعَ زَوْجَتِهِ رُقَيَّةَ التِي كَانَتْ دَامِعَةَ العَيْنِ وَالِهَةَ القَلْبِ مُعَذَّبَةَ النَّفْسِ، وعَانَقَتْ أَبَاهَا وأُمَّهَا وأَخَواتِهَا فَتَكَادُ تَشْرَقُ بِغُصَّتِهَا، وكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهَا يُرَدِّدُ:

الأَهْـلُ والأَوطَـانُ فِرَاقُهُمُ صَعْبُ
والـــرُّوحُ والأَبْدَانُ فَلْيَقْبَلِ الـــرَّبُّ
لَكِـنَّهُ الإِيْمَـــــانُ فِدَاؤُهُ القَلْـــبُ

فَلْيَقْبَلِ الرَّبُّ

وكَانَ عُثْمَانُ رضي الله عنه سَاهِمَاً حَزِيْنَاً فَرَنَتْ إِلَيْهِ رُقَيَّةُ المُؤْمِنَةُ الصَّابِرَةُ وَقَالَتْ مُخَفِّفَةً عَنْهُ:

ـ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ومَعَ الذِيْنَ تَرَكْنَاهُمْ بِرَغْمِنَا فِي جِوَارِ البَيْتِ العَتِيْقِ.

فَسُرِّيَ عَنْهُ مَا أَلَمَّ بِهِ، ومَضَتِ القَافِلَةُ...

فِي حِمَى «النَّجَاشِيِّ»

وأَقَامَ المُهَاجِرُونَ فِي حِمَى النَّجَاشِيِّ مَوْفُورِي الكَرَامَةِ، يَتَمَتَّعُونَ بِحُرِّيَّةِ العَمَلِ والعِبَادَةِ، ولَمْ يَكُنْ لِيُنَغِّصَ عَلَيْهِم مَقَامَهُمُ سِوَى أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ: دَسِيْسَةُ قُرَيْشٍ عَلَيْهِمُ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، وأَخْبَارُ أَهْلِيْهِمُ فِي مَكَّةَ بِمَا يُلَاقُونَهُ مِنْ اضْطِهَادٍ وعَذَابٍ ونَصَبٍ.

العَوْدَةُ

ومَضَتْ بِهِمُ الحَيَاةُ ...

حَتَّى سَمِعُوا بِإِسْلَامِ «حَمْزَةَ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ»، و«عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ» رضي الله عنهما ، فَآثَرَ بَعْضُهُمُ العَوْدَةَ، رَغْبَةً بِالمُشَارَكَةِ فِي صُنْعِ المُسْتَقْبَلِ، ورُؤْيَةِ الأَهْلِ الذِيْنَ طَالَ بُعدُهُم واشْتَدَّ شَوقُهُمْ إِلَيْهِمْ.

أَمَّا الآخَرونَ فَأَرَادُوا أَنْ يَسْتَمِرُّوا فِي مَقَامِهِمْ حَتَّى يَأْذَنَ لَهُمُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْعَوْدَةِ.

وكَانَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ و رُقَيَّةُ مِنَ الذِينَ عَزَمُوا عَلَى العَودَةِ، ومَا إِنْ وَطِئَتْ أَقْدَامَهُمْ أَرْضَ الوَطَنِ، وتَكَحَّلَتْ عُيُونُهُمْ بِرُؤْيَةِ مَغَانِي الصِّبَا ومَرَاتِعِ الشَّبَابِ حَتَّى فَاضَتْ بِالدَّمْعِ.

ولَكِنَّهُمْ فُوجِئُوا بِازْدِيَادِ طُغْيَانِ قُرَيْشٍ وعَنَتِهَا، فَطَوَوا قُلُوبَهُمْ وأَفْئِدَتَهُمْ عَلَى خَيْبَةِ الأَمَلِ.

وكَانَتْ رُقَيَّةُ أَكْثَرَ العَائِدِيْنَ حُزْنَاً، لِأَنَّهَا دَخَلَتْ دَارَ أَبِيْهَا مُسَلِّمَةً مُشْتَاقَةً، فَقَبَّلَتْ أَخَوَاتِهَا وبِلَهْفَةٍ سَأَلَتْ عَنِ الأُمِّ العَظِيمَةِ، فَسَكَتْنَ ولَمْ يُجِبْنَ، وكَانَتْ دُمُوعُهُنَّ أَبْلَغَ جَوَابٍ، لَقَدْ لَحِقَتْ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى فَبَكَتْ رُقَيَّةُ ونَشَجَت، ثُمَّ صَبَرَتْ عَلَى قَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهِ.

الهِجْرَةُ إِلَى يَثْرِبَ

ولَمْ يَطُلْ بَقَاؤُهَا بِمَكَّةَ، فَقَد هَاجَرَ المُسْلِمُونَ إِلَى يَثْرِبَ وهَاجَرَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وفِي المَدِينَةِ وَضَعَتْ رُقَيَّةُ طِفْلَهَا «عَبْدَ اللَّهِ» يَمْلَأُ عَلَيْهَا دُنْيَاهَا الجَدِيْدَةَ أُنْسَاً وبَهْجَةً، وعَوَّضَهَا عَمَّا لَقِيَتْ فِي مَاضِي الأَيَّامِ مِنْ لَوْعَةٍ وعَذَابٍ ومُصَابٍ.

ولَكِنَّ المُؤْمِنَ مُمْتَحَنٌ مُبْتَلَى...

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ (ٱلمُلْك: 2).

فَبَيْنَمَا كَانَ الوَلِيدُ الصَّغِيرُ نَائِمَاً فِي مَهْدِهِ نَقَرَهُ دِيْكٌ فِي وَجْهِهِ، فَتَسَمَّمَ ومَاتَ بَعْدَ أَيَّامٍ، فَتَرَنَّحَتْ رُقَيَّةُ تَحْتَ وَطْأَةِ المُصَابِ، ووَقَعَتْ فَرِيْسَةَ الحُمَّى.

فَلَازَمَهَا الزَّوجُ الحَنُونُ الرَّفِيقُ عُثْمَانُ رضي الله عنه يُمَرِّضُهَا ويَرْعَاهَا، ويَقُومُ عَلَى شُؤُونِهَا، ويَدْعُو اللهَ تَعَالَى أَن يُخَفِّفَ عَنْهَا مَا بِهَا، ويُذْهِبَ عَنْهَا البَأْس.

الوَفَاةُ

وتَنَاهَى إِلَى سَمْعِ عُثْمَانَ رضي الله عنه صَوْتُ الدَّاعِي إِلى الجِهَادِ، يِسْتَنْفِرُ الأَنْصَارَ والمُهَاجِرِيْنَ لِلتَّصَدِّي لِقَافِلَةِ قُرَيْشٍ الآيِبَةِ مِنَ الشَّامِ، فَأَرَادَ الخُرُوجَ مَعَهُمُ اسْتِجَابَةً لأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَكِنَّهُ ﷺ أَمَرَهُ بِالبَقَاءِ قَرِيْبَاً

مِنْ زَوجَتِهِ المَرِيْضَةِ يُوَاسِيْهَا ويَخْدُمُهَا.

واشْتَدَّ الصِّرَاعُ بَيْنَ المَوتِ والحَيَاةِ، ثُمَّ رَفَّتْ رُوحُ رُقَيَّةَ عَلَى شَفَتَيْهَا وهِيَ تُحَشْرِجُ، ثُمَّ أَطْبَقَتْ جَفْنَيْهَا وَغَابَتْ عَن الوَعِي.

وبَيْنَمَا كَانَ عُثْمَانُ رضي الله عنه الزَّوجُ المَفْجُوْعُ بَأَعَزِّ زَوجَةٍ وحَبِيبَةٍ يَلْثُمُ جَبِيْنَهَا وأَنَامِلَهَا ويُغَطِّيْ وَجْهَهَا، كَانَ صَوْتُ البَشِيْرِ القَادِمِ مِنَ «بَدْرٍ» يُعْلِنُ انْتِصَارَ المُؤْمِنِينَ.

الأَبُ الثَّاكِلُ

ودَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ عُثْمَانَ وقَدْ هَزَّهُ نَبَأُ وَفَاةِ رُقَيَّةَ رضي الله عنها وتَقَدَّمَ مِنْهَا يُوَدِّعُهَا وقَدْ ظَهَرَ الأَسَى فِي عَيْنَيْهِ والحُزْنُ فِي سِيمَاهُ، وانْثَنَى بِلُطْفٍ ورِقَّةٍ عَلَى فَاطِمَةَ التِي كَانَتْ قَد أَكَبَّتْ عَلَى مَضْجَعِ أُخْتِهَا رُقَيَّةَ تَبْكِيهَا، فَرَفَعَهَا بِتَؤُدَةٍ ولِيْنٍ، ومَسَحَ دُمُوعَهَا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ.

عِنْدَئِذٍ عَلَا نَشِيْجُ النِّسْوَةِ الحَاضِرَاتِ، فَأَرَادَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنْ يَمْنَعَهُنَّ بِسَوْطِهِ، فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وقَالَ لَهُ:

ـ مَهْمَا يَكُنْ مِنَ العَيْنِ والقَلْبِ فَمِنَ اللهِ والرَّحْمَةِ، ومَهْمَا يَكُنْ مِنَ اليَدِ واللِّسَانِ فَمِنَ الشَّيْطَانِ.

الدَّفْنُ

وصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ الأَبُ المَفْجُوعُ عَلَى اِبْنَتِهِ، وشَيَّعَهَا حَتَّى وَارَاهَا الثَّرَى الطَّيِّبَ فِي البَقِيعِ الطَّاهِرِ، وعَادَ إِلَى البَيْتِ والمَسْجِدِ ... يُتَابِعُ جِهَادَهُ فِي أَدَاءِ الرِّسَالَةِ ...

رَضِيَ اللهُ عَنْ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ رُقَيَّةَ ذَاتِ الهِجْرَتَيْنِ، وزَوجَةِ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَ وجَزَاهَا اللهُ عَنْ إِيْمَانِهَا وجِهَادِهَا وبَلَائِهَا أَحْسَنَ الجَزَاءِ وأَوْفَاهُ.

❊ ❊ ❊

صَفيّة بِنتُ عَبدِ المطلبِ

عمة رسول الله ﷺ

نَسَبُهَا ونَشْأَتُهَا

هِيَ: صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ قُرَشِيَّةٌ هَاشِمِيَّةٌ.

وأُمُّهَا: هَالَةُ بِنْتُ وَهْبٍ.

نَشَأَتْ فِي بَيْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ سَيِّدِ قُرَيْشٍ وزَعِيمِهَا بِلَا مُنَازِعٍ، وقَائِدِهَا ورَائِدِهَا، صَاحِبِ السُّؤْدَدِ والمَجْدِ والشَّرَفِ، حَكِيمِ مَكَّةَ ورَأْسِ الأَمْرِ فِيْهَا، كَمَا اجْتَمَعَتْ لَهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى كُلِّ تِلْكَ الأَمْجَادِ سِقَايَةُ الحَاجِّ.

ولَقَدْ تَأَثَّرَتْ صَفِيَّةُ بِكُلِّ تِلْكَ العَوَامِلِ، ومِن خِلَالِهَا تَكَوَّنَتْ شَخْصِيَّتُهَا القَوِيَّةُ النَّافِذَةُ، فَكَانَتْ فَصِيحَةً بَلِيْغَةً، قَارِئَةً عَالِمَةً، شُجَاعَةً فَارِسَةً، تَمْتَطِيْ صَهْوَةَ الخَيْلِ كَأَبْرَعِ الفُرْسَانِ، وتُقَاتِلُ بِالسَّيفِ والرُّمْحِ كَأَمْهَرِ الشُّجْعَانِ.

وفَاةُ عَبدِ المُطَّلِبِ

ومَا كَانَتْ أَشَدُّ فَاجِعَةِ صَفِيَّةَ بِفَقْدِ والِدِهَا العَظِيمِ، فَبَكَتْ وحَزِنَت وتَأَثَّرَتْ وفَاضَ لِسَانُهَا بِرِثَاءِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا

فَقَالَتْ:

أَرِقْتُ بِصَوْتِ نَائِحَةٍ بِلَيْلٍ
عَلَى رَجُلٍ بَقَارِعَةِ الصَّعِيدِ
فَفَاضَتْ عِنْدَ ذَلِكُمُ دُمُوعِي
عَلَى خَدِّي كَمُنْحَدَرِ الغَرِيْدِ
عَلَى رَجُلٍ كَرِيْمٍ غَيْرِ وَغْلٍ
لَهُ الفَضْلُ المُبِيْنُ عَلَى العَبِيدِ

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ صَفِيَّةُ أَنْ اِقْتَرَنَتْ بِأَحَدِ وُجَهَاءِ مَكَّةَ هُوَ «الحَارِثُ بنُ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ»، ولَكِنَّهُ مَاتَ ولَم تُعَقِّبْ مِنْهُ، فَتَزَوَّجَهَا «العَوَّامُ بنُ خُوَيْلِدِ بنِ أَسَدٍ» فَوَلَدَتْ لَهُ: الزُّبَيْرَ، والسَّائِبَ، وعَبْدَ الكَعْبَةِ.

إِسْلَامُهَا

وحِينَ أَشْرَقَتْ مَكَّةُ بِنُورِ الإِسْلَامِ، وشُرِّفَتْ بِدَعْوَةِ سَيِّدِ الأَنَامِ، ابْنِ

أَخِيْهَا الأَمِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانَتْ صَفِيَّةُ مِنْ أَوَائِلِ الذِينَ آمَنُوْا بِهِ وصَدَّقُوْا بِرِسَالَتِهِ واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ مَعَهُ، وكَانَ قَدْ سَبَقَهَا إِلَى ذَلِكَ اِبْنُهَا الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ رضي الله عنه.

المُهَاجِرَةُ

هَاجَرَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها إِلَى المَدِيْنَةِ مَعَ وَلَدِهَا الزُّبَيْرَ، وأَقَامَتْ هُنَاكَ تَعِيْشُ أَهَمَّ أَدْوَارِ وفُصُولِ تَارِيْخِ الإِسْلَامِ، وقَدْ شَارَكَتْ فِي صُنْعِهِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ.

المُجَاهِدَةُ

لَمْ تَذْكُرِ المَصَادِرُ التَّارِيْخِيَّةُ شُهُودَ صَفِيَّةَ لِيَومِ «بَدْرٍ»، ولَيْسَ ذَلِكَ بِمُسْتَغْرَبٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ ذَلِكَ اليَوْمَ اِمْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ المُسْلِمِيْنَ، لِأَنَّ خُرُوْجَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المَدِيْنَةِ يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لِقِتَالٍ أَو حَرْبٍ، و لَكِنِ اِعْتِرَاضاً لِقَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ العَائِدَةِ مِنَ الشَّامِ.

أَمَّا يَومَ أُحُدٍ فَقَدْ كَانَتْ فِي طَلِيْعَةِ النِّسْوَةِ اللَّوَاتِيْ خَرَجْنَ لِخِدْمَةِ المُجَاهِدِيْنَ، وتَحْمِيْسِهِنَّ لِلْجِهَادِ، و مُدَاوَاةِ الجَرْحَى.

ولَمَّا انْهَزَمَ المُسْلِمُونَ بَعْدَ أَنْ خَالَفَ الرُّمَاةُ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالثَّبَاتِ،

سَوَاءً كَانَ النَّصْرُ أَمْ كَانَتِ الهَزِيْمَةُ، وانْفَضَّ أَكْثَرُ النَّاسِ عَن رَسُولِ اللهِ، ولَمْ يَبْقَ حَوْلَهُ سِوَى القَلَائِلِ مِنْ أَصْحَابِهِ، قَامَتْ صَفِيَّةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وبِيَدِهَا رُمْحٌ تَضْرِبُ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ، الفَارِّيْنَ المُنْهَزِمِيْنَ، والأَعْدَاءَ المُشْرِكِيْنَ، وتَقُولُ لَهُمْ:

ـ اِنْهَزَمْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ !!!

فَلَمَّا رَآهَا رِسُولُ اللهِ ﷺ أَشْفَقَ عَلَيْهَا فَقَالَ لاِبْنِهَا الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ:

إِلْقَهَا فَأَرْجِعْهَا، لَا تَرَى مَا بِشَقِيقِهَا «الحَمْزَةِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ» فَلَقِيَهَا الزُّبَيْرُ فَقَالَ:

ـ يَا أُمَّه، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكِ أَنْ تَرْجِعِي...

فَقَالَتْ صَفِيَّةُ:

ـ ولِمَ ؟ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ مُثِّلَ بِأَخِي، وذَلِكَ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَلِيلٌ، فَمَا أَرْضَانَا بِمَا كَانَ مِن ذَلِكَ، لَأَحْتَسِبَنَّ ولَأَصْبِرَنَّ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وعَادَ الزُّبَيْرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ ﷺ:

ـ خَلِّ سَبِيْلَهَا ...

فَأَتَتْ صَفِيَّةُ الحَمْزَةَ فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ، وصَلَّتْ عَلَيْهِ، واِسْتَرْجَعَتْ واِسْتَغْفَرَتْ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللهَ ﷺ بِهِ فَدُفِنَ.

وكَانَتْ صَفِيَّةُ والحَمْزَةُ شَقِيْقَيْنِ مِنْ أُمٍّ واحِدَةٍ.

ويومَ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ "الأَحْزَابِ" قَامَتْ رضي الله عنها بِعِبْءٍ ثَقِيلٍ يَدُلُّ عَلَى شَجَاعَتِهَا وجُرْأَتِهَا، ودِفَاعِهَا عَنْ دِينِ اللهِ، وحَمِيَّتِهَا فِي سَبِيلِهِ.

ولَقَد كَانَ مِن عَادَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِن المَدِينَةِ لِقِتَالِ عَدُوِّهِ رَفَعَ نِسَاءَهُ وأَزْوَاجَهُ، ونِسَاءَ المُؤْمِنِيْنَ إِلَى حِصْنِ «حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ» الأَنْصَارِيِّ، وكَانَ مِن أَحْصَنِ وأَمْنَعِ آكَامِ المَدِيْنَةِ.

وبَيْنَمَا النِّسْوَةُ فِي قَلَقِهِنَّ عَلَى المُسْلِمِيْنَ الذِيْنَ خَرَجُوْا لِمُلَاقَاةِ الأَحْزَابِ "قُرَيْشٍ وَغَطْفَانَ وَغَيْرِهُمَا" عِنْدَ الخَنْدَقِ، وخَوْفِهِنَّ مِنَ اليَهُوْدِ الذِينَ نَقَضُوْا عَهْدَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَتَرَقَّبْنَ بِحَذَرٍ وخِيْفَةٍ.

كَانَ رَجُلٌ مِنَ اليَهُوْدِ يَطِيْفُ بِالحِصْنِ، وكَانَ مِنْ بَنِيْ قُرَيْظَةَ الغَادِرِيْنَ المَاكِرِيْنَ، فَرَأَتْهُ صَفِيَّةُ رضي الله عنها فَقَالَتْ لِـ«حَسَّانَ» الذي لَمْ يَخْرُجْ لِلْقِتَالِ:

ـ يا حَسَّانُ إِنَّ هَذَا اليَهُوْدِيَ كَمَا تَرَى يَطِيْفُ بِالحِصْنِ، وإِنِّي واللهِ مَا آمَنُهُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى عَوْرَتِنَا اليَهُودَ الذِينَ هُمْ وَرَائَنَا، وقَدْ شُغِلَ عَنَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَصْحَابُهُ، فَانْزِلْ إِلَيْهِ واقْتُلْهُ.

فَقَالَ «حَسَّانُ» الذي عُرِفَ كَمَا يَدَّعِي البَعْضُ، بِالجُبْنِ والخَوَرِ:

ـ يَغْفِرُ اللهُ لَكِ يا بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، واللهِ لَقَدْ عَرَفْتِ مَا أَنَا بِصَاحِبِ هَذَا.

فَلَمَّا سَمِعَتْ صَفِيَّةُ كَلَامَ حَسَّانٍ وَرَأَتْ تَقَاعُسَهُ عَنْ نَجْدَتِهِنَّ، دَبَّتْ فِيهَا الحَمَاسَةُ فَقَامَت فَأَخَذَتْ عَمُوداً غَلِيظاً ثُمَّ نَزَلَتْ مِنَ الحِصْنِ، وفَتَحَتْ بَابَهُ عَلَى مَهْلٍ، وتَحَيَّنَتْ فُرْصَةَ غَفْلَةِ اليَهُودِيِّ وضَرَبَتْهُ بِالعَمُودِ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ضَرَبَاتٍ مُتَلَاحِقَةٍ فَقَتَلَتْهُ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى الحِصْنِ وقَالَتْ لِحَسَّانَ:

ـ يَا حَسَّانُ، أَمَّا الآنَ وقَدْ قَتَلْتُهُ فَانْزِلْ إِلَيْهِ فَاسْلُبْهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِيْ مِنْ سَلَبِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ وأَنَا امْرَأَةٌ.

فَقَالَ حَسَّانُ:

ـ مَالِي بِسَلَبِهِ حَاجَةٌ يَا بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ.

فِي خَيْبَرَ

وكَأَنِّي بِـ صَفِيَّةَ لَمْ تُفَوِّتْ فُرْصَةَ غَزَاةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا غَزَتْ مَعَهُ، وخَرَجَتْ لَا طَمَعَاً بِمالٍ أَو مَتَاعٍ أَو سَلَبٍ، ولكِنِ انْتِصَاراً وَذَوداً عَنْ دِيْنِ اللهِ ورِسَالَةِ ابنِ أَخِيْهَا ﷺ.

فَلَمَّا كَانَ يَومُ خَيْبَرَ انْطَلَقَتْ مَعَ بَعْضِ النِّسْوَةِ المُسْلِمَاتِ المُؤْمِنَاتِ يَشْدُدْنَ أَزْرَ المُجَاهِدِيْنَ، واتَّخَذَتْ قَرِيْباً مِنْ مِيْدانِ المَعْرَكَةِ مَعَ «كُعَيْبَةَ بِنْتِ سَعْدٍ» الأَسْلَمِيَّةِ خَيْمَةً يُدَاوِيْنَ بِهَا جِرَاحَاتِ المُصَابِيْنَ ويُسْعِفْنَهُمْ، ويَقُمْنَ عَلَى خِدْمَتِهِمْ.

ولِهَذَا جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِهَؤُلَاءِ المُجَاهِدَاتِ حَظًّا ونَصِيْبًا مِمَّا أَفَاءَ اللهُ علَيْهِ مِنْ مَغَانِمِ اليَهُودِ وأَسْلَابِهِمْ، ولَقَدْ خَصَّ صَفِيَّةَ رضي الله عنها بِحَظٍّ وَافِرٍ، وقِسْطٍ كَبِيْرٍ.

رِثَاؤُهَا لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ

وحِينَ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى كَانَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها مِنْ أَكْثَرِ أَهْلِهِ ونِسَاءِ المُؤْمِنِيْنَ جَزَعًا وحُزْنًا.

كَانَتْ رضي الله عنها تَكْبُرُهُ بِأَعْوَامٍ، عَرَفَتْهُ صَغِيْرًا فَأَحَبَّتْهُ، وعَاشَرَتْهُ كَبِيْرًا شَابًّا فَأُعْجِبَتْ بِهِ، وعَاصَرَتْهُ نَبِيًّا ورَسُولًا فَصَدَّقَتْ بِدَعْوَتِهِ و آمَنَتْ بِرِسَالَتِهِ ، وعَايَشَتْهُ مُجَاهِدًا غَازِيًا فَآزَرَتْهُ وكَافَحَتْ مِنْ دُوْنِهِ.

ولَقَدْ كَانَتْ رضي الله عنها مُطَّلِبِيَّةً تَعْتَزُّ بِنَسَبِهَا وبِأَمْجَادِ أَهْلِهَا وعَشِيْرَتِهَا، فَأَرَّخَتْ لِذَلِكَ قَائِلَةً:

نَحْنُ حَفَرْنَا لِلْحَجِيجِ زَمْزَمْ سُـقْيَا نَبِيِّ اللهِ فِي المَحْرَمْ

رَكْضَةُ جِبْرِيْلَ ولَمَّا يُفْطَمْ.

وإِذَا مَا فَاخَرَتْ رضي الله عنها قُرَيْشًا، فَاخَرَتْهَا بِالنُّبُوَّةِ التِي ظَهَرَتْ فِي بَنِيْ هَاشِمٍ دُوْنَ غَيْرِهِمْ، وبِالسِيَادَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِمْ.

الوَفَاةُ

وعَاشَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً، يَعْرِفُ الخُلَفَاءُ والصَّحَابَةُ قَدْرَهَا ومَكَانَتَهَا.

ثُمَّ تُوُفِّيَتْ رضي الله عنها فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه سَنَةَ عِشْرِينَ، وقَدْ بَلَغَتْ مِنَ العُمْرِ نَيِّفاً وسَبْعِينَ سنَةً، وصَلَّى عَلَيْهَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، ودُفِنَتْ فِي البَقِيْعِ.

رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وشَقِيْقَةِ أَسَدِ اللهِ ورَسُولِهِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ المُؤْمِنَةِ المُبَايِعَةِ، المُجَاهِدَةِ الصَّابِرَةِ، الشَّاعِرَةِ الفَاضِلَةِ.

❊ ❊ ❊

زَيْنَبُ الكُبرَى

بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

نَسَبُهَا ونَشْأَتُهَا

وُلِدَتْ زَيْنَبُ رضي الله عنها قَبْلَ بِعْثَةِ وَالِدِهَا ﷺ بِعَشْرِ سِنِيْنَ، وكَانَتْ بَاكُورةَ زَوَاجِهِ مِنْ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ «خَدِيْجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ» رضي الله عنها، وهِيَ أَكْثَرُ أَخَوَاتِهَا شَبهاً بِأَبِيْهَا ﷺ.

وهِيَ تَنْتَسِبُ إِلَى أَشْرَفِ أَبَوَيْنِ فِي الوُجُودِ، فَوَالِدُهَا هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ المَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلعَالَمِيْنَ، إِمَامُ الأَنْبِيَاءِ، وقُدْوَةِ المُرْسَلِينَ، وقَائِدِ الغُرِّ المُحَجَّلِيْنَ، عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ الأَبْرَارِ الطَّاهِرِيْنَ أَزْكَى الصَّلاَةِ وأَطْيَبُ التَّسْلِيْمِ. وأُمُّهَا هِيَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ العَالَمِيْنَ، ذَرْوَةُ قُرَيْشٍ نَسَباً وشَرَفاً وفَضْلاً وعِلْماً، زَوْجَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللهِ إِلَى اللهِ، مُحَمَّدٍ ﷺ.

نَشْأَتُهَا

خَرَجَت إِلَى الدُّنْيَا فِي أَكْرَمِ مَنْبَتٍ، أَنْبَتَتْهَا سُلَالَةٌ قُرَشِيَّةٌ عَرِيقَةٌ أَصِيْلَةٌ، مَا عَرَفَ العَرَبُ أَعَزَّ مِنْهَا ولَا أَنْقَى، واسْتَقْبَلَهَا بَيْتٌ كَرِيْمُ البُنْيَانِ طَاهِرُ

الأَرْدَانِ، اِسْتِقْبَالاً لَمْ تَظْفَر بِمِثْلِهِ تِرْبٌ لَهَا، لأَنَّهَا كَانَتْ ثَمَرَةَ زَوَاجٍ سَعِيْدٍ قَامَ عَلَى الحُبِّ المُتَبَادَلِ، والمَوَدَّةِ الخَالِصَةِ، والاِحْتِرَامِ العَظِيمِ، ولَقَدْ رَأَى فِيْهَا الأَبُ الكَرِيْمُ ﷺ صُورَةً لَطِيْفَةً مِنْ زَوْجَتِهِ الحَبِيْبَةِ، التِي أَنْسَتْهُ بِحَنَانِهَا الغَامِرِ وحَدَبِهَا الكَبِيْرِ، كُلَّ مَا عَانَاهُ فِي طُفُوْلَتِهِ مِنْ قَسْوَةِ اليُتْمِ.

وكَانَتِ الأُمُّ العَظِيْمَةُ خَدِيجَةُ تَرَى فِيهَا فِلْذَةً حَيَّةً مِنْ زَوجِهَا الحَبِيبِ العَزِيزِ، الذي بَهَرَهَا مُنْذُ عَرَفَتْهُ بَجَلَالِ طَلْعَتِهِ، وأَسَرَهَا بِمَهَابَتِهِ ونُبْلِ شَخْصِيَّتِهِ، وفَتَنَهَا بِجَمِيْلِ خِصَالِهِ، فَتَفَتَّحَ لَهُ قَلْبُهَا المُغْلَقُ بِسَبَبِ زَوَاجٍ سَابِقٍ غَيْرِ مُوَفَّقٍ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى الحَيَاةِ مِنْ جَدِيْدٍ.

ولَقَدْ كَانَتْ زَيْنَبُ رضي الله عنها بِإِطْلَالَتِهَا الأُولَى عَلَى بَيْتِ النُّبُوَةِ رَيْحَانَةً تَفِيضُ عَلَيْهِ طِيْبَاً عَابِقَاً، وبَهْجَةً غَامِرَةً.

وعُهِدَ بِهَا عَلَى عَادَةِ أَشْرَافِ العَرَبِ إِلَى المُرْضِعَاتِ، فَلَمَّا أَخَذَتْ حَظَّهَا وَنَصِيْبَهَا، تَلَقَّفَهَا البَيْتُ الكَرِيْمُ ثَانِيَةً بِشَوْقٍ بَالِغٍ، وَعَطْفٍ غَامِرٍ.

ولَمَّا شَبَّتْ بَادَرَتْ أُمُّهَا بِتَدْرِيْبِهَا عَلَى المُشَارَكَةِ فِي عِبْءِ المَنْزِلِ، وأَخَذَتْهَا عَلَى التَّمْرِيْنِ مَأْخَذَ الجِدِّ، وحَاوَلَتْ أَنْ تُبْعِدَهَا قَدْرَ الإِمْكَانِ عَنْ عَبَثِ الطُّفُوْلَةِ ولَهْوِهَا، فَكَانَتْ ـ وهِيَ لَا تَزَالُ فَتَاةً صَغِيْرَةً ـ لِشَقِيْقَتِهَا الصُّغْرَى «فَاطِمَةَ» رضي الله عنها نِعْمَ المُرَبِّيَةُ والرَّاعِيَةُ الصَّالِحَةُ، تَرْعَى شُؤُونَهَا،

وتُلَاعِبُهَا وَتَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهَا.

وحِينَ اكْتَمَلَتْ أُنُوثَتُهَا، تَقَدَّمَ لِخِطْبَتِهَا اِبْنُ خَالَتِهَا «أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيْعِ» الذي كَانَ كَثِيْرَ التَعَلُّقِ بِخَالَتِهِ خَدِيجَةَ التِي كَانَتْ تُنْزِلُهُ مَنْزِلَ الاِبْنِ وتَغْمُرُهُ بِعَطْفِهَا وَحَنَانِهَا.

وكَانَ أَبُو العَاصِ يَرى زَيْنَبَ كُلَّمَا جَاءَ إِلَى بَيْتِ خَالَتِهِ فَيُؤْخَذُ بِجَلَالِ مَرْآهَا، وعُذُوبَةِ حَدِيْثِهَا، وذَكَاءِ مَلَامِحِهَا، ولُطْفِ طِبَاعِهَا، وتَفَتُّحِ أُنُوْثَتِهَا...

وكَانَتْ زَيْنَبُ رضي الله عنها تَرْتَاحُ إِلَى مَحْضَرِهِ، ويَطِيْبُ لَهَا أَنْ تُصْغِي إِلَى أَخْبَارِهِ ومَا فِيْهَا مِنْ طَرَائِفَ وغَرَائِبَ.

وهَكَذَا تَفَتَّحَ القَلْبَانِ وأَحَسَّا لَمْسَةَ الحُبِّ الرَّقِيْقَةَ السَّاحِرَةَ تُحَرِّكُ وِجْدَانَهُمَا وعَاطِفَتَهُمَا.

تَقَدَّمَ أَبُو العَاصِ لِخِطْبَةِ زَيْنَبَ فَأَحْسَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِقَاءَهُ، وأَصْغَى إِلَيْهِ بِكُلِّ جَوَارِحِهِ، ولَكِنَّهُ اِسْتَأْذَنَهُ فِي سُؤَالِ صَاحِبَةِ الشَّأْنِ، ثُمَّ أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى اِبْنَتِهِ وقَالَ لَهَا:

ـ بُنَيَّتِي زَيْنَبُ، إِنَّ ابنَ خَالَتِكِ أَبَا العَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ ذَكَرَ اسْمَكِ.

فَسَكَتَتْ حَيَاءً ولَمْ تُحِرْ جَوَابَاً، لَكِنَّ خَفَقَاتِ القَلْبِ الطَّاهِرِ، وإِغْضَاءَ النَّظَرِ حَيَاءً كَانَا خَيْرَ جَوَابٍ.

فَعَادَ ﷺ إِلَى أَبِي العَاصِ وصَافَحَهُ مُهَنِّئاً وَدَاعِياً ومُبَارِكاً.

فِي بَيْتِ الزَوْجِيَّةِ

وفِي بَيْتِ الزَّوجِيَّةِ أَظَلَّتْ زَيْنَبَ وزَوجَهَا أبَا العَاصِ سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ، وحُبٌّ مُتَبَادَلٌ، فَنَهَلَا مِنْ رَحِيقِ الوِدِّ أَصْفَى شَرَابٍ وأَنْقَاهُ.

وكَانَ أَبُو العَاصِ بِحُكْمِ تِجَارَتِهِ ومَكَانَتِهِ فِي قَوْمِهِ كَثِيْرَ السَّفَرِ، يَغْدُو إِلَى الشَّامِ فَيَغِيْبُ أَيَّامَاً ولَيَالِيَ، فَتُعَانِيْ زَيْنَبُ مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ، ويُعَانِي هُوَ مِنْ أَلَمِ البُعَادِ.

وَضَعَتْ زَيْنَبُ لِأَبِي العَاصِ وَلَدَيْنِ: «عَلِيًّا، وأُمَامَةَ» فاكْتَمَلَتْ بِهِمَا فِرحَةُ البَيْتِ، وامْتَلَأَتْ جَوَانِبُهُ سَعَادَةً وهَنَاءَةً.

ولَكِن...

وفِي ذَاتِ يَومٍ، وبَينَمَا كَانَ أَبُو العَاصِ فِي إِحْدَى رِحْلَاتِهِ حَدَثَ الأَمْرُ العَظِيمُ ونُبِّئَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالرِسَالَةِ.

وَتَابَعَتْ زَيْنَبُ أَبَاهَا، شَأَنَ أُمِّهَا وأَخَوَاتِهَا وأَهلِهَا، ولَمَّا عَادَ الزَّوجُ مِنْ رِحْلَتِهِ حَدَّثَتْهُ بِمَا حَصَلَ أَثْنَاءَ غِيَابِهِ.

مُفْتَرَقُ الطَّرِيْقِ

وقَالَ أَبُو العَاصِ لِزَوْجَتِهِ الحَبِيْبَةِ:

ـ واللهِ مَا أَبُوكِ عِنْدِي بِمُتَّهَم، ولَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَسْلُكَ مَعَكِ يَا حَبِيْبَةُ فِي شِعْبٍ وَاحِدٍ، لَكِنِّي أَكْرَهُ لَكِ أَنْ يُقَالَ إِنَّ زَوجَكِ خَذَلَ قَوْمَهُ وكَفَرَ بِآلِهَةِ آبَائِهِ إِرْضَاءً لِامْرَأَتِهِ، فَهَلَّا قَدَّرْتِ وعَذَرْتِ !!

وهَمَّا بِعِنَاقٍ ... ثُمَّ مَالَبِثَا أَنْ تَرَاجَعَا فَجْأَةً، وكَانَّ حَاجِزاً قَدْ قَامَ بَيْنَهُمَا فَحَالَ دُونَ بُغْيَتِهِمَا، وانْكَفَآ...

ولَم يَنَامَا لَيْلَتَهُمَا، ولَا اللَّيَالِيَ التِي بَعْدَهَا، وسَادَ جَوَّ المَنْزِلِ قَلَقٌ وهَمٌّ وحَذَرٌ، وانْقَلَبَ النَّعِيمُ إِلَى جَحِيْمٍ.

المُؤْمِنَةُ الصَّابِرةُ

اِشْتَدَّ أَذَى الكُفَّارِ والمُشْرِكِيْنَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وانْفَرَدَ عَلَيْهِ السَّلامُ بِأَهْلِهِ وبِالمُؤْمِنِيْنَ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبَ سِنِيْنَ عَدَدًا، قَد فُرِضَتْ عَلَيْهِمُ المُقَاطَعَةُ والمُبَاعَدَةُ، فكَانَتْ زَيْنَبُ رضي الله عنها تَأْلَمُ وتَحْزَنُ وتَبْكِي أَحْيَانَاً، ثُمَّ تَصْبِرُ عَلَى قَضَاءِ الله ، أَمَلاً بِالفَرَجِ والضِّيَاءِ، بَعْدَ لَيلٍ دَامِسٍ مِنَ العَذَابِ...

وَقَدْ رأَى رسُولُ اللهِ مِنَ المُشْرِكِينَ كَثِيرَ الأَذَى، وعَظِيْمَ الشِّدَّةِ، خُصُوصَاً إِذَا ذَهبَ إِلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ البَيْتِ، وكَانَ مِنْ أَعْظَمِهِمْ أَذَى لِرَسُولِ اللهِ جَمَاعَةٌ سُمُّوْا لِكَثْرَةِ أَذَاهُمُ بِالمُسْتَهْزِئِيْنَ، وأَوَّلُهُمْ وأَشَدُّهُمْ أَبُو جَهْلٍ عَمْرُو بنُ هِشَامٍ بنِ المُغِيْرَةِ المَخْزُومِيِّ القُرَشِيِّ.

ومَاتَتْ خَدِيجَةُ الأُمُّ الرَّؤُومُ...

ومَاتَ أَبُو طَالِبٍ العَمُّ الحَنُونُ...

واسْتَبَدَّتْ بِقُرَيْشٍ نَزْعَةُ الجَهْلِ والشِّرْكِ والإِيْذَاءِ.

فَرَاحَ الأَلَمُ يُمَزِّقُ قَلْبَ زَيْنَبَ رضي الله عنها ويَفْرِي كَبِدَهَا.

الهِجْرَةُ

وأَصْبَحَتْ ذَاتَ يومٍ، وَقَدْ طَبَّقَ أَجْوَاءَ مَكَّةَ خَبَرُ مُطَارَدَةِ قُرَيْشٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الذِي خَرَجَ مِن مَكَّةَ إِلَى يَثْرِبَ مُهَاجِرَاً، فَلَمَّا عَلِمَتْ بِوُصُوْلِهِ سَالِمَاً اِطْمَأَنَّتْ وسَعِدَتْ...

وَبَعْدَ أَيَّامٍ جَاءَ مِنْ يَثْرِبَ مُوفَدٌ فَصَحِبَ أُخْتَيْهَا «فَاطِمَةَ، وأُمَّ كُلْثُومٍ» وبَقِيَتْ زَيْنَبُ فِي مَكَّةَ فِي مَنْزِلِ زَوْجِهَا أَبِي العَاصِ تَنْتَظِرُ قَضَاءَ اللهِ وأَمْرَهُ.

الأَسِيْرُ

وخَرَجَ أَبُو العَاصِ مَعَ قُرَيْشٍ فِي نَفِيْرِهَا لِحِمَايَةِ تِجَارَتِهَا التِي تَعَرَّضَتْ لِتَهْدِيدِ المُسْلِمِيْنَ وَدَارَتْ رَحَى القِتَالِ، وانْتَصَرَ المُسْلِمُونَ، وَوَقَعَ أَبُو العَاصِ أَسِيْرَاً.

ولَمَّا اِسْتَعْرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الأَسْرَى نَحَّى أَبَا العَاصِ جَانِبَاً وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ.

ـ اِسْتَوْصُوْا بِالأَسْرَى خَيْرَاً

وكَانَتْ زَيْنَبُ فِي وَضْعٍ لَا تُحْسَدُ عَلَيْهِ، وحِيْنَ بَدَأَتْ عَمَلِيَّةُ فِدَاءِ الأَسْرَى، كَانَتْ رضي الله عنها رَاغِبَةً فِي عَوْدَةِ زَوجِهَا إِلَيْهَا مُسْتَثِيْرَةً هِمَّةَ والِدِهَا العَظِيْمِ لِذَلِكَ، فَاسْتَخْرَجَتْ مِنَ صُنْدُوقِ ثِيَابِهَا وحُلِيِّهَا قِلَادَةً كَانَتْ لِأُمِهَا خَدِيجَةُ رضي الله عنها وأَهْدَتْهَا إِلَيْهَا يَومَ عُرْسِهَا، ثُمَّ حَمَلَتْهَا لِشَقِيقِ زَوْجِهَا «عَمْرِو بنِ الرَّبِيْعِ» كَي يُقَدِّمَهَا فِدْيَةً عَنْ زَوجِهَا.

ولَمْ يَكَدْ ﷺ يَرَى تِلكَ القِلَادَةَ حَتَّى رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيْدَةً، وخَفَقَ القَلْبُ الكَبِيْرُ لِلْذِكْرَى العَظِيْمَةِ.

وأَطْرَقَ الحَاضِرُنَ مِنَ الصَّحَابَةِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ وقَدْ أُسِرُوْا بِجَلَالِ المَوْقِفِ ورَوْعَتِهِ.

وَبعْدَ صَمْتٍ طَوِيلٍ قَالَ ﷺ :

ـ إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيْرَهَا وتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَا فَافْعَلُوْا !!!

فَقَالُوْا جَمِيعَاً:

ـ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

الفِرَاقُ

لَكِنَّ النّبِيَّ ﷺ أَوْصَى أَبَا العَاصِ أَنْ يُرْسِلَ زَيْنَبَ وَيَتْرُكَهَا فَإِنَّ الإِسْلَامَ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا.

وعَادَ أَبُو العَاصِ إِلَى مَكَّةَ فَاسْتَقْبَلَتْهُ زَيْنَبُ هَاشَّةً بَاشَّةً، فَرِحَةً مُرَحِّبَةً، وكَانَ هُوَ بَادِيَ الوُجُوْمِ ظَاهِرَ الحُزْنِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ جِئْتُكِ مُوَدِّعاً يَا زَيْنَبُ ...

وأَخْبَرَهَا بِمَا وَعَدَ أَبَاْهَا مِنْ رَدِّهَا إِلَيْهِ.

وعَلَى مَضَضٍ خَرَجَتْ زَيْنَبُ مِنْ مَكَّةَ وَوَدَّعَتْ أَبَا العَاصِ وَدَاعَاً مُؤَثِّرَاً، فَقَالَ لَهَا:

ـ مَهْمَا يَحْدُثْ يَا زَيْنَبُ فَسَأَبْقَى عَلَى حُبُّكِ مَا حَيِيْتُ وَفِيَّاً، وسَيَبْقَى طَيْفُكِ أَبَدَاً مِلْءَ هَذِهِ الدَّارِ التِي شَهِدَتْ أَحْلَى وَأَطْيَبَ أَيَّامِ حَيَاتِنَا ...

وَمَسَحَتْ زَيْنَبُ دُمُوْعَهَا المُتَرَقْرِقَةَ. وانْصَرَفَتْ.

ولَكِنَّ قُرَيْشاً تَصَدَّتْ لَهَا ومَنَعَتْهَا وأَعَادَتْهَا إِلَى مَكَّةَ، ورُوِّعَتْ رضي الله عنها بِمَا حَدَثَ لَهَا، وكَانَتْ حَامِلاً، فَنَزَفَتْ دَماً وَأَجْهَضَتْ، وَحَمَاهَا أَبُو العَاصِ عَنْدَهُ حَتَّى اِسْتَعَادَتْ قُوَّتَهَا وعَافِيَتَهَا، واْغْتَنَمَ يَوْماً غَفِلَتْ فِيهِ قُرَيْشٌ عَنْهَا، فَأَخْرَجَهَا بِصُحْبَةِ أَخِيْهِ «كِنَانَةَ بنِ الرَّبِيْعِ» حَتَّى أَبْلَغَهَا مَأْمَنَهَا عِنْدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ .

فِي الأَسْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً

خَرَجَ أَبُو العَاصِ إِلَى الشَّامِ فِي عِيْرٍ لِقُرَيْشٍ، وبَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ تِلْكَ العِيْرَ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنَ الشَّامِ، فَأَرْسَلَ «زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ» رضي الله عنه فِيْ مِائَةٍ وَسَبْعِيْنَ رَاكِباً فَلَقُوا العِيْرَ بِنَاحِيَةِ "العِيْصِ" فِي جُمَادَى الأُوْلَى سَنَةَ ستٍّ مِنَ الهِجْرَةِ، فَأَخَذُوْهَا وَمَا فِيْهَا مِنَ الأَثْقَالِ، وأَسَرُوا جَمَاعَةً مِمَّنْ كَانُوْا فِي حِرَاسَةِ القَافِلَةِ، مِنْهُمْ أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ.

وَدَخَلَ أَبُو العَاصِ عَلَى زَيْنَبَ مُسْتَجِيْراً فَأَجَارَتْهُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ الفَجْرَ قَامَتْ زَيْنبُ عَلَى بَابِ أَبِيْهَا مُسْتَشْفِعَةً وقَالَتْ:

ـ إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا العَاصِ بنَ الرَّبِيعِ ...

فَخَرَجَ ﷺ وقَالَ:

ـ أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ سَمِعْتُمْ مِمَّا سَمِعْتُ ؟

قَالُوْا: نَعَمْ.

قَالَ:

ـ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيءٍ مِمَّا كَانَ حَتَّى سَمِعْتُ الذِي سَمِعْتُمْ: «المُؤْمِنُونَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمُ يُجِيْرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ» وقَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَارَتْ.

فَلَمَّا انْصَرَفَ ﷺ إِلَى مَنْزِلِهِ دَخَلَتْ عَلَيْهِ زَيْنَبُ فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَى أَبِي العَاصِ مَا أُخِذَ مِنْهُ، فَفَعَلَ، وأَمَرَهَا أَنْ لَا يَقْرَبَهَا فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ مَا دَامَ مُشْرِكاً.

ورَجَعَ أَبُو العَاصِ إِلَى مَكَّةَ فَأَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ فِي نَادِيْ قُرَيْشٍ وعَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ، وانْصَرَفَ إِلَى المَدِيْنَةِ، مُسْلِمَاً مُهَاجِرَاً، ورَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ، فَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ، واكْتَمَلَ العِقْدُ، وخَيَّمَ عَلَى الدَّارِ مَا كَانَ مِنْ قَبْلُ مِنْ حُبُورٍ وسُرُوْرٍ وسَعَادَةٍ.

الفِرَاقُ الأَبَدِيُّ

مَضَى عَلَى الزَّوْجَيْنِ عَامٌ وَاحِدٌ فِي المَدِيْنَةِ يَعُبَّانِ مِنَ السَّعَادَةِ والفَرْحَةِ، ثُمَّ كَانَ الفِرَاقُ الذِي لَا لِقَاءَ بَعْدَهُ، إِذْ مَاتَتْ زَيْنَبُ رضي الله عنها فِي مُسْتَهَلِّ السَنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ مُتَأَثِّرَةً بِمَرَضِ النَّزْفِ الذي لَازَمَهَا مُنْذُ هِجْرَتِهَا.

وبَكَاهَا أَبُو العَاصِ بُكَاءَاً حَارَّاً، وَتَشَبَّثَ بِهَا حَتَّى أَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، وجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَامِعَ العَيْنِ مَحْزُونَ الفُؤَادِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ اِغْسِلْنَهَا ثَلَاثَاً ...واجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كَافُورَاً، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، وشَيَّعَهَا إِلَى المَقَرِّ الأَخِيْرِ.

وعَادَ أَبُوْ العَاصِ إِلَى وَلَدَيْهِ: «عَلِيٍّ، وأُمَامَةَ» يُقَبِّلُهُمَا ويُبَلِّلُهُمَا بِدُمُوعِهِ مُسْتَذْكِرَاً وَجْهَ الحَبِيْبَةِ الغَائِبَةِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وجَزَاهَا بِمَا صَبَرَتْ وكَافَحَتْ وجَاهَدَتْ جَنَّةً وحَرِيْرَاً.

❊ ❊ ❊

أمّ كُلثوم

بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

(حبيسة الشِّعبِ)

لَئِنْ لَمْ تُهَاجِرْ أُمُّ كُلْثُوم رضي الله عنها إِلَى الحَبَشَةِ الهِجْرَةَ الأُولَى فَتُعَانِي مِنْ أَلَمِ البُعْدِ عَنِ الوَطَنِ، إِلَّا أَنَّهَا عَانَتْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الهِجْرَةِ والغُرْبَةِ، إِذْ حُبِسَتْ مَعَ المُسْلِمِيْنَ وبَنِي هَاشِمٍ فِيْ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ يَتَضَوَّرُونَ جُوْعَاً ومَسْغَبَةً وأَلَمَاً طِوَالَ ثَلَاثِ سِنِيْنَ، ذَاقُوْا خِلَالَهَا أَقْسَى مَا يَتَصَوَّرُهُ إِنْسَانٌ مِنْ مَتَاعِبِ القَطِيْعَةِ، وَجَفَاءِ المُعَامَلَةِ.

وِلَادَتُهَا وَنَشْأَتُهَا

بَرَزَتْ إِلَى الوُجُودِ طِفْلَةٌ جَدِيْدَةٌ لِـ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، مُمْتَلِئَةً مُكْتَنِزَةً، جَمِيْلَةَ المُحَيَّا، أَسِيْلَةَ الخَدَّيْنِ، فَسَمَّاهَا أَبُوهَا أُمَّ كُلْثُوم.

ـ ثُمَّ نَمَتْ و دَرَجَتْ فَكَانَتْ ـ كَمَا عَلِمتَ ـ نِعْمَ القَرِيْنُ لِأُخْتِهَا «رُقَيَّةُ» وكَأَنَّهُمَا تَوْأَمٌ.

خُطِبَتَا إِلَى وَلَدَيْ «أَبِي لَهَبٍ» مَعَاً، ثُمَّ رُدَّتَا مَعَاً، ولَقَدْ كَانَ خَيْرَاً لَهُمَا.

إِذ نَجَتْ أُمُّ كُلْثُومَ رضي الله عنها مِنْ نَكَدِ العَيْشِ مَعَ حَمَّالَةِ الحَطَبِ، كَمَا نَجَتْ أُخْتُهَا الحَبِيْبَةُ رُقَيَّةُ التِي مَا لَبِثَتْ أَنْ تَزَوَّجَهَا الشَّرِيْفُ العَفِيْفُ «عُثْمَانُ بنُ عَفَّانٍ» رضي الله عنه، وهَاجَرَتْ مَعَهُ إِلَى الحَبَشَةِ.

فِي قَلْبِ المَعْرَكَةِ

بَقِيَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ رضي الله عنها مَعَ أُخْتِهَا الصُّغْرَى «فَاطِمَةَ» فِي بَيْتِ أَبِيْهِمَا الرَّسُولِ بِمَكَّةَ، تُشَارِكَانِ «خَدِيْجَةَ» أُمَّ المُؤْمِنِيْنَ عِبْءَ الحَيَاةِ وَشَظَفَهَا، وتُخَفِّفَانِ عَنِ الوَالِدِ الكَرِيْمِ بِحُنُوِّهِمَا وعَطْفِهِمَا مَا يَلْقَاهُ مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ وسَفَهِهَا.

وعَلَى هَذَا فَقَد عَاصَرَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ رضي الله عنها أَشَدَّ فَتَرَاتِ الاِضْطِهَادِ وأَصْعَبَ ظُرُوفِ الدَّعْوَةِ، وأَقْسَى أَيَّامِ الجِهَادِ.

وبَلَغَ الجَهْلُ بِقُرَيْشٍ ذَرْوَتَهُ فَتَنَادَى الأَرْهَاطُ فِيْهَا واجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَرَّرُوا مُقَاطَعَةَ المُسْلِمِيْنَ وبَنِي هَاشِمٍ، مُقَاطَعَةً تُعَدُّ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ أَقْصَى أَلْوَانِ الحِرْمَانِ والحَرْبِ الاقْتِصَادِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ، وأَكَّدُوا ذَلِكَ بِكِتَابَةِ وثِيْقَةٍ "صَحِيْفَةٍ" عَلَّقُوهَا فِي الكَعْبَةِ.

فَخَرَجَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِأُسْرَتِهِ ومَنْ تَبِعَهُ إِلَى شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ، ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِيْ مَكَّةَ، وانْحَازَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ بَنُو هَاشِمٍ.

وهُنَاكَ عَاشُوا جَمِيْعَاً فِي ضِيْقِ الحِصَارِ حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ، وأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوَ ثَلَاثِ سِنِيْنَ، تَصِلُ إِلَيْهِم فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ الأَقْوَاتُ والأَطْعِمَةُ سِرًّا.

واللهُ خَيْرُ المَاكِرِيْنَ

وكَانَ «هِشَامُ بنُ عَمْرِو بنِ رَبِيْعَةَ العَامِرِيُّ» مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الذِينَ آلَمَهُمْ مَا يَلْقَى المُسْلِمُونَ مِنْ ظُلْمٍ وعَذَابٍ، فَكَانَ يَأْتِي لَيْلاً بِالبَعِيْرِ وقَدْ حَمَّلَهُ طَعَامًا، حَتَّى يَصِلَ بِهِ إِلَى أَوَّلِ الشِّعْبِ، وهُنَاكَ يَخْلَعُ مِقْوَدَهُ ثُمَّ يَضْرِبُهُ عَلَى جَنْبِهِ، فَيَنْطَلِقُ ويَدْخُلُ إِلَى بَنِيْ هَاشِمٍ وبَنِيْ عَبْدِ المُطَّلِبِ ...، فَيَتَلَقَّفُوْنَهُ وكَأَنَّهَا نِعْمَةُ السَّمَاءِ، قَدْ سَاقَهَا اللهُ إِلَيْهِمْ.

وكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ رضي الله عنها قَدْ دَخَلَتْ أَقْسَى تَجْرِبَةٍ وأَعْظَمَ اِمْتِحَانٍ، فَوَالِدُهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيْ هَمٍّ وحُزْنٍ وأَلَمٍ، وأُخْتُهَا زَيْنَبُ مَعَ زَوْجِهَا أَبُو العَاصِ فِي مَكَّةَ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ حَولاً ولَا طَوْلاً، ورَفِيقَةُ الصِبَا والعُمْرِ رُقَيَّةُ فِي بِلادٍ نَائِيَةٍ بَعِيدَةٍ، وأُمُّهَا خَدِيجَةُ أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ تُغَالِبُ المَرَضَ الشَّدِيدَ، لَا تَقْوَى عَلَى الحَرَكَةِ، والصَّغِيْرَةُ فَاطِمَةُ بِحَاجَةٍ إِلَى رِعَايَةٍ وعِنَايَةٍ.

لَقَدْ حَمَلَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ رضي الله عنها فِيْ تِلْكَ الآَونَةِ أَكْبَرَ المَسْؤُولِيَاتِ وأَعْظَمَهَا، فَكَانَتْ صَابِرَةً مُحْتَسِبَةً تُخَفِّفُ عَنِ الأَبِ الرَّسُولِ آلَامَهُ وأَحْزَانَهُ وتُوَاسِيْ الأُمَّ قَائِلَةً:

ـ لَا بَأْسَ عَلَيْكِ يَا أُمَّاهُ.

البُشْرَى

وحَضَرَ أَبُوْ طَالِبٍ إِلَى الشِّعْبِ وبَشَّرَ ابْنَ أَخِيْهِ بِفَكِّ الحِصَارِ، وتَمَزُّقِ الصَّحِيْفَةِ، وإِجْمَاعِ «هِشَامِ بنِ عَمْرٍو» و«زُهَيْرِ بنِ أُمَيَّةَ» و«المِطْعَمِ بنِ عَدِيٍّ» و«زَمْعَةَ بنِ الأَسْوَدِ» و«أَبِي البُخْتُرِيِّ بنِ هِشَامٍ» عَلَى الوُقُوْفِ إِلَى جَانِبِ بَنِي هَاشِمٍ وبَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ.

فَسُرَّ بِذَلِكَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ونَقَلَ النَّبَأَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وإِلَى المُسْلِمِيْنَ، وعَادُوْا جَمِيْعَاً إِلَى مَكَّةَ، وقَدْ زَادَهُمْ الحِصَارُ يَقِيْنَاً بِاللهِ، وزَادَتْهُمْ المِحْنَةُ تَقَرُّبَاً إِلَيْهِ تَعَالَى، وصَقَلَتْهُمْ التَّجْرِبَةُ وشَدَّتْ مِنْ إِيْمَانِهِمْ وعَزْمِهِمْ.

وَفَاةُ خَدِيْجَةَ رضي الله عنها

لَقَدْ أَنْهَكَ الحِصَارُ بَدَنَ السَّيِّدَةِ المُجَاهِدَةِ فَرَقَدَتْ فِي فِرَاشِهَا بِمَكَّةَ تَتَهَيَّأُ لِلِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ رُوْحُهَا أَنْ فَاضَتْ إِلَى بَارِئِهَا سُبْحَانَهُ، وتَحَلَّقَ مِنْ حَوْلِهَا: زَيْنَبُ، وأُمُّ كُلْثُومٍ، وفَاطِمَةُ يَتَزَوَّدْنَ مِنْهَا قَبْلَ الرَّحِيلِ.

وكَانَ ذَلِكَ فِي اليَومِ العَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ البِعْثَةِ، ودَفَنَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدَيْهِ الشَّرِيْفَتَيْنِ فِي حُفْرَتِهَا فِي الحُجُونِ، وعَادَ إِلَى البَيْتِ

مَحْزُونَاً، فَضَمَّ إِلَيْهِ أُمَّ كُلْثُومٍ وفَاطِمَةَ ووَاسَاهُمَا وخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا بِهِمَا مِنْ أَلَمِ المُصَابِ.

وكَبُرَتْ مَسْؤُولِيَّةُ أُمِّ كُلْثُومٍ فَأَضْحَتِ المَسْؤُولَةَ الأُوْلَى عَنِ البَيْتِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، وكَانَتْ نِعْمَ رَبَّةُ البَيْتِ المِثَالِيَّةُ، كَيْفَ لَا !! وهِيَ اِبْنَةُ سَيِّدَةِ نِسَاءِ العَالَمِينَ خَدِيْجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ.

الهِجْرَةُ

وهَاجَرَ المُسْلِمُونَ إِلَى يَثْرِبَ، وهَاجَرَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وكَانَتْ رِحْلَتُهُ أَعْظَمَ مُغَامَرَةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الإِنْسَانِيَّةِ فِي سَبِيْلِ اللهِ ونُصْرَةِ الحَقِّ، وبَقِيَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ وفَاطِمَةَ فِي مَكَّةَ حِرْصَاً عَلَى سَلَامَتِهِمَا.

وبَعْدَ وُصُولِهِ ﷺ أَرْسَلَ «زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ» إِلَى مَكَّةَ يَسْتَحْضِرُهُنَّ، فَخَرَجْنَ إِلَى الحُجُوْنِ، ووَدَّعْنَ قَبْرَ الأُمِّ الحَنُونِ، ثُمَّ مَضَيْنَ إِلَى يَثْرِبَ.

الزَّوَاجُ

مَضَى عَلَى الهِجْرَةِ عَامَانِ حَافِلَانِ بِجَلِيْلِ الأَحْدَاثِ وعِظَامِ الأُمُورِ، شَهِدَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ خِلَالَهَا عَوْدَةَ أَبِيهَا مُنْتَصِرَاً مِنْ «بَدْرٍ»، كَمَا شَهِدَتْ وَفَاةَ شَقِيْقَتِهَا الغَالِيَةِ رُقَيَّةَ مُتَأَثِّرَةً بِمَرَضِهَا.

وحِيْنَ أَهَلَّ العَامُ الثَالِثُ كَانَ الحُزْنُ لَا يَزَالُ جَدِيْدَاً عَلَيْهَا، ولَكِنَّهَا كَانَتْ تَلْمَحُ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ ﷺ يَأْتِي أَبَاهَا دَائِمَاً يَلْتَمِسُ عِنْدَهُ العَزَاءَ والنُّصْحَ والعَوْنَ عَنْ فَقِيدَتِهِ الغَالِيَةِ رُقَيَّةَ، وتَرَى دُمُوعَهُ فِي عَيْنَيْهِ تُحَدِّثُ عَنْ لَوْعَتِهِ وحُزْنِهِ.

وفِي يَومٍ جَاءَ «ابنُ الخَطَّابِ» إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ شَاكِيَاً مُغْضَبَاً، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ عَرَضَ عَلَى «أَبِي بَكْرٍ» وعَلَى «عُثْمَانَ» الزَّوَاجَ مِنْ اِبْنَتِهِ «حَفْصَةَ»، فَلَمْ يَرْضَيَا، فَهَدَّأَهُ ﷺ وطَيَّبَ خَاطِرَهُ وقَالَ لَهُ:

ـ يَتَزَوَّجُ حَفْصَةَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ عُثْمَانَ ويَتَزَوَّجُ عُثْمَانُ مَنْ هِيَ خَيْرٌ مِنْ حَفْصَةَ.

وتَزَوَّجَ ﷺ مِنْ حَفْصَةَ، فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ عُثْمَانَ، ثُمَّ قَالَ لِعُثْمَانَ:

ـ أُزَوِّجُكَ أُمَّ كُلْثُومٍ أُخْتَ رُقَيَّةَ، ولَو كُنَّ عَشْرَاً لَزَوَّجْتُكَهُنَّ، وهِيَ ﷺ خَيْرٌ مِن حَفْصَةَ.

وتَمَّ زَوَاجُ أُمِّ كُلْثُومٍ مِنْ عُثْمَانَ عَلَى مِثْلِ صَدَاقِ رُقَيَّةَ وعَلَى مِثْلِ صُحْبَتِهَا.

فِي بَيْتِ عُثْمَانَ

وعَاشَتْ ﷺ سِتَّ سَنَواتٍ، رَأَتْ فِيْهَا مَجْدَ الإِسْلامِ يَبْلُغُ أَوْجَ اِنْتِصَارِهِ، وشَاهَدَتْ أَبَاهَا ﷺ يَخْرُجُ مِنْ مَعْرَكَةٍ إِثْرَ مَعْرَكَةٍ، ويَعُودُ مِنْ غَزْوَةٍ إِثْرَ

غَزْوَةٍ، مُؤَيَّدَاً مُظَفَّرَاً، وعُثْمَانُ مَعَهُ صَاحِبَاً ومُجَاهِدَاً.

المِحْنَةُ

وفِي شَهْرِ ذِي القِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ، خَرَجَ رِسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ القَصْوَاءَ، مَعَ نَحْوِ أَلْفٍ و خَمْسِمِائَةٍ مِن صَحَابَتِهِ يُرِيْدُونَ مَكَّةَ، لِأَدَاءِ العُمْرَةِ ولَيْسَ مَعَهُمْ سِلَاحٌ إِلَّا السُّيُوفُ فِي أَغْمَادِهَا.

وتَصَدَّتْ قُرَيْشُ لَهُمْ وأَبَتْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ عَنْوَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصِهْرِهِ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ:

ـ اِذْهَبْ إِلَى قُرَيْشٍ وأَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وإِنَّمَا جِئْنَا زُوَّارَاً لِهَذَا البَيْتِ مُعَظِّمِيْنَ لِحُرْمَتِهِ، نَحْمِلُ مَعَنَا الهَدْيَ نَنْحَرُهُ ونَنْصَرِفُ.

ووَجَفَ قَلْبُ أُمِّ كُلْثُومٍ رضي الله عنها إِشْفَاقَاً وخَشْيَةً عَلَى زَوْجِهَا الحَبِيبِ أَنْ تَنَالَهُ قُرَيْشٌ وتَغْدِرَ بِهِ، كَمَا سَاوَرَهَا القَلَقُ والهَمُّ وهِيَ تَنْتَظِرُ أَوْبَتَهُ بَعْدَ أَنْ طَالَ غِيَابُهُ عَنِ المُدَّةِ المُنْتَظَرَةِ.

وذَاعَ فِي النَّاسِ بَعدَ طُولِ اِنْتِظَارٍ بِأَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ، فَرُوِّعَتْ وبَكَتْ وانْتَحَبَتْ.

وأَسْرَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَعَا المُسْلِمِيْنَ إِلَى بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وفِيْهَا بَايَعَ عَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه، إِذْ ضَرَبَ بِشِمَالِهِ عَلَى يَمِيْنِهِ وقَالَ:

ـ إِنَّهُ ذَهَبَ فِي حَاجَةِ اللهِ وحَاجَةِ رَسُولِهِ.

عَوْدَةُ الغَائِبِ

ولَمْ يَطُلِ الحُزْنُ بِأُمِّ كُلْثُومٍ فَقَدْ عَادَ عُثْمَانُ مِنْ مَهَمَّتِهِ ولَمْ يُصِبْهُ أَذَى، ووَقَّعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ قُرَيْشٍ صُلْحَ «الحُدَيْبِيَةِ» ووَقَفَ عُمَرُ بنَ الخَطَّابِ وعُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنهما فِي طَائِفَةِ المُعَارِضِيْنَ الذِينَ لَمْ يَرْضَوا شُرُوطَ الصُّلحِ.

وحِيْنَ نَحَرَ رَسُولُ الله ﷺ الهَدْيَ وحَلَقَ رَأْسَهُ، حَلَق عَامَّةُ الصَّحَابَةِ، وقَصَّرَ نَفَرٌ، مِنْهُمْ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، وسَمِعَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ أَبَاهَا يَقُولُ:

ـ رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِيْنَ ...

فَعَزَّ عَلَيْهَا ذَلِكَ، وظَهَرَتْ فِي وَجْهِهَا سِمَةُ حُزْنٍ وعِتَابٍ، ومَا ارْتَاحَتْ نَفْسُهَا حَتَّى سَمِعَتْهُ ﷺ يُتَمِّمُ: والمُقَصِّرِيْنَ.

الوَفَاةُ

وبَعْدَ أَنْ تَمَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتْحُ مَكَّةَ، حَنَّ قَلْبُ أُمِّ كُلْثُومٍ لِزِيَارَةِ قَبْرِ الأُمِّ الحَنُونِ، وحَدَّثَتْ زَوْجَهَا ووَالِدَهَا بِالأَمْرِ، فَوَافَقَاهَا عَلَى ذَلِكَ، لَكِنَّ المَنِيَّةَ عَاجَلَتْهَا.

وَتَوَفَّاهَا اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ سَنَةَ تِسْعٍ لِلْهِجْرَةِ.

ووَسَّدهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى جَانِبِ مَا تبَقَّى مِن رُفَاتِ أُخْتِهَا الحَبِيْبَةِ رُقَيَّةَ ، جَمَعَتْهُمَا الحَيَاةُ فِيْ بَيْتِ عُثْمَانَ وضَمَّهُمَا قَبْرٌ وَاحِدٌ.

ووَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَبْرِ ابْنَتَيْهِ دَامِعَ العَيْنَيْنِ مُثْقَلَ القَلْبِ بِهَمِّ الثُّكْلِ المُتَتَابِعِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ «حَبِيْسَةَ الشِّعْبِ» وأَنْزَلَهَا مَنَازِلَ الأَبْرَارِ الأَطْهَارِ الصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ.

❊ ❊ ❊

عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ
(رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)

بَعْدَ أَنْ لَحِقَتْ «خَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» رضي الله عنها بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى، واخْتَارَهَا اللهُ إِلَى جِوَارِهِ، أَصْبَحَ بَيْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَالِيَاً مِنَ الصَّدْرِ الحَنُوْنِ والقَلْبِ الرَّؤُوفِ الذي كَانَ يَبُثُّهُ هُمُومَهُ ومَتَاعِبَهُ ومَا يَلْقَاهُ مِنْ عَنَتِ المُشْرِكِيْنَ وصُدُدِهِمْ وأَذَاهُم.

فَجَاءَتْهُ يَوْمَاً «خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيْمٍ» زَوْجَةُ «عُثْمَانَ بنِ مَظْعُونٍ» قَائِلَةً:

يَارَسُولَ اللهِ: أَلَا تَتَزَوَّجُ؟

فَقَالَ: ومَنْ؟

فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتَ بِكْرَاً وإِنْ شِئْتَ ثَيِّبَاً.

قَالَ: فَمَنِ البِكْرُ؟

قَالَتْ: بِنْتُ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ «عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ».

قَالَ: ومَنِ الثَّيِّبُ؟

قَالَت: «سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ» آمَنَتْ بِكَ واتَّبَعَتْكَ وهَاجَرَتْ إِلَى الحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَا الذِي مَاتَ عَنْهَا وتَرَكَهَا وحِيْدَةً...

فَقَالَ لَهَا بَعْدَ تَفَكُّرٍ وتَأَمُّلٍ وتَرَوٍّ ... اِذْهَبِي فَاذْكُرِيْنِي عِنْدَهَا.

ثُمَّ أَرْسَلَ فِي طَلَبِ سَوْدَة وحَدَّثَهَا بِأَمْرِ زَواجِهِ بِهَا، فَسُرَّتْ بَذَلِكَ وقَالَتْ جَذِلَةً:

ـ أَمْرِيْ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ...

فَقَالَ لَهَا:

ـ مُرِي رَجُلاً مِنْ قَومِكِ يُزَوِّجُكِ...

ثُمَّ بَنَى بِهَا.

الرُؤْيَـا

مَضَتْ فَتْرَةٌ عَلَى زَوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ سَوْدَةَ، ثُمَّ اِسْتَيْقَظَ صَبِيحَةَ يَوْمٍ مُسْتَرْجِعاً فِي مُخَيِّلَتِهِ ذِكْرَى حُلُم رَآهُ، فَقَد جَاءَهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقِطْعَةٍ مِنْ قُمَاشٍ حَرِيْرِيٍّ عَلَيْهَا صُوْرَةُ عَائِشَةَ بِنتِ أَبِي بَكْرٍ وقَالَ لَهُ:

ـ إِنَّهَا زَوْجَتُكَ فِي الدُنْيَا والآخِرَةِ.

فَأَخَذَ ﷺ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِ هَذِهِ الرُؤْيَا ...، ثُمَّ صَرَفَ ذِهْنَهُ عَنْهَا مُعْتَبِراً إِيَّاهَا أَضْغَاثَ أَحْلَام، ولَمْ يُوْلِهَا عِنَايَتَهُ واِهْتِمَامَهُ، فَقَدْ كَانَتْ مَشَاغِلُ الدَّعْوَةِ وأَعْبَاءُ الرِّسَالَةِ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا الخَاطِرِ وأَعْظَمَ مِنْهُ.

لَكِنَّ الرُّؤْيَا تَكَرَّرَتْ لِيَومَيْنِ عَلَى التَوَالِي، فَأَدْرَكَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ...، ولَا بُدَّ مِنْ تَنْفِيْذِ أَمْرِ اللهِ.

ثُمَّ بَكَّرَ فِي الذَّهَابِ إِلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ الصِدِّيْقَ رضي الله عنه، فَاسْتَقْبَلَهُ مُرَحِّبَاً مُؤَهِّلاً.

ولَمَّا اِسْتَقَرَّ المُقَامُ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَصَّ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رُؤْيَاهُ، فَأَصْغَى الصِّدِّيْقُ وقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ جَاءَ خَاطِبَاً.

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى النَّبِيِّ وقَالَ:

ـ إِنَّهَا مَا زَالَتْ صَغِيْرَةً يَا رَسُولَ اللهِ، وسَأُرْسِلُهَا إِلَيْكَ لِتَرَاهَا...

ثُمَّ غَادَرَ النَّبِيُّ دَارَ أَبِي بَكْرٍ.

كَانَتِ السَّعَادَةُ والفَرْحَةُ تَغْمُرَانِ نَفْسَ الصِّدِّيْقِ، وإِنَّهُ لَشَرَفٌ ومَنْزِلَةٌ سَامِيَةٌ أَنْ يُصَاهِرَهُ النَّبِيُّ ﷺ

ثُمَّ دَخَلَ حَرَمَ أَهْلِهِ ونَادَى عَائِشَةَ التِي كَانَتْ تَدْرُجُ نَحْوَ التَّاسِعَةِ مِنْ عُمُرِهَا، والتِي كَانَت مُنْهَمِكَةً فِي اللَّهْوِ بِدُمْيَتِهَا، ثُمَّ حَمَّلَهَا إِنَاءً فِيْهِ تَمْرٌ وطَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تُوصِلَهُ إِلى بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وتَقُولَ لَهُ:

ـ هَذَا كُلُّ مَا عِنْدَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَهَلْ يُوَافِقُكَ ؟

فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ حَدَّثَ زَوْجَتَهُ «أُمَّ رُومَانَ» بِالأَمْرِ وأَخَذَ رَأْيَهَا.

الزَّائِرَةُ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ

أَسْرَعَتْ عَائِشَةُ الطِفْلَةُ إِلَى بَيْتِ رَسُولِ اللهِ، فَهَشَّ لَهَا وحَيَّاهَا ثُمَّ قَدَّمَتْ لَهُ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وقَالَتْ لَهُ مَا عَلَّمَهَا أَبُوهَا، ثُمَّ عَادَتْ ثَانِيَةً إِلَى والِدِهَا فَسَأَلَهَا:

ـ مَاذَا قَالَ يَا بُنَيَّةُ؟

فَأَجَابَتْ:

ـ نَعَمْ، وعَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

ارْتَاحَتْ نَفْسُ الصِّدِّيْقِ رضي الله عنه وسُرَّ غَايَةَ السُّرُورِ لِجَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ

ولَكِنْ ...

مَا بَالُ الأَسَى يَغْمُرُ وَجْهَهُ، والكآبَةُ تَعْلُو مُحَيَّاهُ، فَجْأَةً لَقَدْ تَذَكَّرَ أَنَّ عَائِشَةَ مَخْطُوبَةٌ إِلَى ابْنِ صَدِيقٍ عَزِيْزٍ عَلَيْهِ، إِنَّهُ «جُبَيْرُ بنُ مُطْعَمِ بنِ عَدِيٍّ»، فَمَا العَمَلُ؟ ومَا الحِيْلَةُ لِلْخُرُوْجِ مِنْ هَذَا المَأْزِقِ الحَرِجِ؟

فَكَّرَ رَوِيَّاً فِي الأَمْرِ، ثُمَّ هَدَاهُ تَفْكِيْرُهُ إِلَى الطَّرِيقَةِ التي تَخَلَّصَ بِهَا مِن وَعْدِهِ الذِي قَطَعَهُ لِصَدِيْقِهِ مُطْعَمٍ.

الخِطْبَةُ

خُطِبَتْ عَائِشَةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِيْنَ، وبَقِيَ أَمْرُ هَذِهِ الخِطْبَةِ مَكْتُوماً لَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ سِوَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَبِيْ بَكْرٍ وزَوجَتِهِ أُمِّ رُومَانَ.

وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَثِيْرَ التَّرَدُّدِ عَلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ فَيُوصِي بِعَائِشَةَ خَيْرَاً ، إِذ كَانَتْ طِفْلَةً سَاذَجَةً لا تفْقَهُ مِنْ شُؤُونِ الحَيَاةِ إِلَّا القَلِيْلَ، وكَانَتْ كَأَتْرَابِهَا تَقْضِي مُعْظَمَ أَوْقَاتِهَا لَاهِيةً لَاعِبَةً، تأَخُذُ دُمْيَتَهَا فِي حِجْرِهَا فَتُسَرِّحُ لَهَا شَعْرَهَا، أَو تُلْبِسُهَا، خِرَقاً تُسَمِّيْهَا ثِيَابَاً، أَو تُهَدْهِدُهَا لِتَغْفُو.

لَقَدْ وثَّقَتْ هَذِهِ الخِطْبَةُ أَوَاصِرَ المَحَبَّةِ والصَّدَاقَةِ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وصَدِيْقِهُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، وزَادَتْهَا مَتَانَةً وقُوَّةً، وتَمَتَّنَتْ عُرَى الأُخُوَّةِ بَيْنَهُمَا إِلَى أَقْصَى الحُدُوْدِ، ومَرَّتِ السَّنَوَاتُ...

سَنَواتُ كِفَاحٍ وجِلَادٍ وجِهَادٍ، حَتَّى كَانَتْ الهِجْرَةُ إِلَى يَثْرِبَ، و بَعْدَ أَنِ اِسْتَقَرَّ المُقَامُ بِالمُسْلِمِيْنَ فِي المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ، إِذ آخَى بَيْنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ وجَمَعَ بَيْنَ «الأَوْسِ، والخَزْرَجِ» عَلَى طَرِيقِ الإِيْمَانِ والإِسْلَامِ، وعَاهَدَ يَهُودَ المَدِيْنَةِ أَنْ لَا يَغْدِرُوا.

بَعْدَ ذَلِكَ، جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه مُذَكِّرَاً.

الزَّواجُ

جَاءَهُ فِي سَاعَةٍ مِنْ صَفَاءٍ ورَاحَةٍ قَائِلاً بِحَيَاءٍ:

ـ مَا الذِي يَمْنَعُكَ أَنْ تَبْنِيَ بِأَهْلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وكَأَنَّهُ تَنَبَّهَ إِلَى نَفْسِهِ، وفَكَّرَ فِي خِطْبَةِ عَائِشَةَ التِي مَضَى عَلَيْهَا سَنَواتٍ، فَعَائِشَةُ اليَومَ قَدْ اِكْتَمَلَتْ أُنُوثَةً، وهِيَ أَصْلَحُ مَا تَكُونُ لِإِتْمَامِ الزِّيْجَةِ، إِذْ أَتَمَّتِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهَا

وأَجَابَ أَبَا بَكْرٍ بِالإِيجَابِ، والإِبْتِسَامَةُ الرَّقِيْقَةُ لَا تُفَارِقُ ثَغْرَهُ الكَرِيْمَ.

فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

دَخَلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها بَيْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحْمِلُ ضِمْنَ جِهَازِهَا الدُّمَى إِذْ كَانَتْ رُغْمَ اِكْتِمَالِ أُنُوثَتِهَا سَاذَجَةَ التَّفْكِيْرِ، يَغْلِبُ عَلَى تَصَرُّفَاتِهَا طَابَعُ الطُّفُولَةِ.

دَخَلَ يَوْمَاً رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَهُ فَوَجَدَ عَائِشَةَ قَدْ صَفَّتِ العَرَائِسَ وجَعَلَتْ لِبَعْضِهَا أَجْنِحَةً فَسَأَلَهَا عَمَّا تَصْنَعُ فَقَالَتْ:

ـ إِنَّهُنَّ خُيُولُ «سُلَيْمَانَ».

فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ، وعَادَ يَسْأَلُهَا:

ـ ومَا هَذِهِ الأَجْنِحَةُ؟

فَقَالَتْ:

ـ أَلَمْ تَكُنْ لِسُلَيْمَانَ خُيُولٌ ذَاتُ أَجْنِحَةٍ يَطِرْنَ بِهَا ؟

فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَثِيْرَاً حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ.

لَقَدْ كَانَتْ طُفُولِيَّةُ عَائِشَةَ مُحَبَّبَةً إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَكُنْ لِيَتَضَايَقَ مِنْهَا أَو يَتَأَلَّمَ، أَوْ يُبْدِيْ ضَجَرَاً أَو اِشْمِئْزَازَاً، ولَكِنَّهُ كَانَ يَرْعَاهَا رِعَايَةَ الأَبِ الحَنُونِ أَوِ الوَالِدِ العَطُوْفِ.

كَيْفَ لَا؟ وهُوَ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وهُوَ الذِي يَقُولُ:

ـ "اِسْتَوصُوْا بِالنِّسَاءِ خَيْرَاً"

وفِي ذَاتِ يَومٍ دَخَلَ الدَّارَ فَرَأَى عَائِشَةَ رضي الله عنها قَدْ غَلَبَهَا النَّوْمُ والشَّاةُ تَأْكُلُ الخُبْزَ الذِي أَعَدَّتْهُ، فَتَبَسَّمَ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ أَيْقَظَهَا بِرِفْقٍ ووَاسَاهَا حِيْنَ أَبْدَتْ نَدَمَهَا وحُزْنَهَا عَلَى مَا فَرَّطَتْ وأَهْمَلَتْ.

لَقَدْ كَانَ ﷺ مُعَلِّمَاً عَظِيْمَاً، وأَبَاً كَرِيْمَاً، وزَوْجَاً وَفِيَّاً، وبِهَذِهِ الصِّفَاتِ التِي تَحَلَّى بِهَا والمَبَادِئِ التِي بَشَّرَ بِهَا اِنْتَصَرَ عَلَى الجَهْلِ والشِّرْكِ.

أَلَيْسَ هُوَ القَائِلُ:

ـ "المَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي، والعَقْلُ أَصْلُ دِيْنِي والحُبُّ أَسَاسِي، والشَّوقُ

مَرْكِبِي وذِكْرُ اللهِ أَنِيْسِي، والثِّقَةُ كَنْزِي، والحُزْنُ رَفِيْقِي، والعِلْم سِلَاحِي، والصَّبْرُ رِدَائِي، والرِّضَى غَنِيْمَتِي، والفَقْرُ فَخْرِي، والزُّهْدُ حِرْفَتِي، واليَقِيْنُ قُوَّتِي والصِّدْقُ شَفِيْعِي، والطَاعَةُ حَسَبِي والجِهَادُ خُلُقِي، وقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ".

الزّوْجَةُ الوَفِيَّةُ

كَبِرَتْ عَائِشَةُ ونَضَجَتْ واسْتَوَتْ عَقْلاً وفَهْماً وإِدْرَاكاً، فَكَانَتْ سَيِّدَةَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَرْعَى شُؤُونَه، وتُدَبِّرُ أُمُوْرَهُ، وتُوَاسِيْهِ حِيْنَ تِجِبُ المُوَاسَاةُ، وتُطِيْعُهُ فِي تَوْجِيْهَاتِهِ، وتَحْفظُ عَنْهُ الكَثِيْرَ مِنْ أَقْوَالِهِ، وتَتَأَسَّى بِأَفْعَالِهِ، وتَقُومُ بِأُمُورِ بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ خَيْرَ قِيَامٍ.

وعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَهَا ذَلِكَ الفَضْلَ، فَكَانَتْ أَحَبَّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ، وعَرَفَ فِيْهَا الذَّكَاءَ والوَفَاءَ، والوَعْيَ والفَهْمَ، فَقَالَ مُوْصِياً أَصْحَابَهُ وأَهْلَهُ:

ـ «خُذُوْا نِصْفَ دِيْنِكُمْ عَنْ هَذِهِ الحُمَيْرَاءِ».

ذَلِكَ لِمَا كَانَتْ تَتَحَلَّى بِهِ مِنَ الفِقْهِ، ومَا كَانَتْ تَسْتَوْعِبُهُ مِنَ العِلْمِ.

لَكِنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها لَمْ تَكُنْ لِتُفَارِقَهَا طِبَاعُ النِّسَاءِ مِنْ غَيْرَةٍ وغَيْرِهَا، فَقَدْ حَدَثَ مَرَّةً أَنْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي إِحْدَى الغَزَوَاتِ واصْطَحَبَ مَعَهُ مِنْ نِسَائِهِ عَائِشَةَ وحَفْصَةَ، وفِي الطَّرِيقِ رَأَتْ حَفْصَةُ كَثْرَةَ اِقْتِرَابِ النَّبِيِّ

ﷺ مِنْ هَوْدَجِ عَائِشَةَ يُكَلِّمُهَا ويُحَدِّثُهَا فَخَطَرَ لَهَا خَاطِرٌ، فَمَا أَن اِبْتَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ هَوْدَجِ عَائِشَةَ حَتَّى اِقْتَرَبَتْ مِنْهَا حَفْصَةُ وأَسَرَّتْ إِلَيْهَا بِكَلَام تَضَاحَكَتَا بَعْدَهُ، ثُمَّ اِسْتَبْدَلَتَا رَكُوْبَهُمَا، عَائِشَةُ فِي هَوْدَجِ حَفْصَةَ وحَفْصَةُ فِي هَوْدَجِ عَائِشَةَ.

ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِلَى هَوْدَجِ عَائِشَةَ يُكَلِّمُهَا وهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ حَفْصَةَ بِدَاخِلِهِ، فَكَلَّمَتْهُ وحَدَّثَتْهُ عَلَى أَنَّهَا عَائِشَةُ وعِنْدَمَا أَقْبَلَ المِسَاءُ وتَوَقَّفَ الرَّكْبُ عَنِ المَسِيْرِ وقَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ خِبَاءَ عَائِشَةَ فُوْجِئَ بِحَفْصَةَ دَاخِلَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يُبْدِ اِنْزِعَاجاً وقَضَى لَيْلَتَهُ عِنْدَهَا، وكَانَتْ لَيْلَةً لَيْلَاءَ عَلَى عَائِشَةَ التِي حُرِمَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وأَضَاعَتْ فِيْهِ نَصِيْبَهَا، وأَرِقَتْ طَوَالَ لَيْلِهَا، ولَمْ يَعْرِفِ النَّوْمُ سَبِيْلاً إِلَى عَيْنَيْهَا، ولَامَتْ نَفْسَهَا إِنْ عَادَتْ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ.

الزَّوْجَةُ الغَيُورُ

وفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى البَقِيعِ حَيْثُ مَدَافِنُ المُسْلِمِيْنَ، وكَثِيْرَاً مَا كَانَ يَخْرُجُ إِلَيْهِ لَيْلاً يَزُوْرُ أَهْلَ البَقِيعِ ويُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ، ويَدْعُو لِلْمُؤْمِنِيْنَ، ويَتَذَكَّرُ المَوْتَ والآخِرَةَ...

فاسْتَفَاقَتْ عَائِشَةُ فَلَمْ تَجِدْهُ بِجِوَارِهَا فقَلِقَتْ وتَحَيَّرَتْ فِي أَمْرِهَا، وظَلَّتْ عَلَى حَالِهَا تِلْكَ حَتَّى عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ورَأى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الهَمِّ والأَرَقِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ مِنْهَا وقَالَ لَهَا:

ـ إِذاً فَقَدْ غَلَبَكِ شَيْطَانُكِ يَا عَائِشَةُ...

فَسَأَلَتْهُ:

ـ أَلِيَ شَيْطَانٌ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

فَقَالَ:

ـ نَعَمْ، لِكُلِّ إِنْسَانٍ شَيْطَانٌ.

فَأَرْدَفَتْ: وحَتَّى أَنْتَ؟!

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ـ نَعَمْ، ولَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَعانَنِي عَلَيْهِ فَطَرَدْتُهُ.

ولَقَدْ وَصَلَ حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ لِـ عَائِشَةَ رضي الله عنها، إِلَى حَدٍّ جَعَلَ بَاقِيَ نِسَائِهِ ﷺ تَشْتَدُّ غَيْرَتُهُنَّ مِنْهَا، وتَدْفَعُهُنَّ تِلْكَ الغِيْرَةُ أَنْ يُرْسِلْنَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ رضي الله عنها إِلَى رَسُولِ اللهِ يَطْلُبْنَ إِلَيْهِ العَدْلَ بَيْنَهُنَّ.

فَجَاءَتْ أَبَاهَا تَنْقُلُ إِلَيْهِ اِحْتِجَاجَ أَزْوَاجِهِ، فَغَضِبَ ﷺ وأَعْرَضَ عَنْهَا بِوَجْهِهِ، مَعَ حُبِّهِ الشَّدِيْدِ لَهَا.

لَكِنَّ فَاطِمَةَ أَعَادَتْ الحَدِيْثَ، وكَرَّرَتِ الطَّلَبَ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ:

ـ أَوَلَسْتِ تُحِبِّيْنَ مَا أُحِبُّ؟!

فَرَدَّتْ:

ـ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ...

فَقَالَ لَهَا:

إِذَاً أَحِبِّيْ عَائِشَةَ.

فَسَكَتَتْ فَاطِمَةُ بُرْهَةً، أَضَافَ بَعْدَهَا ﷺ قَائِلاً:

ـ فَلْيَتَّقِيْنَ اللهَ فِي عَائِشَةَ، فَوَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وأَنَا فِي فِرَاشِ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ غَيْرَهَا.

وفَتَنَ الشَّيْطَانُ يَومَاً نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ ووَسْوَسَ إِلَيْهِنَّ أَنْ يَطْلُبْنَ زِيَادَةَ النَّفَقَةِ والتَّوْسِعَةَ عَلَيْهِنّ.

فَغَضِبَ لِذَلِكَ غَضَبَاً شَدِيْدَاً وأَقْسَمَ أَنْ لَا يَدْخُلَ بُيُوتَهُنَّ شَهْرَاً.

كَمَا خَيَّرَهُنَّ بَيْنَ مُتْعَةِ الحَيَاةِ وزُخْرُفِهَا وزِيْنَتِهَا، وبَيْنَ العَيْشِ فِي كَنَفِ النُّبُوَّةِ.

ولَمَّا آثَرْنَ البَقَاءَ بِجَانِبِهِ ﷺ، كَانَ أَوَّلَ بَيْتٍ يَدْخُلُهُ مِنْ بُيُوتِ أَزْوَاجِهِ هُوَ بَيْتُ عَائِشَةَ.

وكَانَ مِمَّا قَالَتْهُ ﵂ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُعْتَذِرَةً:

ـ بَأَبِي أَنْتَ وأُمِّيَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَفِيْ هَذَا تُخَيِّرُنِيْ؟!

بَل أَخْتَارُ اللهَ ورَسُولَهُ.

وعَادَ الصَفَاءُ والوُدُّ إِلَى بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وانْزَاحَتِ السُّحُبُ والغُيُومُ التِي تَلَبَّدَتْ فِي سَمَائِهِ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ.

وَفَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ

وحِيْنَ دَهَمَتِ الحُمَّى رَسُولَ اللهِ، سَأَلَ نِسَاءَهُ مُسْتَأْذِنَاً، بِكُلِّ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ أَدَبِ النُّبُوَّةِ، أَنْ يُمَرَّضَ فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَأَذِنَّ لَهُ.

فَقَامَتْ عَائِشَةُ المُحِبَّةُ الوَفِيَّةُ بِتَمْرِيْضِهِ، والاِعْتِنَاءِ بِهِ، عَلَى خَيْرِ مَا يَكُوْنُ الوَفَاءُ والحُبُّ.

وأَوْصَى ﷺ أَنْ يُدْفَنَ فِي حُجْرَتِهَا، وهَكَذَا كَانَ.

كَانَتْ ﵂ أَكْثَرَ نِسَائِهِ وأَهْلِهِ حُزْنَاً لِفِرَاقِهِ، وأَلَمَاً لِبُعَادِهِ، وهِيَ تَذْكُرُ سَالِفَ أَيَّامِهَا مَعَهُ، وسَنَوَاتِ عُمُرِهَا التِي رَافَقَتْهُ فِيْهَا.

وتَوَلَّى وَالِدُهَا أَبُو بَكْرٍ خَلَافَةَ المُسْلِمِيْنَ، ثُمَّ تَبِعَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﵁، والكُلُّ يَعْرِفُ لَهَا مَكَانَتَهَا وَفَضْلَهَا وعِلْمَهَا، فَكَمْ مِن قَوْلٍ وفِعْلٍ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، أُخِذَ عَنْهَا وسُمِعَ مِنْهَا.

النِّهَايَةُ

مَرِضَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها، وكَانَ قَدْ سَبَقَهَا إِلَى الدَّارِ الآخِرَةِ مُعْظَمُ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ اِشْتَدَّ عَلَيْهَا المَرَضُ حَتَّى فَارَقَتِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا، وجَرَى دَفْنُهَا فِي البَقِيْعِ.

وكَانَ الصَحَابِيُّ الجَلِيْلُ «أَبُو هُرَيْرَةَ» رضي الله عنه مِمَّنْ حَضَرُوا جَنَازَتَهَا، وبَيْنَمَا هُوَ فِي طَرِيْقِ عَوْدَتِهِ مِن البَقِيْعِ، وقَدْ غَامَتْ عَيْنَاهُ بِالدَّمْعِ أَخَذَ يُرَدِّدُ:

ـ رَحِمَ اللهُ أُمَّ المُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ، لَقَدْ كَانَتْ حَيَاتُهَا صَفْحَةً نَاصِعَةً شَدِيْدَةَ النَّقَاءِ، بَالِغَةَ الطَّهَارَةِ.

رَحِمَهَا اللهُ ورَضِيَ عَنْهَا، وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ.

❊ ❊ ❊

سَودة بنت زمعة

(رضي الله عنها)

أَيَّامُ المِحْنَةِ

بَعْدَ الخُرُوجِ مِنَ الشِّعْبِ بِسَبَبِ المُقَاطَعَةِ التِي فَرَضَتْهَا قُرَيْشٌ عَلَى بَنِيْ هَاشِمٍ والتِي اِسْتَمَرَّتْ طِيْلَةَ ثَلَاثِ سَنَواتٍ لَقِيَ فِيْهَا المُسْلِمُونَ عَنَتَاً شَدِيْدَاً، وإِرْهَاقَاً مَا بَعْدَهُ إِرْهَاقٌ.

كَانَتْ خَدِيْجَةُ أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ رضي الله عنها تُقَاسِيْ مِنَ المَرَضِ والضَّعْفِ، ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ لَحِقَتْ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى، فَوَجَدَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ الوجْدِ، وحَزِنَ بَالِغَ الحُزْنِ، وبَكَاهَا بُكَاءً عَظِيْمَاً.

وكَذَلِكَ بَنَاتُهَا الأَرْبَعُ، الزَّهَرَاتُ النَّاضِرَاتُ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ، زَيْنَبُ، ورُقَيَّةُ وأُمُّ كُلْثُومٍ، وفَاطِمَةُ.

بَينَ القَبُوْلِ والتَّرَدُّدِ

لَقَدْ كَانَ المُسْلِمُونَ جَمِيْعَاً يَشْعُرُونَ بِمَا يُقَاسِي عليه السلام مِنْ آلَامِ المِحْنَةِ، فَقَدْ خَلَا البَيْتُ النَبَوِّيُّ مِنْ أَطْهَرِ الزَّوْجَاتِ، ومَاتَ العَمُّ المُدَافِعُ عَنْ ابْنِ

أَخِيْهِ، ورَدَّهُ أَهْلُ ثَقِيْفٍ رَدًّا قَبِيْحاً مُنْكَراً، فَكَانَ المُسْلِمُونَ يَحُسُّونَ بِذَلِكَ، ويُحَاوِلُونَ أَنْ يُخَفِّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَلَمَ المُصَابِ، وشِدَّةَ النَّازِلَةِ، ويَتَدَاوَلُونَ بِهَذَا الأَمْرِ بَيْنَهُمْ، حَتَّى تَشَجَّعَتْ «خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيْمٍ» وكَانَتْ أَكْثَرَ المُسْلِمَاتِ جُرْأَةً وَشَجَاعَةً أَدَبِيَّةً، وَحَمَلَتْ عَنِ الآخَرِيْنَ، رِجَالاً ونِسَاءً، مَسْؤُولِيَّةَ الحَدِيْثِ مَعَ رَسُولِ اللهِ.

وحَدَّثَتْهُ خَوْلَةُ فِي أَمْرِ وَحْدَتِهِ فِي بَيْتِهِ، وحَاجَةَ ذَلِكَ البَيْتِ إِلَى سَيِّدَةٍ كَرِيْمَةٍ تَرْعَاهُ، وحَاجَتَهُ هُوَ إِلَى مَنْ يَقُومُ عَلَى شُؤُونِهِ، ويُدَبِّرُ لَهُ أُمُورَ البَيْتِ.

وبَعْدَ تَرَدُّدٍ وَنَظَرَاتٍ بَعِيْدَةٍ إِلَى المَاضِي تَسْتَرْجِعُ ذِكْرَى خَدِيْجَةَ رضي الله عنها قَبِلَ الرَّسُولُ ﷺ بِاقْتِرَاحِ خَوْلَةَ.

فَقَالَتْ رضي الله عنها:

ـ إِنْ شِئْتَ بِكْراً فَأَمَامَكَ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ، وإِنْ شِئْتَ ثَيِّباً فَهُنَاكَ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ التي آمَنَتْ بِكَ وتَبِعَتْ دِيْنَكَ، وهَاجَرَتْ إِلَى الحَبَشَةِ وتُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وتَرَكَهَا وَحِيْدَةً.

فَقَالَ ﷺ فِي دَهْشَةٍ مَمْزُوجَةٍ بِالاِسْتِغْرَابِ والعَجَبِ:

ـ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ ؟ !

وردَّدَ الاِسْمَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، ولَمْ يَأْتِ عَلَى ذِكْرِ عَائِشَةَ، وأَخِيْرَاً قَبِلَ بِالزَّوَاجِ مِنْ سَوْدَةَ لِأَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ مُجَاهِدَةٌ قَدْ تَرَمَّلَتْ، فَمِنَ الوَفَاءِ أَنْ تَنَالَ جَزَاءَ مَا قَدَّمَتْ وأَسْلَفَتْ. لِلدَّعْوَةِ.

وكَانَتْ سَوْدَةُ اِمْرَأَةً مُسِنَّةً، فَارِعَةَ العُودِ طَوِيْلَةَ القَامَةِ، ضَامِرَةَ الجِسْمِ، نَحِيْلَةَ العُوْدِ، لَيْسَتْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الجَمَالِ، ولَا مَطْمَعَ فِيْهَا لِلرِّجَالِ.

أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ ثَيِّبَاً، قَدْ تَزَوَّجَتْ مِنْ ذِيْ قَبْلُ ومَرَّتْ بِتَجْرِبَةِ زَوَاجٍ، ومَاتَ زَوْجُهَا عَنْهَا وكَانَ مِنَ المُصَدِّقِينَ الأَوَائِلِ، والمُسْلِمِيْنَ السَّابِقِيْنَ الذِيْنَ آمَنُوا بَاللهِ ورَسُولِهِ.

نَسَبُهَا وَنشْأَتُهَا

هِيَ: سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ بنِ قَيْسٍ مِن بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، وأُمُّهَا «الشَّمُوسُ بِنْتُ قَيْسِ بنِ عَمْرٍو» مِنْ بَنِيْ النَّجَّارِ مِنْ أَهْلِ المَدِيْنَةِ.

نَشَأَتْ بِـ مَكَّةَ وفِيْهَا تَرَعْرَعَتْ حَتَّى بَلَغَتْ مَبْلَغَ الصِّبَا والفُتُوَّةِ، فَتَقَدَّمَ لِخِطْبَتِهَا والزَّوَاجِ مِنْهَا «السَّكْرَانُ بنُ عَمْرٍو» فَقَبِلَ بِهِ أَبُوهَا وزَوَّجَهَا مِنْهُ.

ولَا نَدْرِيْ ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ سَبَبَاً لِانْتِقَالِ سَوْدَةَ مَعَ أَهْلِهَا مِن يَثْرِبَ «المَدِينَةُ المُنَوَّرَةُ» إِلَى مَكَّةَ، فَهِيَ فِي الوَطَنِ (مَدَنِيَّةٌ ـ مَكِّيَّةٌ)، هَكَذَا يَصِحُّ نَسَبُهَا تَارِيْخِيَّاً.

إِسْلَامُهَا

حِيْنَ أَشْرَقَتْ شَمْسُ الدَّعْوَةِ المُحَمَّدِيَّةِ والرِسَالَةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَى مَكَّةَ، اِسْتَضَاءَ بِهَا قَلْبُ الزَّوْجَيْنِ: السَّكْرَانُ وسَوْدَةُ، فَأَعْلَنَا إِسْلَامَهُمَا وإِيْمَانَهُمَا، وانْضَوَيَا تَحْتَ اللِّوَاءِ الشَّرِيْفِ.

وعَنْدَمَا ضَاقَ المُؤْمِنُونَ القَلَائِلُ ذَرْعَاً بِأَذَى قُرَيْشٍ وتَعَرُّضِهَا الدَّائِمِ لَهُمْ بِالإِكْرَاهِ والتَّعْذِيْبِ والضَّغْطِ، أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ، فِي الهِجْرَةِ إِلَى الحَبَشَةِ، فَإِنَّ فِيهَا مَلِكَاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَاً كَانَ مَفْعُولَاً.

فَهَاجَرَتْ سَوْدَةُ مَعَ زَوْجِهَا السَّكْرَانُ فِي جُمْلَةِ مَنْ هَاجَرَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، وهُنَاكَ أَقَامُوْا مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ بَعِيْدَاً عَنِ الأَهْلِ والوَطَنِ، فِي شَوْقٍ دَائِمٍ إِلَى الأَخْبَارِ والأَنْبَاءِ، وعَلَى الخُصُوصِ أَنْبَاءُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وتَطَوُّرُ الأَحْدَاثِ وتَقَلُّبُ الأَيَّامِ.

العَوْدَةُ مِنَ الحَبَشَةِ

وبِإِسْلَامِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ وحَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنهما تَشَجَّعَ بَعْضُ المُهَاجِرِيْنَ إِلَى الحَبَشَةِ بِالعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ، وآثَرَ الآخَرُونَ البَقَاءَ.

وكَانَتْ سَوْدَةُ رضي الله عنها مَعَ زَوْجِهَا مِمَّنْ أَسْرَعُوْا فِي العَودَةِ وتَعُودُ أَسْبَابُ السُّرْعَةِ إِلَى مَا كَانَ قَدْ أُصِيْبَ بِهِ زَوْجُهَا مِنْ أَمْرَاضٍ وعِلَلٍ فِي غُرْبَتِهِ المُوْحِشَةَ، وبُعْدِهِ عَنِ الأَهْلِ والأَحْبَابِ، وتَغَيُّرِ المَنَاخِ.

الأَرْمَلَةُ

ومَعَ وُصُولِ الزَّوْجَيْنِ إِلَى مَكَّةَ فُوْجِئَا بِأَنَّ قُرَيْشَاً مَا تَزَالُ عَلَى مَوْقِفِهَا مِنَ العَدَاءِ الشَّدِيْدِ لِلإِسْلَامِ والمُسْلِمِيْنَ، بَلْ زَادَتْ فِي حِدَّةِ الصِّرَاعِ، ولَمْ تَرْعَوِ عَنْ غِيِّهَا وكُفْرِهَا وعِنَادِهَا.

ولَازَمَ الزَّوجُ السَّكْرَانُ بنُ عَمْرٍو الفِرَاشَ بِسَبَبِ العِلَّةِ والضَّعْفِ المُتَنَاهِيَ، وقَامَتْ سَوْدَةُ عَلَى تَمْرِيْضِهِ ومُدَاوَاتِهِ ومُسَاعَدَتِهِ، ولَكِنْ لَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ عَلَى وصُولِهِ حَتَّى اِشْتَدَّ بِهِ المَرَضُ، ومَنَعَهُ عَنِ الكَلَامِ والحَرَكَةِ، ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ فَارَقَ الحَيَاةَ، وتَرَمَّلَتْ سَوْدَةُ رضي الله عنها وأَمْضَتْ أَيَّامَهَا البَاقِيَةَ فِي مَكَّةَ حَزِيْنَةً آسِفَةً، صَابِرَةً عَلَى قَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، مُعْتَصِمَةً بِإِيْمَانِهَا، مُتَمَسِّكَةً بِإِسْلَامِهَا، تَسْتَمِدُّ مِنَ البَارِيْ عَزَّ وجَلَّ العَوْنَ والرَحْمَةَ.

سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ
أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ

ثُمَّ كَانَتْ البُشْرَى السَّعِيْدَةُ التِي أَثْلَجَتْ قَلْبَهَا، وعَزَّتْهَا مِن حُزْنِهَا ومُصَابِهَا، وأَزَاحَتْ عَنْ صَدْرِهَا كَابُوسَ المِحْنَةِ، بُشْرَى خِطْبَتِهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

وكَانَ مَا سَبَقَ وعَلِمْتَ مِنْ كَيْفِيَّةِ حُدُوثِ الخِطْبَةِ...

فَلَمَّا حَلَّتْ، وانْقَضَتْ عِدَّتُهَا، أَرْسَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

ـ مُرِيْ رَجُلاً مِنْ قَوْمِكِ يُزَوِّجُكِ.

فَأَمَرَتْ حَاطِبَ بنَ عَمْرو فَزَوَّجَهَا، فَكَانَتْ أَوَّلَ اِمْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ خَدِيْجَةَ رضي الله عنها، وكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ النُّبُوَّةِ، ودَخَلَ ﷺ بِهَا فِي مَكَّةَ.

وبِهَذَا الزَّوَاجِ المُبَارَكِ عَلَيْهَا، أَضْحَتْ سَودَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ أُمًّا لِلمُؤْمِنِيْنَ بَعْدَ خَدِيْجَةَ رضي الله عنها.

وكَانَتْ رضي الله عنها تَقُومُ خَيْرَ قِيَامٍ عَلَى رِعَايَةِ شُؤُونِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، مِنْ خِدْمَةٍ، وحَدْبٍ عَلَى الفَتَيَاتِ الطَّاهِرَاتِ اللَوَاتِي فُجِعْنَ بِالسَّيِّدَةِ العَظِيْمَةِ خَدِيْجَةَ وهُنَّ فِي سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ.

وكَذَلِكَ قَدَّرَتْ وجُودَهَا، واخْتِيَارَ النَّبِيِّ ﷺ لَهَا، فَأَكْبَرَتْ ذَلِكَ، واعْتَبَرَتْهُ تَكْرِيْمَاً عَظِيْمَاً، فاحْتَرَمَتْ الإِرَادَةَ النَّبَوِيَّةَ السَّامِيَةَ وأَجَلَّتْهَا وأَنْزَلَتْهَا مِنْ نَفْسِهَا وقَلْبِهَا أَسْمَى مَقَامٍ.

يَوْمُهَا لِـ عَائِشَةَ

قَامَتْ سَوْدَةُ رضي الله عنها عَلَى شُؤُونِ بَيْتِ رَسُولِ الله ﷺ قِيَامَاً حَسَنَاً طَيِّبَاً، وأَدَّتْ مَا عَلَيْهَا مِنْ وَاجِبٍ تِجَاهَ النَّبِيِّ العَظِيْمِ وهِيَ تُحَاوِلُ جَهْدَهَا أَنْ تَحْظَى بِرِضَاهُ وعَطْفِهِ وحُبِّهِ.

ثُمَّ جَرَتِ الأَقْدَارُ بِمَا دَبَّرَتْ مِنْ حَكِيْمِ التَّنْظِيْمِ، فَجَاءَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَاتَ لَيْلَةٍ يَحْمِلُ قِطْعَةً مِنْ حَرِيْرٍ عَلَيْهَا صُورَةُ فَتَاةٍ صَغِيرَةِ السِّنِّ، لِيُخْبِرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ صَاحِبَةَ الصُّورَةِ هِيَ زَوْجَتُهُ المُنْتَظَرَةُ، ورَفِيْقَتُهُ فِي الآخِرَةِ.

وتَكَرَّرَتْ الزِيَارَةُ فِي لَيَالٍ ثَلَاثٍ مُتَوَالِيَاتٍ، وكَانَتِ الصُّورَةُ لِعَائِشَةَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما وتَمَّتِ الخِطْبَةُ فِي مَكَّةَ ولَمْ يَبْنِ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَنَّهَا كَانَتْ صَغِيْرَةَ السِّنِّ.

وبَعْدَ الهِجْرَةِ إِلَى المَدِيْنَةِ، تَمَّ الزَّوَاجُ، ودَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِـ عَائِشَة.

أَمَّا سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةٍ رضي الله عنها فَكَانَتْ مِنَ المُهَاجِرَاتِ إِلَى المَدِيْنَةِ، المُرَافِقَةَ لِرَسُولِ الله ﷺ، الدَّائِمَةَ المُوَاظَبَةِ عَلَى رِضَاهُ وحُبِّهِ.

وتُحَدِّثُنَا عَائِشَةُ رضي الله عنها فِي ذَلِكَ فَتَقُولُ:

كَانَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ قَدْ أَسَنَّتْ، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَسْتَكْثِرُ مِنْهَا، وقَدْ عَلِمَتْ مَكَانِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ مِنِّي، فَخَافَتْ أَنْ يُفَارِقَهَا، وضَنَّتْ بِمَكَانِهَا عِنْدَهُ فَقَالَتْ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ، يَومِيَ الذِي يُصِيْبُنِي لِعَائِشَةَ، وأَنْتَ مِنْهُ فِي حِلٍّ، فَقَبِلَهُ النَّبِيُّ ﷺ وفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ﴾ (النِّسَاء: 128).

ويُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَى سَوْدَةَ بِطَلَاقِهَا، فَلَمَّا أَتَاهَا الخَبَرُ حَزِنَتْ وبَكَتْ وتَأَلَّمَتْ، ثُمَّ جَلَسَتْ فِي طَرِيْقِهِ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ ﷺ قَادِمًا قَالَتْ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ ...أَنْشُدُكَ بِالذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ كِتَابَهُ، واصْطَفَاكَ عَلَى خَلْقِهِ لِمَ طَلَّقْتَنِي، أَلِمَوْجَدَةٍ وجَدْتَهَا فِيَّ ؟

فَقَالَ ﷺ: لا...

فَقَالَتْ:

ـ فَإِنِّي أَنْشُدُكَ بِمِثْلِ الأُوْلَى أَمَا رَاجَعْتَنِي وقَدْ كَبِرْتُ ولَا حَاجَةَ لِي فِي الرِّجَالِ، ولَكِنِّيْ أُحِبُّ أَنْ أُبْعَثَ فِي نِسَائِكَ يَوْمَ القِيَامَة.

فَرَاجَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ.

ومَنْ أَجْدَرُ وأَحَقُّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي العَطْفِ والمَحَبَّةِ لِلمُسْلِمِيْنَ ولِلمُؤْمِنِيْنَ ؟!

شَهَادَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَوْدَةَ

كَانَ فِيهَا رضي الله عنها دُعَابَةٌ وتُحِبُّ الضَّحِكَ.

ولَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلُهُ:

ـ مَا مِنْ اِمْرَأَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلَاخِهَا مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ إِلَّا أَنَّهَا امْرَأَةٌ فِيهَا حَسَدٌ.

ورُوِيَ أَنَّهَا قَالَتْ ذَاتَ يَومٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

ـ صَلَّيْتُ خَلْفَكَ البَارِحَةَ، فَرَكَعْتَ بِي فَأَمْسَكْتُ بِأَنْفِي مَخَافَةَ أَنْ يَقْطُرَ الدَّمُ، فَضَحِكَ ﷺ وكَثِيْرَاً مَا كَانَتْ تُضْحِكُهُ بِالقَوْلِ والفِعْلِ.

فَقَدْ كَانَتْ ﵂ خَفِيْفَةَ الرُّوْحِ والظِّلِّ، صَاحِبَةَ فُكَاهَةٍ ومُزَاحٍ صَادِقٍ، لَا ثَقِيْلَةً تُشْعِرُ بِالمَلَلِ، ولَا تَفْتَعِلُ الحَرَكَةَ أَوْ تَصْطَنِعُ الكَلِمَةَ فَتَبْدُو سَمِجَةً غَيْرَ مَرْغُوبٍ فِيْهَا.

المُتَصَدِّقَةُ الكَرِيْمَةُ

ورَوَتْ عَائِشَةُ ﵂ فَقَالَتْ:

ـ اِجْتَمَعَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقُلْنَ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا أَسْرَعُ لَحَاقاً بِكَ؟

فَقَالَ ﷺ:

ـ أَطْوَلُكُنَّ يَداً.

فَأَخَذْنَا قَصَبَةً نَذْرَعُهَا، فَكَانَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ بنِ قَيْسٍ أَطْوَلُنَا ذِرَاعاً.

قَالَتْ عَائِشَةُ:

وتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَانَتْ سَوْدَةُ أَسْرَعَنَا بِهِ لَحَاقاً، فَعَرَفْنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّمَا كَانَ طُوْلُ يَدِهَا الصَّدَقَةَ، وكَانَتْ اِمْرَأَةً تُحِبُّ الصَّدَقَةَ.

الوَفِيَّةُ بِالعَهْدِ

حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ:

ـ حَجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنِسَائِهِ عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ هَذِهِ الحَجَّةُ ثُمَّ ظُهُورُ الحَصْرِ.

وكَانَ كُلُّ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ يَحْجُجْنَ بَعْدَهُ، إِلَّا سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ و زَيْنَبُ بِنْتُ جِحْشٍ ...

قَالَتَا:

ـ لَا تُحَرِّكُنَا دَابَّةٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ورُوِيَ عَنْ سَوْدَةَ قَوْلُهَا:

ـ حَجَجْتُ واعْتَمَرْتُ، فَأَنَا أَقَرُّ فِي بَيْتِي كَمَا أَمَرَنِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

المَأْذُونُ لَهَا مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ

رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها فَقَالَتْ:

ـ اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ المُزْدَلِفَةِ أَنْ تَدْفَعَ قَبْلَهُ وقَبْلَ حَطَمَةِ النَّاسِ (أَيْ أَنْ تَمْضِي فِي السَّيْرِ)، وكَانَتْ اِمْرَأَةً ثَبِطَةً (الثَبِطَةُ: الثَّقِيلَةُ البَطِيئَةُ)، فَأَذِنَ لَهَا، فَخَرَجَتْ قَبْلَ دَفْعَةِ النَّاسِ، وحُبِسْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا

فَدَفَعْنَا بِدَفْعِهِ، وَلَئِنْ أَكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنَتْهُ سَوْدَةُ فَأَكُونَ أَدْفَعُ بِإِذْنِهِ قَبْلَ النَّاسِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ.

وهَذَا الإِذْنُ تَرْخِيصٌ مِنْ رِسُولِ اللهِ ﷺ لِسَوْدَةَ، لِأَنَّ عَادَةَ الجَاهِلِيِّيْنَ قَبْلَ الإِسْلَامِ، أَنْ يَتَقَدَّمَ الأَشْرَافُ عَلَى العَامَةِ، ولَقَدْ أَلْغَى الإِسْلَامُ هَذِهِ العَادَةَ وسَوَّى بَيْنَ النَّاسِ جَمِيْعَاً لَا فَرْقَ بَيْنَ أَمِيْرٍ أَوْ حَقِيْرٍ.

المَقْسُومُ لَهَا يَومَ خَيْبَرَ

ولَقَدْ قَسَمَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَومَ خَيْبَرَ مِنَ الفَيْءِ كَمَا قَسَمَ لِكُلِّ أَزْوَاجِهِ، فَنَالَتْ مِنَ التَّمْرِ ثَمَانِيْنَ وَسْقَاً، ومِنَ القَمْحِ عِشْرِيْنَ، ولَكِنَّهَا رضي الله عنها لَمْ تَدَّخِرْ ذَلِكَ، ولَمْ تَخْتَزِنْهُ، ولَمْ تَجْعَلْهُ فِي بَيْتِهَا، بَلْ فَرَّقَتْهُ قَبْلَ وُصُولِهِ.

وأَيْضَاً...

رَوَى مُحَمَّدٌ بنُ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَرْسَلَ إِلَى سَوْدَةَ زَمَنَ خِلَافَتِهِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مَعَ بَاقِيْ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ، غِرَارَةً مِنْ دَرَاهِمَ.

فَقَالَتْ:

ـ مَا هَذِهِ ؟

قَالُوْا:

ـ دَرَاهِمُ، مِنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ.

قَالَتْ :

فِي الغِرَارَةِ مِثْلُ التَّمْرِ.

ثُمَّ نَادَتْ عَلَى جَارِيَةٍ لَهَا، وطَلَبَتْ إِلَيْهَا أَنْ تُوَزِّعَ مَا فِي الغِرَارَةِ عَلَى المُحْتَاجِيْنَ والمَسَاكِيْنَ، ودَعَتْ رَبَّهَا سُبْحَانَهُ وتَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَهَا عَلَى القَنَاعَةِ والاِكْتِفَاءِ.

وهَكَذَا دَأْبُ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ رضي الله عنها، فَهِيَ لَا تُرِيْدُ لِعُنْصُرِ المَالِ أَنْ يَدْخُلَ فِي حَوْزَتِهَا أَبَدًا، فَأَشْرَفُ لَهَا وأَكْرَمُ وأَعْظَمُ أَنْ يُبَلَّغَ بِهِ فَقِيْرٌ جَائِعٌ. أَوْ مِسْكِيْنٌ مُحْتَاجٌ أَوْ صَاحِبُ فَاقَةٍ، مِنْ أَنْ تُنْفِقَهُ عَلَى دُنْيَاهَا، فَالآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى، والحَسَنَةُ أَوِ الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا.

وَصَدَقَ اللهُ العَظِيْمُ إِذْ يَقُولُ:

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (البَقَرَة: 110).

حُلُمٌ قَدِيْمٌ صَادِقٌ

ورَوَى ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فَقَالَ:

ـ كَانَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ عِنْدَ السَّكْرَانِ بنِ عَمْرٍو أَخِي سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍ فَرَأَتْ فِي المَنَامِ كَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى وَطِئَ عَلَى عُنُقِهَا، فَأَخْبَرَتْ زَوْجَهَا بِذَلِكَ فَقَالَ:

ـ وأَبِيْكِ لَئِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاكِ لَأَمُوتَنَّ ولَيَتَزَوَّجَنَّكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ:

ـ حِجْرَاً وسِتْرَاً «أَيْ أَنَّهَا تَنْفِي عَنْ نَفْسِهَا ذَلِكَ».

فَاشْتَكَى السَّكْرَانُ مِنْ يَومِهِ ذَلِكَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيْلَاً حَتَّى مَاتَ، وتَزَوَّجَهَا ـ كَمَا أَسْلَفْنَا ـ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الوَفَاةُ

هُنَاكَ اِخْتِلَافٌ فِي تَارِيخِ وَفَاتِهَا رضي الله عنها فَمِنَ المُؤَرِّخِيْنَ مَنْ يَقُولُ كَانَتْ أَوَّلَ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَحَاقَاً بِهِ كَمَا قَدَّمْنَا حَسْبَ رِوَايَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ، إِنَّ أَوَّلَ اللَّاحِقَاتِ بِهِ هِيَ زَيْنَبُ بِنتُ جَحْشٍ اِبْنَةُ عَمَّتِهِ، وأَنَّ سَوْدَةَ تَوَفَّاهَا اللهُ بَعْدَهَا وقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي العَامِ الرَّابِعِ والخَمْسِيْنَ مِنَ الهِجْرَةِ فِي زَمَنِ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، واللهُ أَعْلَمُ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ سَوْدَةَ بِنتِ زَمْعَةَ المُسْلِمَةِ المُهاجِرَةِ، والمُؤْمِنَةِ الصَّادِقَةِ المُتَصَدِّقَةِ، والوَفِيَّةِ المُحِبَّةِ.

وأَنْزَلَهَا مَنَازِلَ الأَبْرَارِ والصَالِحِيْنَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيْمِ، وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الطَّائِعِيْنَ التَّائِبِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ.

إِنَّهُ أَكْرَمُ مَأْمُولٍ وخَيْرُ مَسْؤُوْلٍ، وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ.

❊ ❊ ❊

جُوَيْرِيَة

(بِنْت الحَارِث)

لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نُؤَرِّخَ لِجُوَيْرِيَةَ بِنتِ الحَرِثِ ـ أُمِّ المُؤْمِنِينَ ـ رضي الله عنها، دُوْنَ أَنْ نُلِمَّ وَلَو إِلْمَامَاً سَرِيْعَاً بِحَوَادِثِ تِلْكَ الغَزْوَةِ، التِي كَانَ مِنْ نَتَائِجِهَا زَوَاجُهُ ﷺ مِنْ جُوَيرِيَّةَ ...

وخَيْرٌ كَثِيْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ لَحِقَ قَوْمَهَا وأَهْلَهَا.

المَعْرَكَةُ

غَزْوَةُ بَنِي المُصْطَلِقِ

بَعْدَمَا أَتَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ اِسْتِعْدَادَاتِه، خَرَجَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِ المُسْلِمِيْنَ إِلَى «بَنِيْ المُصْطَلِقِ» لِمُفَاجَأَتِهِمْ، وكَانَ ذَلِكَ فِيْ شَهْرِ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ الخَامِسَةِ لِلهِجْرَةِ.

والتَقَى الجَيْشَانِ فِي مَكَانٍ يُدْعَىٰ «المُرَيْسِيعَ»، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ «بَنُو المُصْطَلِقِ» سَرِيْعَاً لِمُلَاقَاةِ المُسْلِمِيْنَ الذِينَ نَزَلُوْا دِيَارَهُمْ وبَاغَتُوهُمْ.

ودَعَاهُمْ الرَسُولُ ﷺ إِلَى الإِسْلَامِ فَأَبَوْا، ثُمَّ نَشَبَ القِتَالُ، تَرَامِياً بِالنِّبَالِ، وتَرَاشُقاً بِالسِّهَامِ، ثُمَّ جُرِّدَتِ السُّيُوفُ مِنْ أَغْمَادِهَا، والْتَحَمَ الفَرِيْقَانِ فِي قِتَالٍ شَدِيْدٍ أَسْفَرَ عَنْ هَزِيْمَةِ «بَنِي المُصْطَلِقِ» هَزِيْمَةً مُنْكَرَةً، ووَقَعَ أَكْثَرُهُمْ أَسْرَى فِي يَدِ المُسْلِمِيْنَ، ولَقَدْ بَلَغَ عَدَدُهُمْ مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِ مِائَةٍ، كَمَا غَنِمَ المُسْلِمُونَ كَثِيْرَاً مِنَ الإِبِلِ والشِّيَاهِ.

وفَرَّ «الحَرِثُ» مَعَ قِلَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ.

فَرَّ... وقَدْ ضَاعَتْ كُلُّ آمَالِهِ، وانْهَارَتْ قُصُورُ أَحْلَامِهِ وأَوْهَامِهِ التِي بَنَاهَا فِي مُخَيِّلَتِهِ.

وكَانَ أَعَزُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ أَنْ تَقَعَ اِبْنَتُهُ فِي الأَسْرِ مَعَ مَنْ وَقَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ.

لَكِنَّ نَجَاتَهُ مِنَ المَوْتِ والأَسْرِ كَانَتْ تُخَفِّفُ عَنْهُ بَعْضَ أَحْزَانِ قَلْبِهِ وأَسَاهُ.

بَرَّةُ الأَسِيْرَةُ

وكَانَ مِنْ بَيْنِ الأَسْرَى ابْنَةُ الحَرِثِ، وتُدْعَى:

«بَرَّةُ بِنْتُ الحَرِثِ بنِ ضِرَارِ بنِ حَبِيْبٍ»، وهِيَ نَفْسُهَا جُوَيْرِيَةُ رضي الله عنها

وسَنَأْتِي فِي تَفْصِيلِ قَصَّتِهَا عَلَى سَبَبِ تَغْيِيرِ اِسْمِهَا مِن بَرَّةَ إِلَى جُوَيْرِيَةَ.

كَانَتْ بَرَّةُ زَوْجَةً لِأَحَدِ رِجَالَاتِ «بَنِي المُصْطَلِقِ» الذِينَ قُتِلُوْا فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، ويُدْعَىٰ: «مُسَافِعُ بنُ صَفْوَانَ».

حَدِيْثُ عَائِشَةَ رضي الله عنها

ولِنَتْرُكَ الآنَ الحَدِيْثَ إِلَى السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها فِهِيَ أَوْلَى بِإِتْمَامِهِ وتَفْصِيْلِهِ مِنَّا، قَالَتْ رضي الله عنها:

أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَ بَنِي المُصْطَلِقِ، فَأَخْرَجَ الخُمْسَ مِنْهُ، ثُمَّ قَسَمَهُ بَيْنَ النَّاسِ، فَأَعْطَى الفَارِسَ سَهْمَيْنِ والرَّاجِلَ سَهْمَاً.

فَوَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَرِثِ بنِ أَبِي ضِرَارٍ فِي سَهْمِ «ثَابِتِ بنِ قَيسٍ» الأَنْصَارِيِّ، وكَانَتْ تَحْتَ ابنِ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ:

مُسَافِعُ بنُ صَفْوَانَ بنِ مَالِكِ بنِ جُذَيْمَةَ ذُو الشَّقْرِ، فَقُتِلَ عَنْهَا.

فَكَاتَبَهَا ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ عَلَى نَفْسِهَا عَلَى تِسْعِ أُوَاقٍ، وكَانَتْ اِمْرَأَةً حُلْوَةً، لَا يَكَادُ يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ.

فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ عِنْدِي، إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ جُوَيْرِيَةُ تَسْأَلُهُ فِي كِتَابَتِهَا، فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا فَكَرِهْتُ دُخُولَهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَرَى مِنْهَا مِثْلَ الذِي رَأَيْتُ.

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنتُ الحَرِثِ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، فَوَقَعْتُ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ فَكَاتَبَنِي عَلَى تِسْعِ أُوَاقٍ، فَأَعِنِّي فِي فِكَاكِيْ.

فَقَالَ ﷺ:

ـ أَوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟

قَالَتْ:

ـ مَا هُوْ؟

فَقَالَ:

ـ أُؤَدِّي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وأَتَزَوَّجُك.

قَالَتْ:

ـ نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ قَدْ فَعَلْتُ.

الخَيْرُ العَظِيْمُ

وتُكَمِّلُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رضي الله عنها فَتَقُولُ:

ـ وخَرَجَ الخَبَرُ إِلَى النَّاسِ فَقَالُوْا:

ـ أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُسْتَرَقُّوْنَ !!؟

فَأَعْتَقُوْا مَا كَانَ بِأَيْدِهِم مِنْ سَبْيِ بَنِي المُصْطَلِقِ، فَبَلَغَ عِتْقُهُمْ مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ بِتَزْوِيْجِهِ إِيَّاهَا.

فَلَا أَعْلَمُ اِمْرَأَةً أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا، وذَلِكَ مُنْصَرَفُهُ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ المُرَيْسِيْعِ.

اِخْتَرْتُ اللهَ ورَسُولَهُ

وعَلِمَ أَبُوهَا الحَرِثُ بنُ ضِرَارٍ مَا كَانَ مِن شَأنِهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وكَيْفَ تَحَرَّرَ أَكْثَرُ بَنِي المُصْطَلِقِ بِسَبَبِهَا وبَرَكَتِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُبَاحِثَهُ فِي أَمْرِهَا، ولَمَّا أَذِنَ لَهُ بِالحُضُورِ وأُمِّنَ عَلَى نَفْسِهِ، وجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:

ـ إِنَّ ابْنَتِيْ لَا يُسْبَى مِثْلُهَا، فَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَلِّ سَبِيْلَهَا.

فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُبْتَسِمَاً:

ـ أَرَأَيْتَ إِنْ خَيَّرْنَاهَا أَلَيْسَ قَدْ أَحْسَنَّا ؟

قَالَ الحَرِثُ:

ـ بَلَى ... ، وأَدَّيْتَ مَا عَلَيْكَ.

فَأَتَاهَا أَبُوهَا، وهِيَ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ، مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا:

ـ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ خَيَّرَكِ فَلَا تَفْضَحِينَا.

فَقَالَتْ:

ـ إِنِّي قَدْ اخْتَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ

فَقَالَ لَهَا:

ـ قَدْ واللهِ فَضَحْتِنَا...

وخَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا، ولَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَسْلَمَ، ودَخَلَ فِي حَظِيْرَةِ الإِيْمَانِ.

وهُنَا نَتَسَاءَلُ: هَلْ أَسْلَمَ الحَرِثُ لِيُدَارِي مَوْقِفَ اِبنَتِهِ؟ أَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَلْقَى فِي رَوْعِهِ وقَلْبِهِ بِذْرَةَ الإِيْمَانِ ؟

والرَّأْيُ الثَّانِي أَرْجَحُ عِنْدَنَا لِمَا حَسُنَ مِنْ إِسْلَامِهِ رضي الله عنه.

مِنْ بَرَّةَ إِلَى جُوَيْرِيَةَ

رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فَقَالَ:

ـ كَانَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنتُ الحَرِثِ تُدْعَى بَرَّةُ، فَحَوَّلَ رسُولُ اللهِ ﷺ اِسْمَهَا فَسَمَّاهَا جُوَيْرِيَةُ، لأَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ: (خَرَجَ مِنْ عِنْدِ بَرَّةَ).

تِلْكَ يَا عَزِيْزِي القَارِئُ، لَطَائِفُ مِنْ أَخْلَاقِ المُصْطَفَى، وسُمُوِّ سَجَايَاهُ ﷺ.

الصّوَّامَةُ القَوَّامَةُ

فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ

يُرْوَى عَنْ تَقْوَاهَا رضي الله عنها كَثِيْرٌ مِنَ الوَقَائِعِ الطَّرِيفَةِ التِي تَدُلُّ عَلَى تَغَلْغُلِ الإِيْمَانِ والإِسْلَامِ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِهَا، وفِي صَمِيْمِ وُجْدَانِهَا.

فَقَدْ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلٍ الفَجْرَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا، فَجَلَسَ حَتَّى اِرْتَفَعَ الضُّحَى، ثُمَّ جَاءَهَا فِي بَيْتِهَا وهِيَ لَا تَزَالُ فِي مُصَلَّاهَا، حَيْثُ أَدَّتْ فَرِيْضَةَ الفَجْرِ خَلْفَهُ، فَقَالَتْ:

ـ مَا زِلْتُ بَعْدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ دَائِبَةً.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ كَلِمَاتٍ لَوْ وُزِنَّ لَرَجَحْنَ بِمَا قُلْتِ، قُلْتُ:

«سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَى نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ.»

ويَرْوِي أَيْضَاً عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنه:

ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الحَرِثِ يَوْمَ جُمُعَةٍ وهِيَ صَائِمَةٌ، فَقَالَ لَهَا:

ـ أَصُمْتِ أَمْسِ؟

قَالَتْ:

ـ لا.

قَالَ:

ـ أَفْتُرِيْدِيْنَ الصَّوْمَ غَدَاً؟

قَالَتْ:

لَا.

قَالَ: فَأَفْطِرِي إِذَاً.

بَيْنَهَا وبَيْنَ أَزْوَاجِهِ ﷺ

المَرْأَةُ هِيَ المَرْأَةُ...، فِي كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ، قَدْ رَكَّبَ الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى فِيهَا غَرَائِزَ مُعَيَّنَةً مُحَدَّدَةً، وهِيَ تَتَسَلْسَلُ فِي الإِنْسَانِيَّةِ والبَشَرِيَّةِ مُنْذُ حَوَّاءَ إِلَى يَومِنَا هَذَا، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ ومَنْ عَلَيْهَا.

ولَقَدْ سَبَقَ لَنَا وتَحَدَّثْنَا فِي أَكْثَرَ مِنْ مُنَاسَبَةٍ عَنْ عَاطِفَةِ «الغِيْرَةِ» التِي كَانتْ تَثُورُ وتَتَفَاعَلُ فِي نُفُوسِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ.

إِحْدَاهُنَّ تَغَارُ مِنَ الأُخْرَى ومِنَ الجَدِيْدَةِ دَائِمَاً عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ.

ولَقَدْ كَوَّنَّ فِيْمَا بَيْنَهُنَّ مَا يُشْبِهُ الأَحْزَابَ، فَكَانَتْ عَائِشَةُ و حَفْصَةُ فِي جَبْهَةٍ وَاحِدَةٍ، وكَذَلِكَ الأُخْرَيَاتُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِيْنَ.

ونُحِبُّ أَنْ نَقُولَ بِأَنَّ تِلْكَ الغَيْرَةَ قَدْ تَهَذَّبَتْ كَثِيْرَاً، وخَفَّتْ حِدَّتُهَا بِفَضْلِ تَوْجِيْهَاتِ الرَّسُوْلِ العَظِيْمِ والنَّبِيِّ الكَرِيْمِ ﷺ، وأَيْضَاً فإِنَّ تِلْكَ الغَيْرَةَ لَمْ تَكُنْ لِتَخْرُجَ عَنْ إِطَارٍ مَحْدُوْدٍ إِلَى مَجَالِ الأَذَى أَوِ الضَّرَرِ، مَعَاذَ اللهِ.

ولَقَدْ جَاءَتْ جُوَيْرِيَةُ رضي الله عنها ذَاتَ يَوْمٍ ولَمْ يَمْضِ عَلَى زَوَاجِهَا إِلَّا أَيَّامٌ قَلَائِلُ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وسِيْمَاءُ الحُزْنِ والأَسَى بَادِيَةٌ فِي عَيْنَيْهَا الدَّامِعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَتْ:

يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ نِسَاءَكَ يَفْخَرْنَ عَلَيَّ، يَقُلْنَ: لَمْ يَتَزَوَّجْكِ رَسُولُ اللهِ ...

فَهَدْهَدَ ﷺ مِنْ ثَوْرَةِ نَفْسِهَا، وطَمْأَنَ مِنْ حِدَّةِ غَضْبَتِهَا وحُزْنِهَا إِذْ قَالَ لَهَا:

ـ أَلَمْ أُعَظِّمْ صَدَاقَكِ؟ أَلَمْ أُعْتِقْ أَرْبَعِيْنَ مِنْ قَوْمِكِ ؟

فَسَكَتَتْ جُوَيْرِيَةُ سُكُوتَ الرِّضَى، ومَسَحَتْ رضي الله عنها دَمْعَتَيْنِ جَرَتَا عَلَى وَجْنَتَيْهَا.

أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ

ولَقَدْ أَضْحَتْ رضي الله عنها بِإِكْرَامِ النَّبِيِّ ﷺ لَهَا، وإِعْزَازِهِ لِمَكَانَتِهَا دُرَّةً ثَمِيْنَةً فِي عِقْدِ أَزْوَاجِهِ الفَاضِلَاتِ.

وضُرِبَ عَلَيْهَا الحِجَابُ مِثْلَهُنَّ، وفُرِضَ عَلَيْهَا مَا فُرِضَ عَلَيْهِنَّ مِنَ الوَاجِبَاتِ والحُقُوْقِ أَيْضَاً.

وكَانَ يُقْرَعُ لَهَا مِثْلَهُنَّ فِي الخُرُوجِ مَعَهُ ﷺ فِي الغَزَواتِ، والحَجِّ والعُمْرَةِ...

وكَذَلِكَ كَانَ يُسْهَمُ لَهَا فِيمَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ مِنْ غَنِيْمَةٍ وقَدْ ذُكِرَ أَنَّ رِسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَطْعَمَ جُوَيْرِيَةَ يَوْمَ خَيْبَرَ ثَمَانِيْنَ وَسْقَاً تَمْرَاً، وعِشْرَيْنَ وَسْقَاً قَمْحَا.

كَمَا حَجَّتْ واعْتَمَرَتْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ

اِشْتَدَّتِ العِلَّةُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فاسْتَأْذَنَ مِنْ نِسَائِهِ ﷺ ومِنْ بَيْنِهِنَّ جُوَيْرِيَةَ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ التِي كَانَتْ أَحَبَّهُنَّ إِلَى قَلْبِهِ، فَأَذِنَّ لَهُ.

وكَانَتْ جَوِيْرِيَةُ تَأْتِي وتَمْكُثُ لِلاطْمِئْنَانِ عَلَيْهِ، وحِيْنَ تَخْلُو بِنَفْسِهَا فِي دَارِهَا، تِبْكِي وتَتَأَلَّمُ ... ، وتَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُخَفِّفَ مَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَلَمِ المَرَضِ.

فَلَمَّا كَانَ يُومُ وَفَاتِهِ ﷺ ولُحُوقِهِ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى، كَانَتْ جُوَيْرِيَةُ بَيْنَ الحُضُورِ، بَل كَانَتْ أَدْنَى النَّاسِ مِنْ فِرَاشِهِ، تَتَأَمَّلُ الوَجْهَ الشَّرِيفَ، وتَذْكُرُ الأَيَّامَ الخَالِيَةَ، وتَنْظُرُ إِلَى المُسْتَقْبَلِ المَجْهُولِ بِعَيْنِ القَلَقِ، ثُمَّ تَبْكِي ولَكِنْ دُونَ نَحِيْبٍ أَوْ عَوِيْلٍ.

وانْفَضَّ المَأْتَمُ...

وعَادَ كُلٌّ إِلَى دَارِهِ ومَأْوَاهُ، وعَادَتْ جُوَيْرِيَةُ إِلَى وَحْدَتِهَا لَيْسَ لَهَا مِنْ أَنِيْسٍ أَوْ جَلِيْسٍ، سِوَى اِتِّصَالِهَا الدَّائِمِ بِاللهِ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ عِبَادَتِهَا، صِيَامَاً وقِيَامَاً.

ومَرَّتِ الأَعْوَامُ...

فَكَانَتْ رضي الله عنها شَأْنَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ جَمِيْعَاً مَوْضِعَ حَفَاوَةٍ واحْتِرَامٍ وتَقْدِيْرٍ مِنْ أَجِلَّاءِ الصَّحَابَةِ.

تَصِلُهَا أُعْطِيَاتُهَا ومُخَصَّصَاتُهَا مِنْ بَيْتِ المَالِ فَتُنْفِقُهَا كُلَّهَا عَلَى المَسَاكِيْنِ والمُحْتَاجِيْنَ والفُقَرَاءَ، تَأَسِّيَاً بِسَيِّدِ الخَلْقِ ﷺ، الذِي عَلَمَهُنَّ

أَعْظَمَ الأُمْثُوْلَاتِ، وأَسْمَى الدُّرُوسِ.

وكَانَتْ تَقْصِدُ إِلَى الحَجِّ مِنْ كُلِّ مَوْسِمٍ عِنْدَمَا يُؤَذِّنُ المُؤَذِّنُ بِالرَّحِيلِ، فَتُؤَدِّي المَنَاسِكَ بِقَلْبٍ طَاهِرٍ خَاشِعٍ، ونَفْسٍ وَضَّاءَةٍ مُشْرِقَةٍ، وتَعُودُ إِلَى المَدِيْنَةِ حَيْثُ مُسْتَقَرُّهَا بِجِوَارِ الحَبِيْبِ ﷺ.

فَتُقِيْمُ فِي بَيْتِهَا وحُجْرَتِهَا عَابِدَةً خَاشِعَةً، وتَسْتَأْذِنُ فِي زِيَارَةِ الرِّمْسِ الطَّاهِرِ بَيْنَ الحِيْنِ والآخَرِ لِتَقِفَ عِنْدَهُ بِكُلِّ صَفَائِهَا وحُبِّهَا واحْتِرَامِهَا، مُسْتَرْجِعَةً أَيَّامَ الذِكْرَى، مُتَشَوِّقَةً لِيَومِ اللِقَاءِ فِي الجِوارِ الكَرِيْمِ.

وَفَاتُهَـا

ولَمَّا أَطَلَّ شَهْرُ رَبِيْعٍ الأَوَّلِ مِنَ العَامِ السَّادِسِ والخَمْسِيْنَ لِلهِجْرَةِ كَانَتْ جُوَيْرِيَةُ قَدْ شَاخَتْ ووَهَنَ مِنْهَا العَظْمُ، وضَعُفَتْ...

ووَقَعَتْ تَحْتَ وَطْأَةِ المَرَضِ الذِي لَمْ يَنْفَعْ مَعَهُ عِلَاجٌ، ثُمَّ وافَتْهَا المَنِيَّةُ، وانْتَقَلَتْ إِلَى الجُوَارِ الكَرِيْمِ.

وصَلَّى عَلَيْهَا وَالِيْ المَدِيْنَةِ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ «مَرْوَانُ بنُ الحَكَمِ»

وكَانَتْ جَنَازَتُهَا مَشْهُوْدَةً.

رَضِيَ اللهُ عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ، الحَسِيْبَةِ النَّسِيْبَةِ، الطَّاهِرَةِ العَفِيْفَةِ، التَّقِيَّةِ النَّقِيَّةِ، الصَّوَّامَةِ القَوَّامَةِ، المُتَصَدِّقَةِ الكَرِيْمَةِ، جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الحَرِثِ، وأَكْرَمَ مَثْوَاهَا.

❊ ❊ ❊

حَفْصَـة

أمّ المؤمنين ﴿رضي الله عنها﴾

نَسَبُهَا ومَولِدُهَا

هي: حَفْصَةُ بِنْتُ عَمَرَ بنِ الخَطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ، المَخْزُومِيَّةُ القُرَشِيَّةُ، وأُمُّهَا زَيْنَبُ بِنْتُ مَظْعُونٍ، أُخْتُ عُثْمَانَ بنِ مَظْعُونٍ ﴿رضي الله عنهما﴾.

أَصِيْلَةُ الحَسَبِ والنَّسَبِ، فِي الذِّرْوَةِ مِنْ قُرَيْشٍ مَكَانَةً. وُلِدَتْ ـ كَمَا تَذْكُرُ رِوَايَاتُ التَّارِيخِ ـ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ. بِخَمْسِ سَنَواتٍ، ويُؤَرِّخُونَ لِمَوْلِدِهَا بِبِنَاءِ قُرَيْشٍ الكَعْبَةَ بَعْدَ أَنْ جَرَفَهَا السَّيْلُ.

وعَلَى هَذَا فَيَكُونُ مَوْلِدُهَا فِي نَفْسِ تَارِيْخِ مَوْلِدِ «فَاطِمَةَ» ﴿رضي الله عنها﴾، ابْنَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

نَشْأَتُهَـا

نَشَأَتْ فِي بَيْتِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﴿رضي الله عنه﴾ نَشْأَةً كَرِيْمَةً عَزِيْزَةً، تَحْتَرِمُ الأَبَ وتَخْشَاهُ فِي آنٍ مَعَاً، لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةٍ وَقَسْوَةٍ وغِلْظَةٍ فِي جَاهِلِيَّتِهِ.

مَرَّتْ أَعْوَامُهَا الأُوْلَى وهِيَ تَرَىٰ بِأُمِّ عَيْنِهَا الصِّرَاعَ العَنِيْفَ بَيْنَ الفِئَةِ المُؤْمِنَةِ بِقِيَادَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبَيْنَ الكَثْرَةِ الكَافِرَةِ بِقِيَادَةِ الأَفْذَاذِ مِنْ قُرَيْشٍ، ومِنْ بَيْنِهِمْ وَالِدُهَا ... لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُدْرِكُ أَوْ تَتَأَثَّرُ بِذَلِكَ إِلَّا فِي حُدُودِ طَاقَةِ عَقْلِهَا ووِجْدَانِهَا.

إِسْلَامُهَا

عَادَ عُمَرُ ذَاتَ يَومٍ إِلَى دَارِهِ بِوَجْهٍ غَيْرِ الذِي خَرَجَ بِهِ فِي الصَّبَاحِ، وبِلِسَانٍ ولَهْجَةٍ غَيْرِ مَا كَانَ يَنْطِقُ بِهِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّهُ مُتَهَلِّلُ الوَجْهِ يَشِعُّ نُوْرَاً وحُبُوْرَاً... طَلقُ المُحَيَّا، مَبْسُوطُ اللِسَانِ بِالكَلَامِ اللَيِّنِ المَعْسُولِ، لَا شَكَّ أَنَّ تَغْيِيْرَاً كَبِيْرَاً قَدْ حَصَلَ.

وعَرَفَ أَهْلُ البَيْتِ بِإِسْلَامِ عُمَرَ فَفَرِحُوْا وانْشَرَحُوْا، وازْدَادُوْا فَرَحَاً بِالتَّغَيُّرِ...، لَقَدْ زَالَتْ عَنْ سَمَاءِ الدَّارِ سَحَابَةُ التَّجَهُّمِ وانْطَلَقَتْ فِي أَرْجَائِهِ بَسْمَةُ الرِّضَى كَالنُّوْرِ السَّارِي.

وأَسْلَمَتْ حَفْصَةُ ...، وأَقْبَلَتْ وهِيَ لَا تَزَالُ صَغِيْرَةً، عَلَى الدِّيْنِ بِكُلِّ جَوَارِحِهَا، بِفُؤَادِهَا وعَقْلِهَا وحِسِّهَا، وتَغَلْغَلَ الإِسْلَامُ فِي أَعْمَاقِهَا.

زَوَاجُهَا

وخَطَبَهَا مِنْ أَبِيْهَا «خُنَيْسُ بنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ» الشَّابُّ المُسْلِمُ المُؤْمِنُ، فَرَحَّبَ عَمَرُ بِهِ وأَكْرَمَ مَثْوَاهُ.

وانْتَقَلَتْ حَفْصَةُ مِنْ دَارِ ابنِ الخَطَّابِ إِلَى دَارِ زَوْجِهَا خُنَيْسٍ، وعَاشَتْ مَعَهُ فِي وِفَاقٍ وَمَحَبَّةٍ وَوِئَامٍ.

عَاشَتْ زَوْجَةً تَعْرِفُ حُقُوْقَ وَوَاجِبَ الزَّوْجِيَّةِ، تُقَدِّرُ المَسْؤُولِيَّةَ، وتَضْطَلِعُ بِأَعْبَاءِ بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ وَوَاجِبَاتِهِ، وتَرْعَى أُمُوْرَهُ بِحِكْمَةِ المَرْأَةِ النَّاضِجَةِ العَاقِلَةِ.

المُهَاجِرَةُ

ثُمَّ كَانَ الحَدَثُ العَظِيْمُ فِي حَيَاةِ المُسْلِمِينَ، وهُوَ هِجْرَتُهُم مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِيْنَةِ حَيْثُ أَخَذَتْ الدَّعْوَةُ مَسَارَاً جَدِيْدَاً، وهَاجَرَتْ حَفْصَةُ مَعَ زَوْجِهَا وأَهْلِهَا إِلَى المَدِيْنَةِ فِي رَكْبِ المُسْلِمِيْنَ ومَوْكِبِ المُؤْمِنِيْنَ.

الأَرْمَلَةُ

وبَعْدَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ التِي انْتَصَرَ فِيهَا المُسْلِمُونَ عَلَى المُشْرِكِيْنَ، وكَانَتْ هَزِيْمَةُ قُرَيْشٍ فِيْهَا سَاحِقَةً مُهِيْنَةً، عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى المَدِيْنَةِ التِي اِسْتَقْبَلَتْهُ وأَصْحَابَهُ المُظَفَّرِيْنَ اِسْتِقْبَالَاً حَافِلَاً وعَظِيْمَاً...

لَكِنَّ قَلْبَاً مِنْ قُلُوبِ المُسْلِمَاتِ المُؤْمِنَاتِ كَانَ يَئِنُّ مِنَ الحُزْنِ ويَضِجُّ بِالهَمِّ والغَمِّ، إِنَّهُ قَلْبُ حَفْصَةَ التِي كَانَتْ تُلَازِمُ فِرَاشَ زَوْجِهَا المَرِيْضِ، خُنَيْسُ الذِي كَانَ يُعَانِيْ مِنْ سَكَرَاتِ المَوْتِ ...

وأَسْرَعَ ابنُ الخَطَّابِ إِلَى دَارِ اِبْنَتِهِ لِيَطْمَئِنَّ عَلَى خَتَنِهِ «صِهْرِهِ»، ولَكِنْ

سَبَقَ السَّيْفُ العَذَلَ، ولَمْ تُفْلِحْ عَقَاقِيْرُ الأَطِبَّاءِ ولَا مُعَالَجَاتُهُمْ فِيْ شِفَائِهِ، فَقَضَى مَأْسُوفاً عَلَى شَبَابِهِ، وتَرَمَّلَتْ حَفْصَةُ رضي الله عنها وهِيَ فِي سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ.

وانْطَوَتْ حَفْصَةُ عَلَى نَفْسِهَا حَزِيْنَةً يَائِسَةً صَابِرَةً، مُحْتَسِبَةً فَقِيْدَهَا الغَالِيَ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ تَعَالَى ورَحْمَتِهِ، وأَسْلَمَتْ أَمْرَهَا لِلبَارِيْ عَزَّ وجَلَّ، يُقَدِّرُ مِنْ أَمْرِ مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِهَا، ويَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

حُزْنُ عُمَرَ

لَقَدْ تَأَلَّمَ عُمَرُ رضي الله عنه كَثِيْرَاً لِفُقْدَانِ خُنَيْسٍ وبُكَاءِ حَفْصَةَ وتَرَمُّلِهَا، فَكَانَ يَزُوْرُهَا ويُوَاسِيْهَا ويُحَاوِلُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهَا مَا تُعَانِيْهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهَا وفِيْ عَيْنِهِ دَمْعَةٌ، وفِي قَلْبِهِ حَسْرَةٌ، وفِي حَلْقِهِ غُصَّةٌ.

وفِي ذَاتِ يَوْمٍ وقَدْ بَلَغَ اليَأْسُ والحُزْنُ مَدَاهُ فِي نَفْسِهِ، الْتَقَى فِي الطَّرِيقِ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ الذِي فَقَدَ زَوْجَتَهُ «رُقَيَّةَ» بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الزَّوَاجَ مِنْ حَفْصَةَ فَأَجَابَهُ عُثْمَانُ:

ـ مَا لِي فِي النِّسَاءِ حَاجَةٌ ...

لَمْ يَقُلْهَا بِجَفْوَةٍ أَوْ غِلْظَةٍ، ولَكِنْ بِإِحْسَاسِ الزَّوْجِ الحَزِيْنِ الذِي لَا يَزَالُ يَعِيْشُ جَوَّ حُبِّهِ لِزَوْجَتِهِ الحَبِيْبَةِ.

ثُمَّ اِلْتَقَى عُمَرُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنهما، فَعَرَضَ زَوَاجَ حَفْصَةَ عَلَيْهِ، فَسَكَتَ ولَمْ يُجِبْ.

فَغَضِبَ عُمَرُ كَثِيْرَاً وأَتَى رِسُولَ اللهِ ﷺ والثُّوْرَةُ بَادِيَةٌ فِي عَيْنَيْهِ، وحِيْنَ اِسْتَمَعَ إِلَيْهِ ﷺ قَالَ لَهُ:

ـ يُزَوِّجُ اللهُ تَعَالَى عُثْمَانَ خَيْرَاً مِنْ اِبْنَتِكَ، ويُزَوِّجُ اِبْنَتَكَ خَيْرَاً مِنْ عُثْمَانَ.

فَهَدَأَ غَضَبُهُ، وخَرَجَ مِنْ عِنْدِ رِسُولِ اللهِ ﷺ يَحْمِلُ بَعْضَ الطُّمَأْنِيْنَةَ.

خَيْرٌ مِنْ عُثْمَانَ

وإِذَا بِالبَابِ يُقْرَعُ ...

إِنَّهُ بَابُ دَارِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، والقَارِعُ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، والطَّلَبُ هُوَ زَوَاجُهُ ﷺ مِنْ حَفْصَةَ.

لَقَدْ كَانَتْ فَرْحَةُ عُمَرَ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تُوصَفَ، وأَكْبَرَ مِنْ أَنْ يَخُطَّهَا قَلَمٌ...

لَقَدْ أَصْبَحَ سَيِّدُ المُرْسَلِيْنَ زَوْجَاً لِحَفْصَةَ الأَرْمَلَةِ الحَزِيْنَةِ، تِلْكَ التِي عَرَضَهَا وَالِدُهَا عَلَى اِثْنَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ، ومِنْ أَقْرَبِ المُقَرَّبِيْنَ إِلَيْهِ، فَرَفَضَ أَحَدُهُمَا وسَكَتَ الآخَرُ.

حَدِيْثُ عُمَرَ

قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه:

ـ أَتَيْتُ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ فَقَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِيْ، فَمَكَثَ لَيَالِيَ ثُمَّ لَقِيَنِي فَقَال:

ـ قَدْ بَدَا لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِيَ هَذَا.

فَلَقِيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ زَوَّجْتُكَ حَفْصَةَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يُرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّيْ عَلَى عُثْمَانَ.

فَمَكَثْتُ لَيَالِيَ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِيْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ:

ـ لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِيْنَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا؟

فَقُلْتُ: نَعَمْ،

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:

ـ إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيْمَا عَرَضْتَ إِلَّا أَنِّي قَدْ كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَمَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ، ولَوْ تَرَكَهَا رَسُولُ اللهِ قَبِلْتُهَا.

ولَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ رضي الله عنهما، فَكَانَ خَيْرَاً مِنْ عُثْمَانَ، تَزَوَّجَ عُثْمَانُ مِنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَانَتْ خَيْرَاً مِنْ حَفْصَةَ.

الزّوْجَةُ فِي الجَنَّةِ

أَقَامَتْ حَفْصَةُ رضي الله عنها فِيْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، فَأَدَّتْ قِسْطَهُ وحَقَّهُ مِنَ الإِخْلَاصِ والوَفَاءِ، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، والتَّقْوَى والعِبَادَةِ.

لَكِنَّهَا كَانَتْ بِحُكْمِ تَرْكِيبِهَا الأُنْثَوِيِّ تَتَأَثَّرُ بِعَوَامِلِ الغَيْرَةِ، فَلَمْ يَخْلُ صَدْرُهَا وقَلْبُهَا مِنْ ضَغْطِ هَذَا العَامِلِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ.

كَمَا أَنَّهَا تَزَعَّمَتْ هِيَ وعَائِشَةُ رضي الله عنها حِزْبَ المُطَالَبَةِ بِزِيَادَةِ النَّفَقَةِ، مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا أَدَّى إِلَى غَضَبِ رَسُولِ اللهِ ومُقَاطَعَتِهِ أَزْوَاجَهُ شَهْرَاً كَامِلَاً.

وانْتَشَرَ خَبَرُ ذَلِكَ، وظَنَّ عُمَرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ طَلَّقَ حَفْصَةَ لِأَنَّهَا أَغْضَبَتْهُ، فَجَاءَهَا مُعَاتِبَاً بِقَسْوَةٍ وشِدَّةٍ وأَغْلَظَ لَهَا فِي القَوْلِ حَتَّى بَكَتْ وانْتَحَبَتْ.

ولَكِنْ ظَهَرَ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا خَاطِرَاً مَرَّ فِي ذِهْنِ النَّبِيِّ ﷺ، وأَنَّ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامَ قَدْ جَاءَهُ قَائِلَاً:

ـ لَا تُطَلِّقْ حَفْصَةَ فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وإِنَّهَا مِنْ نِسَائِكَ فِي الجَنَّةِ.

وعَلَى ذِكْرِ الصَّوْمِ القَوْمِ، فَإِنَّ حَفْصَةَ رضي الله عنها اِشْتُهِرَتْ شُهْرَةً ذَائِعَةً بِأَنَّهَا كَانَتْ قَلِيْلاً مَا تُفْطِرُ، تَقُومُ أَكْثَرَ اللَّيْلِ لِلصَّلَاةِ والدُّعَاءِ والذِّكْرِ...

تَتَهَجَّدُ وتَتَعَبَّدُ وتَصِلُ قَلْبَهَا ورُوحَهَا وذَاتَهَا بِاللهِ العَلِيِّ القَدِيْرِ.

الدُّعَابَةُ البَرِيْئَةُ

وصَادَفَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنْ كَانَتْ عَائِشَةُ وحَفْصَةُ رضي الله عنهما مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِحْدَى غَزَوَاتِهِ.

ولَاحَظَتْ حَفْصَةُ اِسْتِمْرَارَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الاِقْتِرَابِ مِنْ هَوْدَجِ عَائِشَةَ ومُحَادَثَتِهَا ومُسَايَرَتِهَا، فَشَعَرَتْ بِالغِيْرَةِ تَعْمَلُ عَمَلَهَا فِي نَفْسِهَا، وأَضْمَرَتْ حِيْلَةً...

قَالَتْ لِعَائِشَةَ وقَدْ نَزَلَ الرَّكْبُ لِلرَّاحَةِ: مَاذَا لَو تَبَادَلْنَا أَنَا وأَنْتِ الرَّكُوبَ؟! فَوَافَقَتْهَا عَائِشَةُ.

وَلَمَّا نَهَضَ القَوْمُ لِلرَّحِيْلِ، كَانَتْ حَفْصَةُ فِي هَوْدَجِ عَائِشَةَ، وعَائِشَةُ فِي هَوْدَجِ حَفْصَةَ:

وعَادَ ﷺ يَقْتَرِبُ مِنَ الهَوْدَجِ ويُحَادِثُ مَنْ فِيْهِ ويُسَلِّيهَا وهُوَ يَظُنُّهَا عَائِشَةَ، فَلَمَّا اكْتَشَفَ الحَقِيْقَةَ لَمْ يَغْضَبْ ولَمْ يَثُرْ، وحَمَلَ ذَلِكَ عَلَى

مَحْمَلِ الدُّعَابَةِ البَرِيْئَةِ والمُزَاحِ الذِيْ لَا يَضُرُّ ولَا يُؤْذِيْ، وعَزَاهُ إِلَى نَفْسِيَّةِ المَرْأَةِ التِي لَا تَنْفَكُّ تَغَارُ أَبَدَاً.

بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ

مَرَّتْ حَيَاةُ حَفْصَةَ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَحَبَّ مَا تَشْتَهِيْ وتُرِيْدُ، وحَفِظَتْ عَنِ المُصْطَفَى ﷺ بَعْضَ أَقْوَالِهِ الحَكِيْمَةِ وتَوْجِيْهَاتِهِ السَّامِيَةِ، فَسَلَكَتْ مَسْلَكَهَا، وعَمِلَتْ بِمُقْتَضَاهَا، ووَعَاهَا صَدْرُهَا وقَلْبُهَا.

ولَمَّا دَنَتْ سَاعَةُ الفِرَاقِ، ولَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالرَّفِيْقِ الأَعْلَى، بَكَتْهُ حَفْصَةُ بِدَمْعٍ هَتُونٍ، وقَلْبٍ مَحْزُوْنٍ، ولَزِمَتْ دَارَهَا لَا تُفَارِقُهَا أَبَدَاً، كَانَتِ العِبَادَةُ سَلْوَتَهَا والتَّصَدُّقُ عَلَى الفُقَرَاءِ والمَسَاكِيْنَ عَادَتَهَا.

فِي عَهْدِ الخَلِيْفَتَيْنِ

أَضْحَتْ حَفْصَةُ «أُمَّ المُؤْمِنِيْنَ» رضي الله عنها، فِي عَهْدِ الخَلِيْفَتَيْنِ أَبِيْ بَكْرٍ وعُمَرَ مَوْضِعَ تَقْدِيْرٍ واحْتِرَامٍ، حُرْمَتُهَا مِنْ حُرْمَةِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، حَتَّى إِنَّ وَالِدَهَا الفَارُوْقَ كَانَ يُعَظِّمُ هَذَا المَعْنَى ويُقَدِّسُ تِلْكَ المَكَانَةَ، إِكْرَامَاً ووَفَاءً لِلنَّبِيِّ الرَّاحِلِ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ.

الأَدِيْبَةُ النَّاصِحَةُ

كَانَتْ حَفْصَةُ رضي الله عنها أَدِيْبَةً كَاتِبَةً ذَاتَ فَصَاحَةٍ وبَيَانٍ وبَلَاغَةٍ، قَالَتْ فِي مَرَضِ أَبِيْهَا، بَعْدَ أَنْ طُعِنَ بِخَنْجَرٍ مَسْمُوْمٍ وهُوَ يُؤَدِّيْ الصَّلَاةَ:

يَا أَبَتَاهُ مَا يَحْزُنُكَ وِفَادَتُكَ عَلَى رَبٍّ رَحِيْمٍ ولَا تَبِعَةَ لِأَحَدٍ عَنْدَكَ، ومَعِيَ لَكَ بِشَارَةٌ لَا أُذِيْعُ السِّرَّ مَرَّتَيْنِ، ونِعْمَ الشَّفِيْعُ لَكَ العَدْلُ، لَمْ تَخْفَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَشْنَةُ عِيْشَتِكَ وعَفَافُ نَهْمَتِكَ، وأَخْذُكَ بِأَكْظَامِ المُشْرِكِيْنَ والمُفْسِدِيْنَ فِي الأَرْضِ.

المُحَدِّثَةَ

رَوَتْ حَفْصَةُ رضي الله عنها عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَمَانَةِ النَّاقِلِ كَثِيْرَاً مِنَ الأَحَادِيْثِ التِي تَتَعَلَّقُ بِالأَحْكَامِ والسُّلُوكِ، ورَوَى عَنْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ و التَّابِعِيْنَ كَأَخِيْهَا «عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ» وابْنِهِ «حَمْزَةَ».

فَأَسْهَمَتْ بِمَا حَفِظَتْ وَوَعَتْ، وفَقِهَتْ وعَلِمَتْ، بِإِثْرَاءِ هَذَا العِلْمِ الدِّيْنِيِّ العَظِيْمِ مِنْ عُلُومِ الشَّرِيْعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ.

كَانَتْ أَمِيْنَةً عَلَى بَيْتِهَا وقُدْسِيَّتِهِ، وزَوْجِهَا ومَكَانَتِهِ، وتَقْوَاهَا ووَرَعِهَا وزُهْدِهَا، خُصُوْصَاً بَعْدَ اِنْتِقَالِ النَّبِيِّ الكَرِيْمِ إِلَى المَلَأِ الأَعْلَى.

إِكْرَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهَا

وعَلَى عَادَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الإِسْهَامِ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ حِيْنَ يَخْرُجُ لِغَزْوَةٍ أَوْ قِتَالٍ، كَانَتْ حَفْصَةُ ذَاتَ مَرَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ السِّهَامِ، فَخَرَجَتْ مَعَهُ ﷺ.

تَقُومُ فِي خَيْمَتِهَا وخِبَائِهَا، ثُمَّ إِذَا أَسْفَرَتِ المَعْرَكَةُ عَنْ وَجْهِهَا وانْجَلَى غُبَارُهَا، شَمَّرَتْ رضي الله عنها عَنْ سَاعِدَيْهَا وخَاضَتْ بَيْنَ الجَرْحَى، تَسْقِيْ العِطَاشَ، وتُدَاوِيْ المَكْلُومِيْنَ، وتُخَفِّفُ مِنْ أَلَمِ المُصَابِيْنَ، وتُضَمِّدُ جِرَاحَ المُعَذَّبِيْنَ.

وفِي تِلْكَ الغَزْوَةِ نَفَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ كَمَا تَقُولُ بَعْضُ رِوَايَاتِ التَّارِيْخِ ـ ثَمَانِيْنَ وَسْقاً قَمْحاً، وهَذَا إِكْرَامٌ زَائِدٌ مِنَ النَّبِيِّ الكَرِيْمِ، واعْتِرَافٌ مِنْهُ ﷺ بِفَضْلِ وجُهْدِ السَّيِّدَةِ المَصُونِ، حَفْصَةَ "أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ"

أَخْلَاقُهَا وفَضَائِلُهَا

سَبَقَ وقُلْنَا إِنَّ السَّمَاءَ قَدْ شَهِدَتْ لِحَفْصَةَ بِالمَثَلِ الأَعْلَى فِي التَّدَيُّنِ والتَّقْوَى، حِيْنَ قَالَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

إِنَّهَا صَوَّامٌ قَوَّامٌ.

ولَقَدْ حَدَّثَ «جُوَيْرِيَةُ بنُ أَسْمَاءَ» عَنْ «نَافِعٍ» قَالَ:

ـ مَا مَاتَتْ حَفْصَةُ حَتَّى مَا تُفْطِرَ.

أَمَّا حَجُّهَا ... فَحَدِّثْ عَنْهُ ولَا حَرَجَ.

لَقَدْ حَجَّتْ حَجَّةَ الوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ لَمَّا اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى جِوَارِهِ كَانَتْ رضي الله عنها كُلَّمَا أَذَّنَ مُؤَذِّنُ الحَجِّ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ وعَامٍ، تَهَيَّأَتْ لِزِيَارَةِ البَيْتِ العَتِيْقِ، وأَدَاءِ المَنَاسِكَ، مِنْ طَوَافٍ وَسَعْيٍ ووُقُوْفٍ، وتَصَدُّقٍ عَلَى الفُقَرَاءِ والمَسَاكِيْنَ و تُنْفِقُ بِلا حِسَابٍ، لِأَنَّ مَا عَنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى.

فَكَانَ كُلُّ مَا يُقْسَمُ لَهَا مِنْ فَيْءٍ ومَا يَأْتِيهَا مِنْ أُعْطِيَاتِ الخُلَفَاءِ، تَجْعَلُهُ فِي مِيْزَانِ حَسَنَاتِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، بِصَرْفِهِ عَلَى المَسَاكِيْنَ والضُّعَفَاءِ والمُحْتَاجِيْنَ.

آخِرُ الأَيَّامِ

كَانَتْ دَارُهَا فِي المَدِيْنَةِ، حُجْرَتُهَا فِي بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مَحَطَّ أَنْظَارِ الصَّحَابَةِ، يَأْتُونَهَا زَائِرِيْنَ ومُسْتَفْسِرِيْنَ ومُتَبَرِّكِيْنَ، مُتَعَلِّمِيْنَ وسَائِلِيْنَ، واصِلِيْنَ أَوْ مَوْصُوْلِيْنَ.

لَا تَخْرُجُ مِنَ الدَّارِ إِلَّا إِلَى المَسْجِدِ لِأَدَاءِ صَلَاةٍ أَوْ زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ زِيَارَةِ الوَالِدِ الحَبِيْبِ المُسَجَّى بِجِوَارِ المُصْطَفَى الزَّوْجِ الوَفِيِّ الكَرِيْمِ. ثُمَّ تَمْسَحُ دُمُوعَهَا وقَدْ اِسْتَذْكَرَتِ الأَيَّامَ الخَوَالِيَ، وتَعُودُ أَدْرَاجَهَا إِلَى البَيْتِ، يَحْتَضِنُهَا بِحَنَانٍ، وتُدْلِفُ إِلَيْهِ بِشَوْقٍ.

وَفَاتُهَا

وفِي العَامِ الخَامِسِ والأَرْبَعِيْنَ لِلهِجْرَةِ وَافَاهَا الأَجَلُ المَحْتُومُ، إِثْرَ إِرْهَاقٍ ومَرَضٍ، ولَبَّتْ نِدَاءَ رَبِّهَا وأَسْلَمَتِ الرُّوحَ، وكَانَتْ جَنَازَتُهَا مَشْهُودَةً، حُمِلَتْ عَلَى سَرِيْرٍ فِي نَعْشٍ إِلَى المَسْجِدِ، وكِبَارُ الصَّحَابَةِ يَتْبَعُونَهَا بِصَمْتٍ وإِجْلَالٍ ووَقَارٍ، وصَلَّى عَلَيْهَا مَرْوَانُ بنُ الحَكَمِ، أَمِيْرُ المَدِيْنَةِ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ، وكَذَلِكَ كَانَ يَتَقَدَّمُ الصُّفُوفَ كَالعَادَةِ الصَّحَابِيُّ الجَلِيْلُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

ورُوِيَ أَنَّ مَرْوَانَ حَمَلَ بَيْنَ عَمُوْدَيْ سَرِيْرِهَا مِنْ عِنْدِ دَارِ «بَنِي حَزْمٍ» إِلَى دَارِ «المُغِيْرَةِ بنِ شُعْبَةَ»، ثُمَّ حَمَلَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ دَارِ المُغِيْرَةِ إِلَى قَبْرِهَا.

ودُفِنَتْ فِي البَقِيعِ، وجَلَسَ مَرْوَانُ يَنْتَظِرُ حَتَّى فُرِغَ مِنْ دَفْنِهَا رضي الله عنها.

ونَزَلَ فِي قَبْرِهَا «عَبْدُ اللهِ» و «عَاصِمٌ» وَلَدَا عُمَرَ.

وكَانَتْ وَفَاتُهَا فِي شَهْرِ شَعْبَانَ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وبَارَكَ مَثْوَاهَا، وأَكْرَمَ مَنْزِلَتَهَا، وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ.

❊ ❊ ❊

زَيْنَبُ رضي الله عنها

بنتُ عمّةِ رسولِ اللهِ ﷺ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

زَيْدُ بنُ مُحَمَّدٍ

هُوَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ بنِ شُرَاحِيْلَ عَلَى التَّحْقِيقِ، وقِصَّتُهُ طَرِيْفَةٌ تَرْتَبِطُ اِرْتِبَاطاً وَثِيْقاً بِحَيَاةِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رضي الله عنها وكَذَلِكَ بَالنَّبِيِّ ﷺ

كَانَ طِفْلاً صَغِيْرَاً وَقَعَ فِي السَّبْيِ، إِثْرَ مَعْرَكَةٍ جَرَتْ بَيْنَ قَبِيْلَتِهِ وقَبِيْلَةٍ أُخْرَى مُغِيْرَةٍ.

ثُمَّ بِيْعَ فِي أَسْوَاقِ مَكَّةَ، فَاشْتَرَتْهُ خَدِيْجَةُ رضي الله عنها وحِيْنَ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَهْدَتْهُ إِلَيْهِ.

وأَخَذَ أَهْلُهُ يَبْحَثُونَ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ فِي مَكَّةَ.

فَجَاؤُوا لِخَلَاصِهِ وفِدْيَتِهِ.

فَلَمَّا دَخَلُوْا الدَّارَ عَرَّفُوا بِأَنْفُسِهِمْ وغَرَضِهِمْ وأَثْنَوْا عَلَى طِيْبِ عُنْصُرِ النَّبِيِّ ﷺ وكَرِيْمِ مَحْتِدِهِ، فَأَخْرَجَ إِلَيْهِمْ زَيْدَاً وَقَالَ لَهُ:

ـ أَتَعْرِفُ هَؤُلَاءَ ؟

فَقَالَ:

ـ نَعَمْ هَذَا أَبِي وهَذَا عَمِّي.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ أَتُرِيْدُونَ خَيْرَاً مِمَّا تَطْلُبُونَ؟

قَالُوا:

ـ ومَا هُوَ ؟

قَالَ:

ـ أُخَيِّرُهُ، فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ حُرٌّ لِوجْهِ اللهِ تَعَالَى، وإِنْ اخْتَارَنِيْ فَاشْهَدُوا أَنَّهُ مِنِّيْ بِمَنْزِلَةِ الوَلَدِ، يَرِثُنِيْ وأَرِثُهُ.

فَقَالُوا:

ـ لَقَدْ أَنْصَفْتَ.

وحِيْنَ خُيِّرَ زَيْدٌ فِي ذَلِكَ قَالَ:

ـ أَنَا لَسْتُ بِالذِي أَخْتَارُ أَحَدَاً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَخَرَجَ أَهْلُهُ مِنْ عَنْدِ رِسُولِ اللهِ وهُمْ مُطْمَئِنُّونَ وَاثِقُونَ مِنْ حُسْنِ اِخْتِيَارِهِ وطِيْبِ مُقَامِهِ.

ومُنْذُ ذَلِكَ الحِيْنِ أَصْبَحَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ يُعْرَفُ بِـ «زَيْدِ بنِ مُحَمَّدٍ»، واِسْتَمَرَّ الأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ زمَناً حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي كِتَابِهِ ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ (الأَحْزَابْ:5) فَعَادَ زَيْدٌ يُدْعَى زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ، ولَكِنَّهُ ظَلَّ عَلَى ولَائِهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، مُخْلِصاً أَمِيْناً وَفِيّاً، ومُسْلِماً مُؤْمِناً تَقِيّاً.

والنِّسْبَةُ لِلآبَاءِ أَوْلَى وأَجْدَى، وأَضْمَنُ لِسَلَامَةِ الأَحْسَابِ والأَنْسَابِ فِي المُجْتَمَعَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ، حَتَّى لَا تَضِيْعَ أَوْ تَضِلَّ فِي مَتَاهَاتِ الصِلَاتِ البَشَرِيَّةِ.

الفَتَاةُ القُرَشِيَّةُ

وكَانَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ المَخْزُومِيَّةُ، وأُمُّهَا أُمَيْمَةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ الهَاشِمِيَّةُ، عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

كَانَتْ زَيْنَبُ زِيْنَةَ فَتَيَاتِ مَكَّةَ، غَضَّةً بَضَّةً، تَتَبَاهَى بِأَصَالَةِ أَرُومَتِهَا، وطِيْبِ عُنْصُرِهَا، وفَصَاحَةِ لِسَانِهَا، وعِزَّةِ فَضَائِلِهَا.

أَسْلَمَتْ وآمَنَتْ وبَايَعَتْ، وظَلَّتْ عَزْبَاء إِذْ رَدَّتْ كَثِيْرَاً مِنَ الأَيْدِي التِي تَقَدَّمَتْ لَهَا بِخُيَلَاءِ العَرَبِيَّةِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ لَا تَجِدُ فِي مَنْ رَغِبَ بِالزَّوَاجِ مِنْهَا تَكَافُؤَاً اِجْتِمَاعِيّاً.

زَوَاجُهَا مِنْ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ المَوْلَى

وهُنَا ـ أَيُّهَا القَارِئُ العَزِيْزُ ـ أَوَّلُ المُفَارَقَاتِ.

بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ المُسْلِمُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِيْنَةِ، أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْنِي المُجْتَمَعَ المَدَنِيَّ عَلَى أُسُسٍ جَدِيْدَةٍ فِيْهَا الثَّوْرَةُ عَلَى كُلِّ الأَعْرَافِ الجَاهِلِيَّة، وقِيَمِهَا الزَّائِفَةِ. أَرَادَ أَنْ يَبْنِي ذَلِكَ المُجْتَمَعَ عَلَى قَاعِدَةٍ صُلْبَةٍ مِنَ الإِخَاءِ الإِنْسَانِيِّ فِي اللهِ، بِحَيْثُ تَكُونُ بَشَرِيَّةُ الإِنْسَانِ والفَرْدِ، وتَقْوَاهُ مَعَ اللهِ هِيَ مُؤَهِّلَاتُهُ فَقَطْ، لَا مَالُهُ ولَا حَسَبُهُ ولَا نَسَبُهُ ولَا بَأْسُهُ ولَا مَكَانَتُهُ...

وبَدَأَتْ الأُخُوَّةُ فِي اللهِ ... ،

فَيُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَ لِزَيْنَبَ بِنْتِ عَمَّتِهِ:

ـ إِنِّي أُرِيْدُكِ أَنْ تَتَزَوَّجِي مِنْ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ ...

وفَاجَأَهَا الطَّلَبُ فَقَالَتْ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ ... لَا أَرْضَاهُ لِنَفْسِي وأَنَا أَيِّمُ قُرَيْشٍ.

فَقَالَ ﷺ:

ـ فَإِنِّي قَدْ رَضِيْتُهُ لَكِ ...

وكَانَ القَولُ الفَصْلُ، فَمَا دَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الذِي ارْتَضَى زَيْدَاً لِزَيْنَبَ فَمَعْنَى ذَلِكَ حِكْمَةٌ مَا بَعْدَهَا حِكْمَةٌ.

وتَمَّ زَوَاجُ المُوْلَى زَيْدَ بِنِ حَارِثَةَ مِنَ الفَتَاةِ القُرَشِيَّةِ ذَاتِ الحَسَبِ والنَّسَبِ زَيْنَبَ بِنتِ جَحْشٍ، ولَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ لَأَنَّ الإِسْلَامَ سَوَّى بَيْنَهُمَا، فَأَكْرَمُهُمَا عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمَا.

وَطَرُ زَيْدٍ

ومَضَى قِطَارُ العُمْرِ بِزَيْنَبَ وَزَيْدٍ، ولَكِنْ كَانَتْ هُنَاكَ بَعْضُ الغُيُومِ التِي تَتَلَبَّدُ بَيْنَ الحِينِ والحِيْنِ فِي سَمَاءِ بَيْتِ الزَّوجِيَّةِ، ولَمْ يَكُنِ الوِفَاقُ عَلَى أَتَمِّهِ بَيْنَهُمَا، وكَمَا تَقْتَضِيْ قَوَاعِدُ السَّعَادَةِ الزَّوْجِيَّةِ.

حَتَّى كَانَ المُفْتَرَقُ ...

فَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى دَارِ زَيْدٍ يَسْأَلُ عَنْهُ لِحَاجَةٍ يُرِيْدُهَا، فَلَمَّا عَلِمَتْ زَيْنَبُ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَرَجَتْ مُسْرِعَةً لِإِسْتِقْبَالِهِ وهِيَ فِي ثِيَابِ العَمَلِ فِي البَيْتِ، دُوْنَ أَنْ تَسْتَتِرَ مَا فِيْهِ الكِفَايَةُ، وأَخْبَرَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِعَدَمِ وُجُودِ زَيْدٍ ثُمَّ دَعَتْهُ إِلَى الدُّخُولِ فَأَبَى ﷺ رَغْمَ إِلْحَاحِهَا، ثُمَّ غَضَّ بَصَرَهُ، وأَدَارَ ظَهْرَهُ، وتَمْتَمَ بِبَعْضِ كَلِمَاتٍ لَمْ تَسْمَعْهَا ولَمْ تَفْهَمْهَا زَيْنَبُ، سِوَى أَنَّهَا سَمِعَتْهُ يَقُولُ:

ـ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ، سُبْحَانَ مُصَرِّفِ القُلُوبِ.

انْصَرَفَ ﷺ وهُوَ يَدْعُو اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْمِيَهُ ويَحْفَظَهُ مِنْ نَزْعَةٍ أَوْ نَزْغَةٍ.

لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ بِالشَّخْصِ الذِي يَجِدُ الشَّيْطَانُ سَبِيْلاً إِلَى قَلْبِهِ وضَمِيْرِهِ، فَقَدْ عَصَمَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى مِنْ فِتْنَةِ إِبْلِيْسَ.

أَوَلَا تَذْكُرُ طُفُوْلَتَهُ ﷺ حِيْنَ كَانَ فِي دِيَارِ بَنِيْ سَعْدٍ تُرْضِعُهُ حَلِيْمَةُ وكَيْفَ جَاءَهُ المَلَكَانِ، وشَقَّا صَدْرَهُ، وغَسَلَا قَلْبَهُ بِماءِ الكَوْثَرِ، وانْتَزَعَا عَلَقَةً سَوْدَاءَ مِنَ القَلْبِ...!

لَقَدْ حُفِظَ ﷺ مُنْذُ أَنْ كَانَ طِفْلاً صَغِيْرَاً، وعُصِمَ مِنْ كُلِّ سُوْءٍ.

قَلْبُ الرَّسُولِ البَشَرِ

﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (الإِسْرَاء: 93). ﷺ

لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَشَرَاً يُحِسُّ إِحْسَاسَهُمْ، وتَتَفَاعَلُ فِي كَيَانِهِ عَوَامِلُ البَشَرِيَّةِ والإِنْسَانِيَّةِ، ولَكِنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ عَاصِمَهُ مِنَ الدَّنَايَا، حَافِظَهُ مِنْ كُلِّ سُوْءٍ.

ولَقَدْ وَقَعَتْ زَيْنَبُ مِنْ نَفْسِهِ ومِنْ قَلْبِهِ مَوْقِعَ القَبُولِ، فَكَتَمَ ذَلِكَ، وَحَرِصَ عَلَى كِتْمَانِهِ، واسْتَغَاثَ بِرَبِّهِ قَائِلاً:

ـ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ ، سُبْحَانَ مُصَرِّفِ القُلُوْبِ.

وهَذَا مِصْدَاقُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ (الأَحْزَاب: 37).

وسَيَبْدُو مَا فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ أَيَّامٍ.

عَادَ زَيْدٌ إِلَى الدَّارِ فَأَخْبَرَتْهُ زَيْنَبُ بِكُلِّ الوَقَائِعِ، مِنْ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ، حَتَّى مُنْصَرَفِهِ عَنْ بَابِ الدَّارِ، إِلَى مَا كَانَ يُرَدِّدُهُ مِنْ قَوْلٍ وهُوَ فِي طَرِيقِ الأَوْبَةِ.

عِنْدَئِذٍ أَسْرَعَ زَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولَبَّى حَاجَتَهُ التِي جَاءَ مِنْ أَجْلِهَا فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ دَارَ الحِوَارُ بَيْنَ زَيْدٍ وبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ الكَرِيْمُ قَائِلًا: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ.

رَدَّدَ العِبَارَةَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، فِي عَزْمٍ وتَصْمِيْمٍ واِسْتِمْسَاكٍ بِحَبْلِ اللهِ المَتِيْنِ، ودَفْعًا لِلنَّزْعَةِ البَشَرِيَّةِ عَنْ القَلْبِ أَنْ تُسَيْطِرَ عَلَيْهِ.

تَدْبِيْرُ اللهِ تَعَالَى

كَانَتْ عَادَةُ الجَاهِلِيِّيْنَ أَنْ يَمْتَنِعَ المُتَبَنِّي عَنِ الزَّوَاجِ مِنْ قَرِيْنَةِ مَنْ تَبَنَّاهُ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ الوَلَدِ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ وأَبْطَلَ عَادَةَ التَّبَنِّي، ورَدَّ الأَمْرَ إِلَى أُصُوْلِهِ وجُذُوْرِهِ، بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (الأَحْزَاب: 5).

أَرَادَ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ويُبْطِلَ تِلْكَ العَادَةِ كُلِّيَّةً بِأُصُوْلِهَا وفُرُوعِهَا، وأَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ القُدْوَةُ فِي هَذَا الشَّأْنِ

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأَحْزَاب: 21).

ودَبَّرَ الأَمْرَ سُبْحَانَهُ عَلَى الكَيْفِيَّةِ والصُّورَةِ المِثَالِيَّةِ، ثُمَّ أَعْقَبَهَا بِحُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ الذي لَا يَأْتِيْهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولَا مِنْ خلْفِهِ،

﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾ (الأَحْزَاب: 37).

اِسْتَحْكَمَ الخِلَافُ بَيْنَ زَيدٍ وبَيْنَ زَيْنَب، وذَلِكَ فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُوْنِ الدُّنْيَا ومَتَاعِ الحَيَاةِ، وغَرَضٍ مَنْزِلِيٍّ بَحْتٍ، هُوَ يَرَى رَأْيًا وهِيَ تَرَى آخَرَ. فَكَانَ رضي الله عنه يَأْتِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ طَالِبًا إِلَيْهِ أَنْ يُسَاعِدَهُ عَلَى الخَلَاصِ مِنْ زَيْنَبَ والتَّفْرِيْقِ بَيْنَهُمَا لِيَأْخُذَ كُلٌّ طَرِيْقَهُ فِي الحَيَاةِ، فَيَرُدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: ـ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ.

وتَكَرَّرَ الطَّلَبُ مِنْ زَيْدٍ كَمَا تَكَرَّرَ الرَّدُّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

وأَخِيْرًا ... جَاءَ الأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ بِالتَّفْرِيْقِ، وبِزَوَاجِهِ ﷺ مِنْ زَيْنَبَ.

الزَّوَاجُ

فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا مِنْ زَيْدٍ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَادِمَتَهُ سَلْمَى لِتُخْبِرَ زَيْنَبَ بِرَغْبَتِهِ ﷺ بِالزَّوَاجِ مِنْهَا، فَلَمَّا سَمِعَتْ زَيْنَبُ بِذَلِكَ خَرَّتْ سَاجِدَةً، وقَدْ اِسْتَبَدَّتْ بِهَا الفَرْحَةُ، ثُمَّ أَعْطَتِ الخَادِمَةَ المُبَشِّرَةَ هَدَايَا قَيِّمَةً ثَمِيْنَةً جَزَاءَ مَا أَخْبَرَتْهَا الخَبَرَ الطَّيِّبَ.

الخَبَرَ الذِي كَانَتْ تَنْتَظِرُهُ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيْدٍ، كَيْ تَنَالَ الحُظْوَةَ والشَّرَفَ العَظِيْمَ، وتَدْخُلَ فِي عِدَادِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ، وتَتَفَيَّأَ ظِلَالَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ الكَرِيمَ.

أَعْظَمُ الوَلَائِمِ

وكَانَتْ وَلِيْمَةُ العُرْسِ التِي أَوْلَمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ زَوَاجِهِ مِنْ زَيْنَبَ أَعْظَمَ الوَلَائِمِ، إِذْ ذَبَحَ فِيهَا شَاةً، ودَعَا إِلَى البَيْتِ مَا يَزِيْدُ عَلَى سَبْعِينَ رَجُلاً مِنْ جِلَّةِ أَصْحَابِهِ، وكِبَارِ إِخْوَانِهِ وأَعْوَانِهِ، حَتَّى قِيْلَ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي المَسْجِدِ يَوْمَهَا أَحَدٌ إِلَّا وحَضَرَ الطَّعَامَ، وأَكَلُوْا جَمِيْعاً بِاسْمِ اللهِ.

ودَعَوْا عِنْدَ مُنْصَرَفِهِمْ عَنِ الوَلِيْمَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِالتَّوْفِيْقِ وحُسْنِ الثَّوَابِ، رَاجِيْنَ رَبَّهُمُ العَلِيَّ القَدِيْرَ أَنْ يُتِمَّ عَلَى المُسْلِمِيْنَ دَائِماً وأَبَداً فَضْلَهُ ونِعَمَهُ.

الحُكْمُ بِالحِجَابِ

ومَكَثَ الحَاضِرُونَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقْتاً أَطْوَلَ مِنَ اللَّازِمِ، يَتَحَدَّثُونَ ويَتَسَامَرُونَ، ورَسُولُ اللهِ ﷺ مَشْغُولٌ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ زَوْجَتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ تَأَذَّى مِنْ ذَلِكَ ولَكِنَّهُ أَخْفَاهُ فِيْ نَفْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب: 53].

فَرْحَةُ العَرُوسِ

قَالَتْ زَيْنَبُ رضي الله عنها:

ـ لَمَّا جَاءَنِي الرَسُولُ بِتَزْوِيجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّايَ، جَعَلْتُ لِلّهِ عَلَيَّ صَوْمَ شَهْرَيْنِ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُنْتُ لَا أَقْدِرُ أَنْ أَصُومَهُمَا فِي حَضَرٍ، ولَا سَفَرٍ تُصِيبُنِي فِيْهِ القُرْعَةُ، فَلَمَّا أَصَابَتْنِي القُرْعَةُ فِي المَقَامِ صُمْتُهُمَا.

ولَقَدْ وَصَفَتْهَا أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها فَقَالَتْ:

ـ كَانَتْ (أَيْ زَيْنَبُ) لِرَسُولِ اللهِ مُعْجِبَةً، وكَانَ يَسْتَكْثِرُ مِنْهَا، وكَانَتْ اِمْرَأَةً صَالِحَةً، صَوَّامَةً قَوَّامَةً، صَنْعَاً تَتَصَدَّقُ بِذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى النَّاسِ.

مُفَاخَرَتُهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ

وَجَرَتْ ذَاتَ يَوْمٍ مُلَاحَاةٌ بَيْنَهَا وبَيْنَ عَائِشَةَ التِي كَانَتْ تَغَارُ مِنْهَا غَيْرَةً شَدِيْدَةً، فَقَالَتْ زَيْنَبُ:

ـ إِنِّيَ واللهِ مَا أَنَا كَأَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِنَّهُنَّ زُوِّجَهُنَّ بِالمُهُورِ، وزَوَّجَهُنَّ الأَوْلِيَاءُ، وزَوَّجَنِيَ اللهُ رَسُولَهُ، وأُنْزِلَ فِيَّ الكِتَابُ، يَقْرَأُبِهِ المُسْلِمُونَ لَا يُبَدَّلُ ولَا يُغَيَّرُ.

ولَئِنْ كَانَ الأَمْرُ أَمْرَ مُلَاحَاةٍ نِسَائِيَّةٍ ومُفَاخَرَةٍ غَيْرَةٍ أُنْثَوِيَّةٍ، وهُوَ لَا يَعْدُو ذَلِكَ فِي نَظَرِنَا، فَإِنَّ زَيْنَبَ رضي الله عنها لَا نَعْتَقِدُ أَنَّهَا نَسِيَتْ أَبَدَاً فَضْلَ وظُرُوْفَ كُلٍّ مِنْ نِسَائِهِ ﷺ.

عَائِشَةُ وحَفْصَةُ

وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْكُثُ عَنْدَ زَيْنَبَ وقْتَاً طَوِيْلَاً، وكَانَ يَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلَاً، وكَانَ يُحِبُّ العَسَلَ ويَشْتَهِيْهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ:

ـ فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَ حَفْصَةُ أَيَّتُنَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَلْتَقُلْ إِنِّي أَجِدُ

مِنْكَ رِيْحَ مَغَافِيْرَ.

فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ:

ـ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ، لَنْ أَعُودَ إِلَيْهِ.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ ﴾

إلى قوله: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (التحريم: 1 - 3).

يَعْنِي عَائِشَةَ وحَفْصَةَ.

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ (التحريم: 2).

يَعنِيْ قَوْلَهُ لَهُمَا: شَرِبْتُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ.

المُتَصَدِّقَةُ

ولَقَدْ كَانَتْ شُهْرَةُ زَيْنَبَ رضي الله عنها بَيْنَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ بِشَأْنِ الصَّدَقَةِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ جَمِيْعَاً، فَمَا كَانَتْ لِتَرْضَى أَنْ تُبَيِّتَ دِرْهَمَاً فِي دَارِهَا قَبْلَ أَنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى مَنْ هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ . .

تُنْفِقُ كُلَّ مَا يَصِلُ إِلَى يَدِهَا مِنْ عَطَاءٍ أَوْ صِلَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، تَقَرُّبَاً إِلَى اللهِ تَعَالَى، واقْتِدَاءً بِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ.

يُرْوَى أَنَّ سَيِّدَنَا «عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ» رضي الله عنه أَرْسَلَ إِلَى أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ زَيْنَبَ

بِنْتِ جَحْشٍ بِالذِي لَهَا مِنَ الصِّلَةِ والرِّزْقِ، فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَيْهَا قَالَتْ:

ـ غَفَرَ اللهُ لِعُمَرَ، غَيْرِيَ مِنْ أَخَوَاتِي كَانَ أَقْوَى عَلَى قَسْمِ هَذَا مِنِّيْ.

قَالُوْا:

ـ هَذَا كُلُّهُ لَكِ

قَالَتْ:

ـ سُبْحَان الله، ثُمَّ اِسْتَتَرَتْ بِثَوْبٍ وقَالَتْ:

ـ صُبُّوْهُ واطْرَحُوْا عَلَيْهِ ثَوْبَاً، ثُمَّ قَالَتْ لِبَرْزَةَ بِنتِ رَافِعٍ:

ـ أَدْخِلِيْ يَدَكِ فَاقْبِضِي مِنْهُ قَبْضَةً فَاذْهَبِي بِهَا إِلَى بَنِيْ فُلَانٍ، وبَنِي فُلَانٍ، (مِنْ أَهْلِ رَحِمِهَا وأَيْتَامِهَا) حَتَّى بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ تَحْتَ الثَّوْبِ.

فَقَالَتْ لَهَا «بَرْزَةُ»:

ـ يَا أُمَّ المُؤْمِنِيْنَ، غَفَرَ اللهُ لَكِ، واللهِ لَقَدْ كَانَ لَنَا فِي هَذَا حَقٌّ، فَقَالَتْ:

ـ لَكُمْ مَا تَحْتَ الثَّوْبِ.

فَوَجَدْنَا تَحْتَهُ خَمْسَةً وثَمَانِيْنَ دِرْهَمَاً، ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَهَا إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَتْ:

ـ اللهُمَّ لَا يُدْرِكُنِي عَطَاءٌ لِعُمَرَ بَعْدَ عَامِيَ هَذَا.

ويُرْوَى أَنَّ عَطَاءَهَا بَلَغَ اِثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ لَمْ تَأْخُذْهُ إِلَّا فِي عَامِهَا هَذَا، وفَرَّقَتْهُ عَلَى اليَتَامَى والمَسَاكِيْنِ والمُحْتَاجِيْنَ كَمَا رَأَيْنَا.

ولَقَدْ كَانَتْ جَمِيْعُ زَوْجَاتِهِ ﷺ حَرِيْصَاتٌ عَلَى البِرِّ بِالمَسَاكِيْنِ والمُحْتَاجِيْنَ، لَا يَدَّخِرْنَ وُسْعَاً فِي الإِنْفَاقِ والبَذْلِ، رَاجِيَاتٍ مِنَ الرَّبِّ الكَرِيْمِ أَنْ يَتَقَبَّلَ صَدَقَاتِهِنَّ أَحْسَنَ القَبُولَ.

المُتَصَدِّقَةُ بِالأَكْفَانِ

ولَمَّا حَضَرَتْهَا الوَفَاةُ فِي العَامِ العِشْرِيْنَ مِنَ الهِجْرَةِ وكَانَتْ قَدْ بَلَغَتِ الثَّالِثَةَ والخَمْسِيْنَ مِنْ عُمُرِهَا، أَرْسَلَ لَهَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ بِخَمْسَةِ أَثْوابٍ مِنَ الخَزَائِنِ يَتَخَيَّرُهَا ثُوْبَاً ثَوْبَاً، فَكُفِّنَتْ فِيهَا، وتَصَدَّقَتْ أُخْتُهَا عَنْهَا، كَمَا أَوْصَتْ بِكَفَنِهَا الذِي أَعَدَّتْهُ لِتُكَفَّنَ فِيْهِ.

وبِهَذَا التَّصَرُّفِ تُعْطِيْ زَيْنَبُ رضي الله عنها لِلْمُؤْمِنَاتِ و المُؤْمِنِيْنَ مِنْ بَعْدِهَا خَيْرَ المَثَلِ وأَعْظَمَهُ، فِي اِحْتِسَابِ مَادِّيَّاتِ الدُنْيَا كُلِّهَا، عَرَضَاً زَائِلَاً تُبْتَغَى بِهِ الدَّارُ الآخِرَةُ، التِي هِيَ أَبْقَى وأَخْلَدُ.

الصَّلَاةُ عَلَيْهَا ودفْنُهَا

رَوَى «القَاسِمُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ» فَقَالَ:

لَمَّا تُوُفِّيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ رضي الله عنها وكَانَتْ أَوَّلَ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لُحُوْقَاً بِهِ، فَلَمَّا حُمِلَتْ إِلَى قَبْرِهَا، قَامَ عُمَرُ إِلَى قَبْرِهَا فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى

عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَى النِّسْوَةِ (يَعْنِي أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ) حِيْنَ مَرِضَتْ هَذِهِ المَرْأَةُ أَنْ: مَنْ يُمَرِّضُهَا ويَقُومُ عَلَيْهَا ؟

فَأَرْسَلْنَ: نَحْنُ.

فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَ، ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ حِيَنَ قُبِضَتْ ، مَنْ يُغَسِّلُهَا ويُحَنِّطُهَا ويُكَفِّنُهَا؟

فَأَرْسَلْنَ: نَحْنُ.

فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَ، ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ: مَنْ يُدْخِلُهَا قَبْرَهَا

فَأَرْسَلْنَ: مَنْ كَانَ يَحِلُّ لَهُ الوُلُوجُ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهَا.

فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَ، فَاعْتَزِلُوْا أَيُّهَا النَّاسُ، فَنَحَّاهُمْ عَنْ قَبْرِهَا، ثُمَّ أَدْخَلَهَا رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهَا.

وكَانَ سَيِّدُنَا عُمَرُ هُوَ الذِي صَلَّى عَلَيْهَا، ورَافَقَهَا حَتَّى البَقِيْعِ، وانْتَظَرَ حَتَّى فُرِغَ مِنْ حَفْرِ القَبْرِ. تَكْرِمَةً لَهَا واعْتِرَافاً بِفَضْلِهَا وَمَكَانَتِهَا.

رَضِيَ اللهُ عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ، وإِمَامَةِ المُتَصَدِّقِيْنَ، وزَوْجَةِ رَسُولِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، بِوَحْيٍ فِي الكِتَابِ المُبِيْنِ، وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْن.